ناب أبيض

جاك لندن

مكتبة ٧٦٠

كلاسيكيات الأدب الإنجليزي

ترجمة مها محمود صالح

مكتبة 760
سُر مَن قرأ

جاك لندن

ناب أبيض

الكتاب: ناب أبيض (رواية)
تأليف: جاك لندن
ترجمة: مها صالح
عدد الصفحات: 288 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-941-32-6

رقم الناشر: 365-135/ 19

الترقيم الدولي: 978-614-472-081-3

الطبعة الأولى: 2019

هذه ترجمة رواية
WHITE FANG
by Jack London

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة © دار التنوير 2019

الناشر
دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

مكتبة
t.me/t_pdf

جاك لندن

مكتبة 760
سُر مَن قرأ

ناب أبيض

(رواية)

ترجمة
مها محمود صالح

كلاسيكيات
الأدب الإنجليزي

الجزء الأول

البراري

مكتبة
t.me/t_pdf

1
طريق اللحم

بدت غابة الصنوبر المظلمة الواقعة على جانبي الممر المائي المتجمّد في غاية الكآبة، وقد تعرّت الأشجار من غطائها الثلجي الأبيض، بفعل الرياح التي هبّت مؤخّرًا. تتمايل الأشجار الآن في صفّين متواجهين، يدعو شكلها للتشاؤم، بلونها الأسود والضوء الخافت حولها. وقد حلّ على الأرض صمت مهيب، فهي خراب يخلو من أي حركة أو حياة، وقد بلغت بها الوحشة والبرد الحدَّ الذي يجعل الروح التي تسري فيها تتجاوز شعور الحزن. نعم، كان فيها لمحة من ضحك هو أفظع من أي حزن. ضحك خالٍ من الفرح، مثل ابتسامة أبي الهول، بارد كالصقيع، وهو جزء من ادّعاء الكمال، الذي لا يمكن احتماله لأنه لا يعرف أي تنازلات. إنها حكمة الأبدية، المهيمنة والعصيّة على الفهم، تضحك من عبثية الحياة، ولا جدوى بذل المجهود فيها. نحن الآن في البراري، البراري الشمالية الوحشيّة، المتجمّدة القلب.

بيد أنه كانت ثمة حياة تعلن التحدّي قادمة من بعيد، فعلى الطريق المائي المتجمّد ظهر في خطٍّ متّصلٍ عددٌ من الكلاب الشبيهة بالذئاب. تقدّمت الكلاب في جهد واضح، وقد اكتسى فراؤها الخشن بالصقيع، وكانت أنفاسها تتجمّد في الهواء بمجرّد خروجها من أفواهها، ثم تتدفّق على شكل رغاوٍ من البخار تستقر على فراء أجسامها على شكل بلورات من الصقيع. أُحيطت الكلاب بألجمة جلدية، ورُبطت بسيور من الجلد

أيضًا إلى زلّاجة تجرها وراءها. أما الزلّاجة، فلم يكن لها نعلان يتماسَّان مع الجليد كالزلّاجات الأخرى، بل هي مصنوعة من كتلة متينة من لحاء شجرة البتولا، ويستقرّ قاعها كلّه على الجليد. ومقدّمة الزلّاجة تتّجه إلى أعلى في شكل حلزوني، وذلك لكي تدفع إلى أسفل منها الذرّات التي تنبعث من الجليد ثم تتحوّل إلى موجة أمامها. وهناك صندوق طويل ضيّق مستطيل الشكل مربوط بإحكام على الزلّاجة، ورغم أنه كان ثمة أشياء أخرى منها عدة بطاطين، وبلطة، وإبريق للقهوة، ومقلاة، فقد برز ذلك الصندوق واحتل معظم المساحة.

كان رجل يحث الخطى أمام الكلاب منتعلًا حذاءً مُخصّصًا للسير على الجليد، وآخر يقف على مؤخّرة الزلّاجة. وهناك رجلٌ ثالث يرقد داخل الصندوق، بعد أن انتهى كفاحه على هذه الأرض. هو رجل غالبته الحياة في البراري حتى غلبته، ولم يعد قادرًا على مزيد من الحركة أو المجاهدة، فليس من عادة البراري أن تحبّ الحركة، بل هي تعادي الحياة التي هي في جوهرها حركة، إذ تهدف البراري دائمًا إلى تحطيم القدرة على الحركة. إنها تعمل على تجميد الماء لتمنعه من الجريان إلى البحر، وتدفع عصارة الحياة إلى خارج النباتات، إلى أن تتجمّد تمامًا. أما الأسوأ من كل شيء، فهو أن تلك البراري تناوش الإنسان، وقد يصل بها الأمر إلى سحقه تمامًا لكي يستسلم لرغبتها. الإنسان الذي هو أبعد الكائنات عن السكون، بل هو في سعيٍ دائم، متمرّدًا على مقولة أن كل حركة في الحياة يجب أن تنتهي إلى السكون.

كان الرجلان يعملان في جَلَد، ولا يعرفان الخوف، وكأنهما لا يُقهران. تَغَطّى جسداهما بفراء وجلد مدبوغ ذي لون باهت، على حين اكتست رموش عيونهما ووجناتهما وشفاههما ببلورات من أنفاسهما المتجمّدة، حتى إن وجهيهما صارا غير واضحيّ المعالم، كأنهما شبحان لمتعهدَي دفن في جنازة شبح ثالث في عالم من الأشباح. في حقيقة

الأمر، لم يكونا سوى رجلين يحاولان اختراق تلك الأرض اليباب، أرض الوحشة والسخرية والصمت. هما اثنان من المغامرين البسطاء يندفعان في خِضَمّ مغامرةٍ قاسيةٍ، في مواجهة قوة عالم غريب، ساحق البعد، لا نبض فيه، فكأنهما في هاوية الفضاء الواسع.

مضى الرجلان في طريقهما صامتين، مدّخرَين طاقة أنفاسهما لجهد جسديهما، وعلى جانبي الطريق كان الصمت ضاغطًا وله وجود مادّي يستحيل تجاهله، حتى لقد تأثّرت به أفكارهما كما يتأثّر جسد الغواصّ في المياه العميقة بكل تفاصيل البيئة المحيطة به. جثم الصّمت عليهما بثقل ذلك الاتساع اللانهائي، وقوانينه القاهرة، وبدا كأنه تسلّل إلى أبعد تلافيف دماغَيْهما، فضغطها، ليخرج منها، كما يسيل العصير من العنب، كل حماسة زائفة، وتسامٍ، وغيرهما من القيَم التي تجعل النفس البشرية ترى نفسها بشكل مبالغٍ فيه. نعم، لقد وصلا إلى الحدِّ الذي جعلهما لا يريان في نفسيهما سوى ذرّتين صغيرتين بل متناهيتي الصغر، أو قذًى هائم، يتحرّك في الحياة، مفتقدًا المهارة والحكمة، في خضمّ حركة قوى وعناصر جبّارة عمياء، وتفاعلها مع بعضها بعضًا.

مرّت ساعة، ثم ساعة أخرى، وبدأ الضوء الشاحب لذلك النهار القصير الذي لم يرَ الشمس في التلاشي. وفجأة، شقّ الصمت صوت صرخة خافتة آتية من بعيد. حلّقت إلى أعلى في الهواء بسرعة ورشاقة، حتى وصلت إلى أعلى ارتفاع لها، فلبثت هنيهة نابضة مشدودة، ثم تلاشت ببطء. بدا الصوت كأنه عويل روح هائمة، لولا أنها تميّزت بشيء من الشراسة المصبوغة بالحزن، وبغير قليل من الجوع المتلهّف. التفت الرجل الجالس في المقدّمة برأسه إلى زميله في الخلف، فالتقت عيونهما، وأومأ كل منهما للآخر عبر الصندوق الضيّق المستطيل.

ثم ارتفعت صرخة ثانية، ثقبت الصمت بحدّة إبرة رفيعة. أدرك الرجلان عندئذٍ أن الموضع الذي انبعث منه الصوت في مكان ما من

منطقة الجليد التي اجتازاها للتو. ثم أجابت صرخة ثالثة الصرختين الأوليين، أيضًا في الجليد خلفهما، إلى اليسار من الصرخة الثانية.

تكلّم الرجل الذي في المقدّمة بشيء من الصعوبة، فقال بصوت أجش غريب:

- «إنها تطاردنا يا بيل».

فأجاب رفيقه:

- «الصيد شحيح، فلم أرَ آثار أرانب منذ أيام».

منذ ذلك الحين لم يتكلّم الرجلان، على حين أخذت آذانهما تنصتَ إلى صيحات البحث عن الصيد التي استمرت تتعالى وراءهما.

انعطف الرجلان ومعهما الكلاب، عندما حلّ الظلام، إلى مجموعة متقاربة من أشجار الصنوبر على حافّة الممر المائي، وهناك نصبا مخيَّمًا. وضعا التابوت بالقرب من النار واستخدماه كمائدة وكرسي. أما الكلاب فقد تجمّعت على الجانب البعيد من النار، حيث أخذت تزوم وتتشاحن في ما بينها لكنّها لم تُبدِ أي ميل إلى الانطلاق في الظلام.

نظر بيل إليها وعلّق قائلًا:

- «من الواضح يا هنري أنها ستظلّ قريبة من المخيّم».

قَرْفَص هنري بجوار النار، وأسند إبريق القهوة في مكانه باستخدام قطعة من الثلج، ثم أومأ برأسه، ولم ينطق بكلمة إلى أن اتخذ مجلسه على التابوت وشرع في الأكل، ثم قال:

- «هذه الكلاب غاية في الحكمة، فهي تعرف أنها في أمان معنا. هي بالتأكيد تفضّل أن تأكل طعامها القليل، على أن تصير هي طعامًا لغيرها».

هز بيل رأسه معقِّبًا:

- «الحقيقة أنني لا أدري».

نظر رفيقه إليه بفضول، وقال:

- «هذه أول مرة أسمعك تقول شيئًا عن سوء تصرّفها».

ردَّ بيل، وهو يمضغ الفاصوليا التي يأكلها بتأنٍّ:

- «يا هنري، هل لاحظت الطريقة التي كانت الكلاب تتطلّع إليَّ بها وأنا أُطعمها؟».

أجاب هنري مؤكّدًا:

- «لقد حصلوا على طعام يكفي، بل أكثر من المعتاد».

- «كم كلبًا معنا يا هنري؟».

- «ستة».

- «حسنًا يا هنري». قال بيل، ثم سكت للحظة، ليُكسب كلامه تأثيرًا أقوى، وأضاف: «كما قلنا يا هنري، كان معنا ستة كلاب. لقد أخذتُ ست سمكات من حقيبة الأكل، وأعطيت واحدة لكل كلب، لكنْ، ثمة كلبٌ لم يحصل على سمكة».

- «لا بد أنك أخطأت في العدّ».

كرّر الرجل الآخر كلامه بشيء من نفاد الصبر:

- «إن معنا ستة كلاب، استخرجت من الحقيبة ست سمكات، وثمة كلب هو «وحيد الأذن» لم يحصل على طعامه. لقد عدت إلى حقيبة الطعام، وأتيت له بسمكته».

قال هنري:

- «لكن ليس معنا سوى ستة كلاب».

فاستطرد بيل:

- «لم أقل إنها كانت جميعًا كلاب، لكنها كانت سبعة وحصلت على سبع سمكات».

توقّف هنري عن الأكل وألقى نظرة على الكلاب، على الناحية الأخرى من النار المشتعلة، وقام بِعَدِّها، ثم قال:

- »هي الآن ستة فقط«.

عندئذٍ أعلن بيل بلهجة مؤكِّدة:

- «رأيت السابع يجري مبتعدًا عبر الجليد. لقد كانت الكلاب سبعة».

نظر زميله إليه في شفقة وقال:

- «سأكون في غاية السعادة عندما تنتهي هذه الرحلة».

فتساءل بيل:

- «ماذا تعني بقولك هذا؟».

- «أعني أن هذه الحمولة التي نسافر بها قد أتعبت أعصابك، وأنك بدأت تتوهّم أشياء».

ردّ بيل متجهمًا:

- «لقد فَكَّرت في ذلك بالفعل، لذلك عندما رأيته يفرّ، نظرت إلى الجليد فرأيت آثاره. ثم قمت بِعَدّ الكلاب مرة أخرى، فوجدت أنها لا تزال ستة كلاب. الآثار موجودة هناك على الجليد، فهل تريد أن تراها؟ سوف أُريها لك».

لم يقل هنري شيئًا، واستمرّ يمضغ طعامه في صمت، إلى أن انتهى من وجبته، ثم أتبعها بقدح من القهوة. ومسح فمه بظهر يده ثم قال:

- «إذًا أنت تعتقد أنه...».

في تلك اللحظة سمع الرجلان صرخة منتحبة عالية، حزينة بشكل لا يُوصف، تأتي من مكان ما في الظلام، فتقطّع كلامه. توقّف هنري ليستمع، ثم أتمّ جملته بإشارة من يده إلى ناحية صدور الصرخة:

«... واحد منها؟».

أومأ بيل وقال:

- «عندما أفكّر في الأمر، يبدو لي أن هذه هي الحقيقة. أنت بنفسك لاحظت الصخب الذي سبّبته الكلاب عند وجوده».

توالت الصيحات، واحدة تردّ على أخرى، وتحوّل السكون إلى جلبة، جاءت من كل الأنحاء. وتجلّى الخوف الذي سيطر على الكلاب في تجمّعها قرب النار، الى الحدِّ الذي جعل النار تطول شعر بعضها. ألقى بيل بعض الحطب الإضافي إلى النار، ثم أشعل غليونه، وإذا بهنري يقول:

- «يبدو لي أن أعصابك متعبة».

- «يا هنري». قال بيل، ثم راح يسحب الدخان من غليونه مستغرقًا في التفكير لبعض الوقت، قبل أن يُتمَّ كلامه: «أما أنا فأعتقد يا هنري بأن هذا الرجل محظوظ للغاية، ولا أظن أن أيًّا منا يُمكنه أن ينال مثل حظّه»، وأشار بيل إلى الرجل المقصود بكلامه بلمسة من إبهامه للصندوق الذي يجلسان عليه. ثم أضاف:

«عندما نموت يا هنري، سنكون أنا وأنت محظوظَين لو وُجد ما يكفي من حجارة لإخفاء جثتينا وإبعاد الكلاب عنهما».

فعقّب رفيقه قائلًا:

- «نحن على كل حال لا نملك ما لديه من ثروة وأقارب، وبالتأكيد لا يمكننا أن نتحمّل تكلفة مثل هذه الجنازات التي تحتاج إلى سفر طويل».

- «ما يشغلني يا هنري، هو لماذا يفكّر شاب مثله، قد يكون لوردًا في بلده، أو شيئًا من هذا القبيل، لا يحمل همّ الطعام والغطاء، لماذا يفكّر في اقتحام أرض الله المهجورة هذه في أطراف الدنيا. هذا هو ما يحيّرني حقًّا».

أكد هنري موافقته:

- «لو لم يغادر بلده، لاستمتع بعمر أطول على الأرجح»!

فتح بيل فمه ليتكلّم، لكنه غيّر رأيه، وأشار - بدلًا من الكلام - في اتجاه جدار الظلام الذي يكاد يضغط عليهما من كل الجوانب. لم يكن ثمّة شكل يمكنهما تَبَيّنَه في ذلك الظلام الدامس، لم يكن هناك شيء سوى زوج من العيون اللامعة كجمرتين متّقدتين. أشار هنري برأسه إلى زوج آخر من العيون، ثم زوج ثالث. الآن، هناك دائرة من العيون بدأت تحيط بالمخيم، ومن حين لآخر يتحرّك زوج من العيون، أو يختفي ثم يظهر في موضع آخر.

كان اضطراب الكلاب يتزايد، ثم اندفعت مشتتةً في نوبة من الخوف المفاجئ إلى الجانب القريب من النار، وأخذت تزحف وتتمرّغ في أقدام الرجلين باستكانة. وفي خضم تلك الحركة تعثّر أحد الكلاب بالقرب من النار، حتى لفحه لهيبها، فانطلق يعوي في ألم وخوف بعد أن انتشرت في الهواء رائحة فرائه الذي كاد يحترق. كل ذلك جعل دائرة العيون تتحرّك في اضطراب لبعض الوقت، بل تراجعت بعض الشيء، قبل أن تعود من جديد إلى مكانها، بعد أن هدأت الكلاب.

- «يا هنري، إنه لمن سوء الحظّ أن ذخيرتنا قاربت على النفاد».

كان بيل عندئذٍ قد انتهى من تدخين غليونه، وشرع في مساعدة رفيقه في تجهيز سرير ببَسط الفراء والبطاطين على أفرع شجر الصنوبر التي سبق له أن مدّها على الجليد. غمغم هنري بشيء من التذمر، وبدأ يحل أربطة حذائه المصنوع من جلد الغزال. ثم سأل رفيقه:

- «كم طلقة بقيت معنا؟».

- «ثلاث». هكذا جاء الرّد السّريع، ثم أضاف بيل:

«وأتمنّى لو كانت ثلاثمائة، لأُريَ تلك الحيوانات اللعينة قدرها».

ثم هزّ قبضة يده بغضب في اتجاه العيون المتّقدة، وبدأ في تثبيت حذائه أمام النار، واستأنف كلامه:

«وأتمنّى أن ينتهي هذا البرد القارص، لقد بلغت درجة الحرارة خمسين تحت الصفر منذ ما يقرب من أسبوعين. وأتمنّى لو أنني لم أبدأ هذه الرحلة على الإطلاق يا هنري، فأنا لا أحب الطريقة التي تجري بها الأمور، ويبدو لي أن ثمة خطأً ما. واستكمالًا للتمنّيات، فإنني أتمنّى أن تنتهي هذه الرحلة، وتنتهي المهمّة، ثم نذهب سويًا لنجلس بجوار المدفأة في حانة «فورت ماجوري»، لكي نلعب الورق. هذا أقصى ما أتمنّاه.

غمغم هنري، وزحف إلى السرير، وما إن أخذه النعاس حتى أيقظه صوت زميله:

- «قل لي يا هنري، ذلك الكلب الإضافي الذي جاء وحصل على سمكة، لماذا لم تهاجمه كلابنا؟ هذا يقلقني حقًا».

وجاءت إجابة هنري ما بين اليقظة والمنام:

- «أنت قلق أكثر من اللازم يا بيل»، ثم أضاف: «لم تكن هذه طبيعتك من قبل. لم لا تهدأ الآن وتذهب للنوم، وستكون في الصباح في خير حال، إن معدتك تؤلمك وهذا هو ما يضايقك».

نام الرجلان متجاورين، وقد ثقلت أنفاسهما، تحت غطاء واحد. خبت النار، وبدأت دائرة العيون المترصِّدة حول المخيّم تصغر أكثر وأكثر. واستبدّ الخوف بالكلاب، فتقاربت من بعضها بعضًا، وجعلت تزوم متوعِّدة من حين لآخر، كلما اقترب زوج من العينين المتّقدتين. وذات مرة ارتفع ضجيجها حتى استيقظ بيل من نومه، فخرج من فراشه بحذر حتى لا يوقظ رفيقه ورمى مزيدًا من الحطب في النار، ومع توهّج النار بدأت دائرة العيون تتراجع مبتعدة. ألقى بيل نظرة عابرة على الكلاب المتكوّمة، دعك عينيه ونظر إليها بحدّة، ثم زحف عائدًا إلى الفراش، وقال:

- «هنري، يا هنري».

تأوه هنري وهو يعبر من النوم إلى اليقظة، وتساءل:

- «نعم. ما المشكلة الآن؟».

وجاءت الإجابة سريعًا:

- «لا شيء، ولكن يوجد سبعة منها الآن، لقد عددتها للتو».

صدر عن هنري صوت همهمة تأكيدً لكونه سمع كلمات بيل، وسرعان ما تحوّل الصوت إلى شخير، بينما غاص هنري في النوم من جديد.

في صباح اليوم التالي كان هنري هو أوّل من استيقظ، ثم أيقظ رفيقه، ورغم أن الساعة كانت السادسة، فلم تزل ثلاث ساعات باقية قبل ظهور ضوء النهار. وفي الظلام شرع هنري في إعداد الفطور، بينما انشغل بيل بلف البطاطين وتجهيز الزلّاجة للانطلاق. وفجأة طرح بيل سؤالًا:

- «قل لي يا هنري، كم كلبًا تعتقد معنا الآن؟».

- «إنها ستة».

فأعلن بيل بلهجة انتصار:

- «خطأ».

فتساءل هنري:

- «هل صاروا سبعة مرة أخرى؟».

- «لا، بل خمسة. لقد ذهب واحد منها».

صاح هنري في سخط:

- «يا للجحيم»، ثم ترك الطهو وذهب ليُحصي الكلاب، فلما انتهى من ذلك استأنف كلامه:

«أنت على حق يا بيل، لقد اختفى الكلب فاتي».

- «أعتقد بأنه انسلَّ وذهب بسرعة البرق! ولعلنا لم نستطع رؤيته بسبب دخان النار».

واستنتج هنري ما حدث، فقال:

- «لم يكن له أي فرصة للنجاة. لعلها ابتلعته حيًّا! أراهن أنه كان لايزال ينبح وهي تلتهمه. اللعنة عليه وعليها».

ردَّ بيل:

- «كان فاتي دائمًا كلبًا أحمق، على كل حال».

- «لكن أي كلب يمكن أن يصل به الحمق حد أن يذهب وينتحر بهذه الطريقة». هكذا قال هنري، ثم نظر إلى بقية فريق الكلاب بعين متأمّلة لخّصت فورًا الصفات البارزة لكل واحد منها.

وأخيرًا قال:

- «أراهن أنه لا يمكن لأي من الكلاب الأخرى أن يفعل مثله».

أكّد بيل كلام رفيقه:

- «لكم وجدت صعوبة في دفعها بعيدًا عن النار باستخدام الهراوة». ثم أضاف:

«كان رأيي دائمًا أن ثمة خطأً ما في فاتي هذا».

وهكذا انتهت مرثية كلب انتهت حياته على طريق الشمال المتجمِّد، وهي حقًّا مختصرة بالمقارنة بمرثيات كلاب أخرى لرجال آخرين.

مكتبة
t.me/t_pdf

2

الذئبة

تناولوا جميعًا طعام الإفطار، ثم حمّل الرجلان مستلزمات التخييم القليلة على الزلّاجة، وأعطوا ظهورهم للنار المشتعلة وانطلقوا يخترقون الظلام. وفي الحال بدأوا يسمعون الصيحات من جديد، صيحات بالغة الحزن، تنادي خلال الظلام والبرد وترد على بعضها بعضًا، أما الرجلان فقد انقطعت المحادثة بينهما. بزغ ضوء النهار عندالساعة التاسعة، وفي منتصف النهار تقريبًا تلوّنت السماء في الناحية الجنوبية باللون الوردي، موضع التداخل بين خط زوال الشمس من ناحية والقطب الشمالي من الناحية الأخرى، لكن اللون الوردي سرعان ما تلاشى. أما ضوء النهار الرمادي فقد استمرّ حتى الساعة الثالثة ثم بدأ يبهت حتى اختفى. ونزلت عباءة ليل القطب الشمالي على تلك الأرض الصامتة الموحشة.

تزايدت صيحات البحث عن الصيد مع حلول ظلام الليل، واقتربت عن يمين وعن شمال ومن الخلف، اقتربت إلى حدّ أنها أثارت فزع الكلاب المجهَدة، التي عبّرت عن قلقها بنوبات قصيرة من الهياج، وبعد انتهاء واحدة من تلك النوبات، أعاد بيل وهنري ربط الكلاب إلى سيور الزلّاجة، ثم قال بيل:

- «ليت تلك الحيوانات تجد صيدًا في مكان آخر وتبتعد عنا».

فقال هنري مُبديًا تعاطفه:

- «إنهم مثيرون للأعصاب حقًّا».

ولم يتكلّم الرجلان مرة أخرى إلى أن توقّفا ونصبا المخيّم».

كان هنري منحنيًا يضيف قطعة أُخرى من الثلج إلى الفاصوليا التي تغلي على النار عندما رَوَّعه فجأة صوت طرقة قوية تلاها صيحة تعجّب من بيل، وصيحة ألم حادة تختلط بصرخة ألم مُزمجرة آتية من وسط الكلاب. اِعتدل هنري واقفًا، فرأى شيئًا مبهمًا يختفي عبر الجليد متستّرًا بالظلام. ثم رأى بيل يقف وسط الكلاب، نصف منتصر ونصف مهزوم، وفي إحدى يديه هراوة ضخمة وفي الثانية ذيل سمكة سالمون جففتها الشمس، وجزء من جسمها. وسمع بيل يصيح:

– «لقد حصل على نصف السمكة، لكنني ضربته ضربة قوية أيضًا، ألم تسمع صراخه!».

فسأل هنري:

– «كيف كان شكله؟».

– «لم أتبيّنه بوضوح، لكنه يبدو مثل أي كلب؛ له قوائم أربع، وفم وشعر مثل كل الكلاب.

– «هو ذئب أليف، على ما أظن».

– «لا بد أنه مستأنَس، سواء أكان ذئبًا أو لا، وإلا لما أتى إلى هنا، بين الكلاب في وقت الطعام، ليحصل على نصيبه من السمك».

جلس الرجلان على الصندوق الخشبي، بعد الانتهاء من تناول العشاء في تلك الليلة، وأخذا يشدان أنفاس الدخان من غليونيهما، وقد صارت دائرة العيون المتّقدة المحيطة بهما أقرب من أي وقت مضى، وإذا ببيل يقول:

– «كم أتمنّى أن يمر بتلك الذئاب قطيع من الوعول، أو شيء من هذا القبيل، لكي تنصرف عنا».

غمغم هنري بصوت خشن من دون تعليق. ولمدة تقرب من ربع الساعة جلس الرجلان في صمت؛ فكان هنري يحملق في النار، على حين تابع بيل بعينيه دائرة العيون المترصّدة في الظلام وراء دائرة ضوء النار.

عاد بيل يقول:

- «ليتنا كنا الآن في طريقنا إلى حانة ماكري».

فانفجر هنري غاضبًا:

- «فلتتوقّف عن هذه الأمنيات، وأيضًا عن نعيب الغربان هذا».

- «إن معدتك تؤلمك، ولا بد أن هذا هو سبب انزعاجك. لم لا تبتلع معلقة من الصودا حتى يَسكن الألم، وتصير صحبتك ألطف».

استيقظ هنري في صباح اليوم التالي، على صوت سباب ولعنات تندفع بحرارة من فم بيل وكأنها موجّهة إلى السماء. استند هنري إلى مرفقه، وتطلّع ناحية رفيقه، فرآه واقفًا بين الكلاب، بجوار النار المشتعلة، وقد ارتفع ذراعاه إلى السماء في احتجاج، وتقلّص وجهه في انفعال. ناداه هنري:

- «والآن، ماذا حدث؟».

فجاءت الإجابة السريعة:

- «لقد ذهب الكلب فروج».

- «لا».

- «بل نعم. لقد ذهب».

وثب هنري من بين البطاطين، متوجّهًا إلى حيث تجلس الكلاب، فأحصاها بحرص، ثم شارك رفيقه في الاحتجاج على قوى البراري التي سلبتهما كلبًا آخر. وأخيرًا قال بيل:

- «كان فروج أقوى كلب في الفريق».

وأضاف هنري:

- «وهو ليس بالكلب الأحمق».

كانت هذه الكلمات هي رثاء الكلب الثاني في خلال يومين.

تناول الجميع فطورهم في جوّ من الكآبة، ثم رُبطت الكلاب الأربعة الباقية إلى الزلّاجة. مضى اليوم تكرارًا للأيام السابقة، من دون كلام بين الرفيقين تقريبًا، فقط كدح صامت في مواجهة ذلك العالم المتجمّد. ولا يكاد شيء يقطع الصمت سوى صيحات مطارديهم، ذلك الدثار غير المرئي الذي يطاردهم. بدت الصيحات أكثر قربًا - كما هي العادة - مع زحف الظلام منذ منتصف النهار، وتزايد بالتالي توتّر الكلاب وخوفها، وأدت نوبات الرعب المعتادة إلى تشابك سيور الزلّاجة، وإبطاء سيرها، وزاد ذلك كلّه من إحباط الرجلين.

في المساء، وبينما هنري مشغول بطهو طعام العشاء، وبيل منهمك في أداء عمل ما بقرب الكلاب، فوجئ الأول بالثاني يقول بنبرة رضا:

- «ها أنا ذا قد أنهيت المشكلة، يا أيتها الكائنات الحمقاء».

ترك هنري مهمة الطهو، وذهب ليرى ماذا فعل رفيقه. كانت الكلاب مربوطة بالفعل، غير أن بيل ربطها بالطريقة التقليدية لسكان تلك المنطقة، إذ يلتف حول رقبة كل كلب طوقٌ من الجلد، تتّصل به عصا غليظة، يصل طولها إلى أربع أو خمس أقدام، شديدة القرب من الرقبة حتى لا يمكن للكلب الوصول إليها بأسنانه. أما طرف تلك العصا الآخر فهو مربوط بوتد في الأرض بواسطة طوق آخر من الجلد. وبهذه الطريقة يكون كل كلب غير قادر على قضم طوق الجلد الملاصق لرقبته، كما تمنعه العصا الطويلة من الوصول إلى الطوق المثبت في الوتد. عندئذٍ أومأ هنري برأسه مؤيّدًا، وقال:

– «هذا الاختراع هو فقط الذي سيمكنه أن يمنع الكلب وحيد الأذن من الهرب، فهو يستطيع أن يقرض طوق الجلد كالسكين الحاد، وبسرعة كبيرة بالطبع. ستكون الكلاب جميعًا في أماكنها صباح الغد من دون أي شك».

أكد بيل موافقته على ذلك الرأي:

– «أراهن على ذلك»، ثم أضاف: «إذا اختفى أيٌّ من الكلاب بحلول الغد، فسأغادر من دون قهوتي الصباحية».

عندما حان وقت الخلود إلى النوم قال هنري:

– «هذه الذئاب تعلم أننا لا نحمل ما يكفي من الذخيرة لقتلها»، كان يتكلم وهو يشير إلى الدائرة المتّقدة التي تطوّقهم، ثم استأنف كلامه: «لو أمكننا أن نطلق عليها بضع رصاصات، لوجب عليها أن تُبدي شيئًا من الاحترام تجاهنا. إنها تزداد اقترابًا كل ليلة. جَرِّب ألا تدع ضوء النار يُعشي عينيك وركز نظرك في ما وراءها، هل ترى ذلك الجسم هناك؟».

تسلّى الرجلان لبعض الوقت بمراقبة حركة تلك الحيوانات الغامضة الشكل على حافة دائرة ضوء النار، وتمكّنوا عن طريق النظر الثابت المدقّق في اتجاه أي زوج من العينين المتّقدتين من تبين شكل ذلك الحيوان بالتدريج، بل ورؤيته يتحرّك في بعض الأحيان.

وفجأة لفت انتباه الرجلين صوت بين الكلاب، كان «ذو الأذن الواحدة» يصدر تأوهات سريعة متحفّزة، وهو يشد العصا المربوطة في عنقه إلى أقصى ما يمكنه، محاولًا اختراق الظلام، ومن حين لآخر يتراجع لكي يحاول الانقضاض عليها بأسنانه.

وهمس هنري لزميله:

«انظر إلى هذا يا بيل».

في داخل دائرة الضوء، كان حيوان يشبه الكلب، ينزلق متسلِّلًا بحركة

جانبية، تختلط فيها الجرأة، بالتوجّس. ورغم أن عينيه كانتا تركّزان على الكلاب، إلا أنه لم يغفل عن مراقبة الرجلين بمنتهى الحذر. وشدّ «ذو الأذن الواحدة» الحبل على أقصى طول له، في اتجاه الحيوان المتطفل، وأخذ يئنّ في تلهف.

قال بيل بصوت خفيض:

- «هذا الأحمق «ذو الأذن الواحدة» لا يبدو خائفًا كما ينبغي له».

ردّ هنري بالصوت الهامس نفسه:

- «إنها ذئبة. وذلك يفسر غياب فاتي وفروج. هي الطُعم الذي يستخدمه القطيع. هي تستدرج الكلاب بعيدًا عن المجموعة، وعندما تنفرد به الذئاب تشترك جميعًا في التهامه».

وعلى حين غرة، صدر صوت قرقعة من النار، وانفلتت إحدى قطع الحطب، مصدرة ضجيجًا عاليًا، أخاف الحيوان الغريب فوثب عائدًا إلى الظلام.

قال بيل:

- «هنري، أنا أعتقد..».

- «تعتقد ماذا؟».

- «أعتقد بأن هذا الحيوان هو نفسه الذي انهلت عليه بالعصا».

فجاء رد هنري سريعًا:

- «لا شكّ عندي في ذلك».

واستأنف بيل:

- «والآن أودّ أن ألفت النظر إلى أن اعتياد هذا الحيوان على نار المخيمات لهو شيء مريب يدعو للشك».

اتفق هنري مع بيل في الرأي، وقال:

- «إنها بالتّأكيد تعرف أكثر مما يعرف أي ذئب عادي. إن ذئبًا يعرف ما يكفي لكي يندسَّ بين الكلاب في وقت تناول الطعام، لهو بالتأكيد ذئب ذو خبرات غير عادية».

قال بيل متأمِّلًا وكأنما يتذكّر:

- «لي صديق كان لديه كلب فرّ مع الذئاب، ولقد قتله بعد ذلك في مرعى للوعول في «ليتل ستيك»، وبكى كالطفل حينذاك، وقال إنه لم يره منذ ثلاث سنوات، قضاها الكلب مع الذئاب. لقد فهمت الآن».

- «أعتقد أنك على حقّ يا بيل. هذا الذئب هو في الحقيقة كلب، وقد اعتاد على تناول الأسماك من يد الإنسان».

فصاح بيل:

- «وإذا أُتيحت لي الفرصة، فسأجعل من ذلك الذئب الذي أصله كلب طعامًا للحيوانات، فنحن لا يمكننا أن نتحمّل فقد أي حيوانات إضافية».

اعترض هنري قائلًا:

- «ولكننا لا نملك سوى ثلاث طلقات».

وجاءه الرد سريعًا:

- «سوف أنتظر إلى أن أتأكّد أن الطلقة ستكون هي القاتلة».

في الصباح، جدّد هنري إشعال النار، وشرع يطهو طعامًا للإفطار، في حين علا صوت بيل بالشخير. وعندما انتهى هنري أيقظ رفيقه قائلًا:

- «كنتَ مستغرقًا في النوم، فأشفقت عليك أن أوقظك قبل الآن».

كان بيل يتناول طعامه وهو يغالب النوم. ثم لاحظ أن كوبه خالٍ من القهوة، نظر إلى إبريق القهوة الذي كان بعيدًا عن متناول يده، وقريبًا من هنري، فقال في عتاب هادئ:

- «قل لي يا هنري، ألم تنسَ شيئًا؟».

نظر هنري حوله بعناية شديدة ثم هز رأسه نافيًا، فرفع بيل الكوب الفارغ أمام عينيه. وعلى الفور قال هنري:

- «ليس لك قهوة اليوم».

فسأل بيل متوتِّرًا:

- «هل نفد مخزون القهوة؟».

- «لا».

- «وهل تظن أنها ستؤذي جهازي الهضمي».

- «لا».

امتقع وجه بيل غضبًا، وقال:

- «إذًا؟؟ أنا مصغٍ إليك فاشرح لي ماذا تقصد».

أجاب هنري:

- «لقد ذهب سبانكَر».

من دون أي تردّد، وبإذعان لسوء الحظ، أدار بيل رأسه، وبدأ يُحصي الكلاب، وهو في مكانه. ثم سأل في شيء من اللامبالاة:

- «كيف حدث هذا؟».

هز هنري كتفيه وقال:

- «لا أعلم. لعل «ذو الأذن الواحدة» قرض الطوق الذي أحاط برقبته، فهو بالتأكيد لم يكن ليستطيع قرضه بنفسه.

- «يا له من حيوان لعين».

هكذا قال بيل بهدوء، وبطء، لا يشيان بالغضب الذي اشتعل بداخله، ثم أضاف:

«لم يستطع أن يطلق سراح نفسه، فأطلق سراح سبانكَر».

قال هنري معلقًا:

- «حسنًا، لقد انتهت مشكلات سبانكَر الآن على كل حال. أظنّ بأن هذه الذئاب قد انتهت من هضمه، وهو الآن يتواثب على البسيطة في بطون ما يقرب من عشرين ذئبًا».

هذه كانت مرثية هنري لأحدث ما فقدَا من الكلاب.

وأضاف هنري:

«فلتشرب بعض القهوة يا بيل».

غير أن بيل هزّ رأسه رافضًا، فاستأنف هنري محاولة تشجيعه، وقال متلطّفًا وهو يرفع إبريق القهوة:

«هيا يا بيل».

لكن بيل أزاح قدحه جانبًا وقال:

- «أنا لا أغيّر كلامي. لقد قلت إنني لن أشرب لو فُقد واحد من الكلاب، إذًا لن أشرب».

فقال هنري محاولًا اجتذابه:

- «ولكنّها قهوة جيّدة».

كان بيل عنيدًا، فأكل من دون شراب، ثم اغتسل وهو يغمغم لاعنًا «ذا الأذن الواحدة»، بسبب خداعه لهما، وبينما هما يشرعان في الانطلاق بالزلّاجة، قال بيل:

- «سأربط الكلاب هذه الليلة بحيث لا يمكن لأيٍّ منها أن يصل إلى الآخر».

انطلقت الكلاب، وبعد أن قطع الفريق أقل من أربعين ياردة، انحنى هنري الذي كان في المقدّمة ليمسك بشيء صلب اصطدم بحذائه. لم يرّ ذلك الشيء بسبب الظلام، لكنه تعرّف عليه باللمس، ثم قذف به في

الهواء وراءه، فاصطدم بالزلّاجة ثم ارتد في الهواء حتى استقر على حذاء بيل. وقال هنري:

- «قد تحتاج هذه في مهمتك لهذه الليلة».

أطلق بيل صيحة تعجّب، فلم يكن ذلك الشيء سوى قطعة من العصا التي رُبط بها سبانكِر، وهي كل ما بقي منه.

واستطرد بيل وكأنما يعلن الخبر لهنري:

- «لقد التهمته الذئاب عن آخره، حتى جلده، وتلك العصا نظيفة كأنها صفارة صغيرة، لقد أكلوا أيضًا الطوقين الجلديين على الناحيتين. من الواضح أن تلك الذئاب قد بلغ منها الجوع مبلغًا كبيرًا للغاية يا هنري، وأظنّها ستلتهمنا نحن أيضًا قبل نهاية هذه الرحلة».

أخذ هنري يضحك ثم علّق:

- «لم يحدث لي من قبل أن تتبّعتني الذئاب بمثل هذه الطريقة، لكنّني مررت بما هو أسوأ من ذلك بكثير، وحافظت على صحتي وحياتي. إن الأمر يتطلّب ما هو أكثر من مثل هذه الحفنة من الكائنات المزعجة لتهدّد حياتنا يا بيل. صدّقني يا بُنيّ».

تمتم بيل بصوت يدلّ على التشاؤم:

- «لا أدري، لا أدري».

- «حسنًا، ستدرك ذلك بالتأكيد ونحن نخطو إلى داخل حانة ماكري، عند نهاية هذه الرحلة».

فعاد بيل يقول بإصرار:

- «لست أشعر بمثل هذا التفاؤل».

بدأ هنري يفسّر الأمر بلهجة جازمة:

- «أنت منحرف المزاج قليلًا. وما تحتاجه حقًّا هو شراب الكينين،

وسوف أعطيك منه جرعة وافية لتستعيد نشاطك، وذلك بمجرد أن ندخل حانة ماكري».

غمغم بيل بما يدل على اعتراضه على ذلك التشخيص، ثم غاص في الصمت. ومرّ ذلك اليوم كما مرّت الأيام السابقة: ظهر ضوء النهار في الساعة التاسعة، وفي الساعة الثانية عشرة حلّ بعض دفء الشمس التي لا تُرى على الأفق الجنوبي، ثم تقدّم النهار الرمادي البارد الذي سرعان ما سيتلاشى بعد ساعات ثلاث في ظلام الليل.

وبمجرّد انتهاء المحاولات غير المجدية للشّمس لكي تظهر، قام بيل فجأة بسحب البندقية من تحت أربطة الزلّاجة، وقال:

- «استمرّ أنت في السير يا هنري، وسأذهب أنا لأستطلع الأمر».

فردَّ شريكه معترضًا:

- «من الأفضل أن تظل بجوار الزلّاجة، فليس لدينا سوى ثلاث رصاصات، ولا أحد يمكنه التنبؤ بما يمكن أن يحدث».

فتساءل بيل بلهجة منتصرة:

- «من ينعب كالغراب الآن؟».

لم يُجب هنري، واستمر في السير وحده بخطوات متثاقلة، ومع ذلك ظل بين الحين والآخر يتطلّع بنظرات قلقة إلى الخلف، حيث تلك الوحشة الرمادية التي اختفى فيها شريكه. وبعد نحو ساعة تمكّن بيل من اللّحاق بالزلّاجة مستفيدًا من المنحنيات التي كان عليها أن تبطئ عندها. عندئذٍ قال لرفيقه:

- «إن تلك الذئاب متناثرة على مساحة واسعة للغاية، وهي تتابعنا عن كثب، وتبحث في الوقت نفسه عن أي صيد آخر متاح. هي إذًا ستنال منا، ولكن عليها أن تنتظر، فلا مانع أن تلتقط أي شيء صالح للأكل يقع في طريقها إلى أن تحين اللحظة المناسبة».

اعترض هنري بلهجة قاطعة:

- «تقصد أنها «تعتقد» بأنها ستنال منا».

تجاهل بيل الإشارة، واستأنف كلامه:

- «لقد رأيت بعضها، وهي في غاية النحافة، وأعتقد بأنها لم تتناول طعامًا منذ أسابيع في ما عدا فاتي وفروج وسبانكَر، ولأن عدد الذئاب كبير فإن تلك الوجبات لم تكن كافية لإشباعها. إن نحافتها واضحة لكل ذي عينين، حتى إن أضلاعها مستوية كاللوح المسطح المستخدم في الغسيل، وتكاد معدّة كل واحد منها أن تكون ملتصقة بظهره. أؤكد لك إنها مشرفة على اليأس، فإذا سيطر عليها اليأس، فستُجَنّ وعلينا أن نحذر منها».

أطلق هنري بعد دقائق قليلة صفيرًا خافتًا لتنبيه رفيقه، الذي كان موضعه في تلك اللحظة خلف الزلّاجة، فالتفت بيل إلى الوراء ثم أوقف الكلاب بهدوء. شاهد الرجلان بوضوح في دائرة النظر خلفهم، هناك على الطريق نفسه، ووراء آخر منحنى مرّت به الزلّاجة، شاهدا كائنًا كثيف الفراء ينسلّ متمهِّلًا. كان أنفه متوجّهًا ناحية طريق الزلّاجة، وخطواته تنزلق بخفة، كأنها بلا أي جهد. عندما توقفوا توقف ذلك الكائن، وقد رمى برأسه إلى الأمام، وهو يراقبهم بثبات ومنخره ينتفض إذ يلتقط رائحتهم ويتشمَّمها.

همس بيل:

- «إنها الذئبة».

ثم سار إلى حيث زميله في الخلف، تاركًا الكلاب مستلقية على الجليد أمام الزلّاجة، ووقفا معًا يراقبان ذلك الحيوان الغريب الذي تتبّعهما لأيام، وتسبّب حتى هذه اللحظة في القضاء على نصف فريقهم من الكلاب.

بعد بعض الوقت من الفحص المتأنّي الدقيق تقدّمت الذئبة بضع

خطوات إلى الأمام، ثم كررت ذلك الأمر عدّة مرّات حتى صارت على بعد يقل عن بضع مئات من الياردات. وأخيرًا، توقّفت مرفوعة الرأس بالقرب من دغل من شجيرات الصنوبر، وبعينيها وأنفها تفحصت معدات الرجلين اللذين يراقبانها. نظرت إليهما الذئبة بحزن غريب الشكل، حزنٌ يشبه حزن الكلاب الذي يتجلّى في نظراتها أحيانًا، غير أنه ليس فيه شيء من العاطفة التي تتبدّى في الكلاب، وإنما هو حزن قائم على الجوع، حزنٌ قاسٍ كأنيابها، لا يعرف الرحمة، مثل الجليد الذي تمشي عليه.

كان الهيكل الخارجي للذئبة ينمّ، رغم هزالها، عن ضخامة في الحجم بالنسبة لمثيلاتها من الذئاب، وقد علّق هنري على ذلك:

- «إن ارتفاعها حتى الكتفين يكاد يقترب من قدمين ونصف، أما طولها فأراهن أنه يقترب من خمس أقدام».

أما بيل فقد تساءل عن لونها الغريب:

- «إنه لون غير معتاد في الذئاب، فلم أرَ من قبل ذئبًا لونه أحمر. إنها تبدو لي في لون القرفة».

لا شكّ أن الذئبة لم تكن بلون القرفة، فقد كان فراؤها هو فراء الذئاب المعتاد، يغلب عليه اللون الرمادي، مع بعض الظلال الباهتة من اللون الأحمر، ظلال مذهلة تذهب وتختفي، فلم تكن في الحقيقة سوى نوعٍ من الخداع البصري. ذلك الفراء يبدو في لحظة ما رماديًا من دون أيّ شك، ثم في لحظة أخرى تعتريه ومضات من لون أحمر غامض يصعب توصيفه تبعًا لخبرتهما السابقة.

قال بيل:

«تبدو لي مثل كلب «هاسكي» من كلاب الزلّاجات، ولن يدهشني أن أراها تهزّ ذيلها مثل تلك الكلاب». ثم صاح فيها:

«أهلًا أيتها الكلبة «هاسكي»، تعالي إلى هنا، مهما كان اسمك».

ضحك هنري وقال:

- «إنها لا تشعر بأي خوف منك».

لَوَّح بيل لها بيده مهدّدًا، وصرخ فيها بصوتٍ عالٍ، لكنها لم تُظهر أي خوف. التغيير الوحيد الذي لاحظه الرجلان هو تعاظم انتباهها، فهي لا تزال تنظر إليهما بالنظرة السابقة نفسها، نظرة الجوع الخالية من الرحمة. لقد كانت جائعة وهما في عينيها طعام مناسب، لن تتردّد في التهامه إذا أُتيحت لها الفرصة.

قال بيل لهنري، خافضًا صوته، بشكل تلقائي، ليصير همسًا، بسبب ما كان قد اعتزم فعله:

- «نحن لدينا ثلاث طلقات، فعلينا إذا استخدمناها أن تكون القاضية، ويجب ألا نخطئ الهدف. لقد أتت على ثلاثة من كلابنا ويجب أن نضع حدًّا لهذا الأمر، فماذا ترى؟».

أومأ هنري برأسه موافقًا، وقام بيل بحرص بسحب البندقية من تحت أربطة الزلّاجة. كانت البندقية في طريقها إلى كتفه، لكنها لم تصل إليه أبدًا، ففي تلك اللحظة نفسها، وثبت الذئبة إلى جانب الطريق، في قلب دغل أشجار الصنوبر، ثم اختفت.

نظر كلٌّ من الرجلين إلى الآخر، وأطلق هنري صفارة طويلة تُشير إلى فهمه لما حدث، أما بيل فقد قال بصوت عالٍ كأنما موبِّخًا نفسه، وهو يعيد البندقية إلى مكانها:

- «كان يجب أن أفهم أن ذئبًا يعلم ما يكفي لكي يندسّ بين الكلاب في وقت تناول الطعام، لا بد أن يعرف كل شيء عن بنادق الصيد. أؤكّد لك الآن يا هنري أن هذا الكائن هو سبب مشكلاتنا كلّها، ولولاها لكان بحوزتنا الآن ستة كلاب بدلًا من ثلاثة. وأود أن أخبرك الآن يا هنري أنني سوف أقتصّ منها. هي من الذكاء بحيث لا يمكننا أن ننال منها في

منطقة مكشوفة، لكنني سأتربّص بها في الأدغال، وإن ثقتي بقدرتي على الاقتصاص منها لا تقل عن ثقتي بأن اسمي هو بيل».

عندئذٍ حذّره شريكه:

– «لا تبالغ في الأمر، إذا تمكّن هذا القطيع من مهاجمتك، فإن ثلاث طلقات في تلك اللحظة لن تساوي أكثر من ثلاث صيحات تتبدّد في الجحيم. لا تنسَ أن هذه الحيوانات في غاية الجوع، ولو أنها تمكّنت من الوثوب عليك فلن ترضى بغير النيل منك يا بيل. ومتى بدأت فلن تتوقّف».

أقام الرجلان مخيّمهما مبكرًا تلك الليلة، فلا شك أن ثلاثة كلاب لا يمكنها أن تجرّ الزلّاجة المسافة نفسها التي قد تجرّها ستة كلاب، وبالتأكيد ليس بالسرعة نفسها، كذلك أظهرت الكلاب إشارات لا تخطئها العين تدلّ على الإنهاك. وخلد الرجلان إلى النوم مبكرًا، وقد تأكد بيل قبل نومه أن الكلاب كانت مربوطة بحيث لا يمكن لأيٍّ منها أن يقرض طوق الآخَرين.

صارت الذئاب على الجانب الآخر أكثر جرأة، وقد استيقظ الرجلان من نومهما أكثر من مرّة خلال الليل، بسبب التوتّر الشديد الذي أصاب الكلاب بالرعب نتيجة اقتراب الذئاب أكثر وأكثر، وكان من الضروري أن يدفعا إلى النار بالمزيد من الحطب لكي يزداد توهّجها وتُبعد الأشرار المغامرين إلى مسافة أكثر أمانًا.

وبينما بيل يزحف عائدًا إلى فراشه بعد تغذية النار بالحطب التفت إلى هنري قائلًا:

– «لقد سمعت من قبل بعض البحّارة يحكون عن أسماك القرش تطارد سفينة. حسنًا، إن الذئاب هي أسماك قرش البراري، وهي تعرف مهمّاتها بأفضل مما نعرف نحن، وهي بالتأكيد تلازمنا على هذا الطريق

من أجل مصلحتها. ستتمكّن تلك الحيوانات منا، نعم، ستفعل بالتأكيد يا هنري».

ردّ هنري فورًا بلهجة حاسمة:

– «لقد كادت تلك الحيوانات تقضي عليك حقًّا يا بيل. إن الرجل يصير نصف مهزوم عندما يقول إنه لا بد مهزوم، وأنت الآن نصف مأكول بسبب الطريقة التي تواجه بها هذا الأمر».

فأجاب بيل:

– «لقد أتت تلك الحيوانات على رجال أفضل مني ومنك يا هنري».

– «يا إلهي. فلتصمت ولتكفّ عن نعيب الغربان هذا. لقد أتعبتني غاية التعب».

انقلب هنري في فراشه على جنبه غاضبًا، وقد أدهشه أن بيل لم يعبّر عن شعور مماثل بالغضب. لم تكن هذه طبيعة بيل الذي كان يغضب بسهولة من الكلمات الحادّة. وظلّ هنري يفكّر في هذا الأمر لوقت طويل إلى أن هزمه النوم، وقبل أن ينطبق جفناه ويغوص في النوم، كان آخر ما مرّ بباله هو أن «بيل بلا شك يشعر بالإحباط، وعليَّ أن أفعل شيئًا غدًا يُعيد إليه مرحه القديم».

3

صرخة الجوع

بدأ اليوم الجديد يدعو إلى التفاؤل، فلم يفقد الرجلان كلابًا أثناء الليل، وقد انطلقوا بقلوب متحمّسة على الطريق الهادئ الغارق في البرد والظلام. بدا بيل وكأنه نسي الأفكار المتشائمة التي سيطرت عليه في الليلة السابقة، حتى إنه تعامل بمرح وطيبة مع الكلاب عندما انقلبت الزلّاجة في منتصف النهار في جزء غير ممهّد من الطريق.

كان الموقف معقّدًا بعض الشيء، فالزلّاجة مقلوبة تمامًا ومحشورة بين جذع شجرة من ناحية وصخرة ضخمة من الناحية الأخرى، لذلك اضطُر الرجلان إلى حلّ سيور الكلاب لكي يتمكّنا من فكّ تشابكها. وبينما هما مُنحنيان على الزلّاجة لإعادتها إلى وضعها الأصلي لاحظ هنري أن الكلب ذا الأذن الواحدة يتسلّل جانبًا بخفة، فصاح به وهو يعتدل واقفًا، ويلتفت ناحية الكلاب:

- «عد إلى مكانك، هيا يا وحيد الأذن».

أما الكلب فقد انطلق مسرعًا، وهو يجر سيوره وراءه عبر الجليد، وهناك، على الجليد خلفهم، كانت الذئبة في انتظاره. بدأ الحذر يظهر فجأة على وحيد الأذن وهو يقترب منها، فأخذ يبطئ في خطوته التي بدت أكثر يقظة وخفّة ثم توقّف تمامًا، وتمعّن فيها مرة أخرى بمزيج من الشكّ والرغبة. أما هي، فبدا وكأنها تبتسم له، إذ ظهرت أسنانها موحية بالتودّد وليس بالتوعّد، ثم تقدّمت في اتجاهه بضع خطوات وكأنما تتمايل في

مرح، ثم توقّفت. اقترب وحيد الأذن منها وهو كما يبدو لا يزال على حذره وتيقظه، فرأسه متطلّع إلى أعلى، وذيله وأذناه في الهواء.

حاول الكلب أن يتشمّم أنفها، غير أنها تراجعت في مرح وتمنُّع، وصارت كل خطوة للأمام منه، تقابلها خطوة مماثلة منها للخلف، فإذا هي تستدرجه بعيدًا عن الأمان الذي يتمثّل في رفاقه من البشر. وفجأة، وكأن تحذيرًا ما تسلّل بطريقة غامضة إلى رأسه، التفت الكلب برأسه متطلّعًا إلى الزلّاجة المقلوبة، وإلى زملائه والرجلين اللذَين تكرّر نداؤهما عليه.

ومهما كانت الأفكار التي دارت في رأسه، فقد بدّدتها تلك الذئبة التي تقدّمت في اتجاهه، وتشمّم كل منهما أنف الآخر للحظة عابرة، ثم استأنفت التراجع في تمنّع، بعد كل خطوة يخطوها هو إلى الأمام.

تذكّر بيل البندقية، في تلك الأثناء، غير أنها كانت محشورة تحت الزلّاجة المقلوبة، وعندما تمكّن بمساعدة هنري من إعادتها إلى وضعها المعتدل، كان الكلب وحيد الأذن قد أصبح قريبًا من الذئبة، على حين صارت المسافة بينهما وبين الرجلين غاية في البعد، بحيث لا يمكن المجازفة بإطلاق النار.

أدرك وحيد الأذن خطأه الآن. رآه الرجلان، من دون أن يفهما ما حدث، وهو يستدير ويشرع في الركض ناحيتهما، ثم فوجئا بجماعة من الذئاب الرمادية النحيلة تتجمّع عبر الجليد وتقترب من الطريق من ناحية اليمين، قاطعةً طريق الرجوع على الكلب. على الفور، انقلب مرح الذئبة وتمنّعها إلى النقيض، وإذا بها تنقض على وحيد الأذن وهي تزوم. قذف بها الكلب بعيدًا بكتفه، وركض مسرعًا في إصرار على العودة إلى أمان الزلّاجة، واتخذ مسارًا جديدًا ذا دائرة أكثر اتّساعًا من المسار الذي قطعته الذئاب. أخذت أعداد الذئاب تتزايد، وفي كل لحظة يظهر ذئب جديد يشارك في المطاردة، والذئبة في المقدّمة تكاد تصل إليه.

وفجأة تساءل هنري وهو يضع يده على ذراع رفيقه، كأنما يستوقفه:

- «إلى أين أنت ذاهب؟».

فهزّ بيل يد صديقه، ليبعدها عنه، وهو يقول:

- «لن أتحمّل هذا. لن أترك هذه الذئاب تقضي على كلابنا من دون أن أفعل شيئًا».

قفز بيل، والبندقية في يده في قلب دغل من الأشجار الصغيرة يقع على جانب الطريق، وكانت نيته واضحة بما يكفي، فهو قد اتخذ من الزلّاجة مركزًا للدائرة التي يجري فيها وحيد الأذن، وتلخّصت خطته في أن يحاول قطع الدائرة من الأمام قبل وصول المطاردين، آملًا في أن يتمكّن في ضوء النهار هذا من ترويع الذئاب وإنقاذ الكلب.

ومن خلفه جاء صوت هنري منبّهًا:

- «يا بيل، كن حذرًا، ولا تجازف».

جلس هنري على الزلّاجة وشرع في مراقبة ما يحدث، فلم يكن ثمة شيء آخر يمكنه عمله. كان بيل قد اختفى بالفعل من المشهد، أما وحيد الأذن فهو يظهر ويختفي من حين لآخر بين شجيرات الدغل، والتجمعات المتفرّقة لشجيرات الصنوبر. ورغم أن الكلب كان واعيًا بخطورة موقفه ويجري بأقصى سرعة، فلم يكن ثمة أمل كبير في نجاته من وجهة نظر هنري، فهو يجري في الدائرة الواسعة بينما تركض الذئاب في الدائرة الضيّقة الأقصر، ويبدو غير مجدٍ توقّع أن يسبق الكلب مطارديه، ويقطع الدائرة الضيقة التي يركضون فيها، فيصل قبلهم إلى الزلّاجة.

أخذت الخطوط المختلفة تقترب من نقطة التقاء. نعم، لم يشكّ هنري على الإطلاق بأن الثلاثة: قطيع الذئاب والكلب وبيل، الذين اختفوا عن عينيه بعيدًا على الجليد خلف الأشجار سوف يلتقون في لحظة ما، وقد حدث ذلك بالفعل، بسرعة أكبر كثيرًا مما توقّع هنري. لقد سمع طلقة

رصاص، ثم طلقتين أخريين في تتابع سريع، فأدرك عندئذٍ أن ذخيرة بيل قد نفدت. ثم سمع صرخة مدوية اختلط فيها النباح بالزمجرة، وتعرف من خلالها على صرخة الذعر والألم التي أطلقها الكلب، كما سمع صيحة ذئب تدل على انقضاضه على حيوان آخر. كان هذا هو كل شيء، ثم خفتت الزمجرة، وتلاشى النباح، وساد الصمت مرة أخرى على تلك الأرض الموحشة.

ظل هنري جالسًا على الزلّاجة لوقت طويل، ولم يكن في حاجة إلى أن يذهب ليرى ما حدث، فقد أدرك ما حدث وكأنه جرى أمام عينيه. وفجأة، انتفض من مكانه وتناول على عجل البلطة التي كانت مخبّأة تحت أربطة الزلّاجة، ثم عاد إلى الجلوس لفترة أطول مستغرقًا في التأمل على حين ربض الكلبان الباقيان يرتعشان تحت قدميه.

وأخيرًا، قام الرجل من جلسته بجسد متخشِّب، كأنما فارقته كل قطرة من الليونة، وشرع في ربط الكلاب إلى الزلّاجة، كما مرّر حبلًا على كتفه، كأنه سيور، إذ قرّر أن يجر الزلّاجة مع الكلبين. لم يقطع هنري مسافة طويلة، إذ إنه مع أول علامة لبدء حلول الظلام توقّف حيث نصب مخيمًا، وتأكّد أن لديه مخزونًا كافيًا من حطب النار. أطعم هنري الكلبين، وطها لنفسه طعامًا، ثم تناول عشاءه وبسط فراشه بالقرب من النار.

لم يكن مُقدّرًا لهنري أن يستمتع بفراشه هذا، فقبل أن يغيب في النوم لاحظ أن الذئاب قد صارت شديدة القرب منه، مهدّدة سلامته. لم يعد الأمر يتطلّب جهدًا كبيرًا لكي يتمكّن من رؤيتها، إذ كان أفراد القطيع متناثرين في دائرة ضيّقة حوله وحول النار، وأصبح قادرًا على رؤية الذئاب بوضوح في ضوء النار، راقدة أو جالسة، أو تزحف على بطونها تجاهه، أو تتسلّل مقتربة ثم مبتعدة عنه، بل إن بعضها استسلم للنوم، ومن حين لآخر يرى هنري ذئبًا، ملتفًّا على بسه على الجليد كأنه كلب يستمتع بالنوم، الذي سُلب من الرجل.

أبقى هنري على النار متوهّجة، فهو مدرك أنها فقط ما يحول بين جسمه وأنيابهم الحادّة، أما الكلبان فقد استقرا حوله: واحد على كل جانب، مائلين في اتجاهه طلبًا للحماية، يصرخان أحيانًا ويئنان، أو يزومان في يأس عندما يقترب أحد الذئاب أكثر من المعتاد. وفي مثل تلك اللحظات، أي عندما تزوم الكلاب، يسري التوتر في الدائرة كلها، فالذئاب تستوي واقفة وتشرع في التقدّم ناحيته وكأنها تختبر رد الفعل، الذي عادة ما يأتي على شكل جوقة من الزمجرة والنباح المتوتّر حوله. ثم سرعان ما يعود الاستقرار للدائرة على الأرض، وقد يعود ذئب هنا أو هناك لاستئناف إغفاءته.

وكان لهذه الدائرة ميل مستمر للاقتراب من هنري، خطوة خطوة، قد لا تزيد عن بوصة في كل مرة، وقد يتقدّم ذئب هنا أو هناك، زاحفًا على بطنه، وهكذا تأخذ الدائرة في الانكماش حتى تصير تلك الوحوش على مرمى حجر منه. عندئذٍ كان ينزع جمرة مشتعلة من قلب النار، ثم يقذف بها وسط قطيع الذئاب، والنتيجة في كل مرة هي اتساع الدائرة قليلًا مصحوبًا ببعض الصراخ الغاضب والزمجرة المرتعبة عندما تصيب جمرة النار الهدف، وتلسع ذلك الذي جرؤ على الاقتراب أكثر من اللازم.

جاء الصباح والرجل في غاية التعب والإنهاك، فاغر العينين بسبب قلّة النوم، فأعد إفطاره في الظلام، وفي التاسعة صباحًا مع ظهور ضوء النهار وانحسار دائرة الذئاب إلى الخلف قليلًا، شرع في أداء المهمة التي خطّط لها أثناء ساعات الليل الطويلة. أخذ يبري بعض جذوع الأشجار الصغيرة، وصنع منها شبكة من العوارض المتقاطعة، ثم ربطها عاليًا إلى جذوع مجموعة من الأشجار الكبيرة على شكل سقالة. ثم استخدم أربطة الزلّاجة كرافعة وبمساعدة الكلبين رفع الكفن على سطح السقالة، وقال مخاطبًا الجثة المستقرّة في لحدها الشجري:

– «لقد نالوا من بيل، وقد ينالون مني، لكنهم بالتأكيد لن ينالوا منك أيها الشاب».

انطلق هنري بالزلّاجة الخفيفة الوزن، وأخذ الكلبان يجرّان في حماسة، فهما أيضًا يدركان أن الأمان ينتظرهما هناك في حانة ماكري. أما الذئاب فهي الآن أكثر جرأة في مطاردتهم، إذ تُهرول بتؤدة خلفهم، وعلى مدى واسع يمتد على جانبي الطريق، وقد تدلّت ألسنتها الحمراء، في حين أخذت ضلوعها تتماوج من تحت جلودها الضامرة، مع كل خطوة تخطوها. حقًّا، كانت الذئاب غاية في النحافة، كأنها مجرد أكياس من الجلد مشدودة على هياكل من العظام، أما العضلات فلم تزد عن بضعة خيوط رفيعة. بدت الذئاب عجفاء حتى إن هنري خالطه شعور بالتعجب لأنها لا تزال قادرة على السير ولم تتهاوَ على الجليد حتى تلك اللحظة.

لم يجرؤ هنري على التفكير في السفر بعد حلول الظلام. أما في منتصف النهار فلم تكتفِ الشمس ببعث الدفء في الأفق الغربي، بل تجاوزت ذلك إلى إظهار حافّتها، ذهبية شاحبة، فوق خط الأفق. رأى هنري في ذلك الأمر علامة طيبة، لأنه يعني أن النهار آخذ في الطول، وها هي الشمس تعود إلى الظهور. وما إن رحل ضوؤها الشاحب المبهج حتى شرع هنري في إقامة مُخيَّمه، رغم أنه لم تزل عدة ساعات باقية من ضوء النهار الرمادي، ثم الشفق الكئيب. وقد استغل ذلك الوقت كلّه في بري كمية هائلة من خشب التدفئة كمؤونة للساعات القادمة.

جاء الرعب مع نزول الليل. لم تكن جرأة الذئاب المشرفة على الهلاك جوعًا هي فقط التي تضغط على أعصاب هنري، وإنما أيضًا الحرمان من النوم. إنه يغفو رغمًا عنه وهو رابض بجوار النار، والبطاطين تحيط بكتفيه، والبلطة بين ركبتيه، وعلى كل جانب يجلس أحد الكلبين ملتصقًا به طلبًا للأمان. وقد استيقظ ذات مرة من غفوته، ليجد أمامه، وعلى بعد بضع أقدام منه ذئبًا كبيرًا رمادي اللون، هو واحد من أكبر ذئاب القطيع حجمًا. وبينما هو ينظر إليه أخذ ذلك الوحش يتمطّى كالكلب الكسول، وهو يتثاءب وينظر إليه بعينين واثقتين، وكأنه في حقيقة الأمر ليس سوى وجبة طعام سرعان ما ستقدّم إليه.

بدا القطيع كلّه واثقًا بنفس القدر من الوجبة المنتظرة. أحصى هنري عشرين من الذئاب، تُحدّق فيه بنظرات ملؤها الجوع، أو تنام هادئة على الجليد. لقد ذَكَّرته رؤيتها بمشهد أطفال تجمعوا حول مائدة حافلة بأنواع الطعام، منتظرين السماح لهم بالأكل. وهو نفسه سيكون الطعام الذي سيتناولونه! ولكن كيف ومتى سيبدأ تناول تلك الوجبة؟

انهمك هنري في الدفع بأكوام الخشب إلى قلب النار، وفي خِضم انشغاله إذا به يشعر باعتزاز مفاجئ لم يشعر به من قبل ناحية جسده، فأخذ يراقب عضلاته وهي تتحرّك بمهارة، ويتابع باهتمام البراعة التي تعمل بها أصابعه. ثم أخذ على ضوء النار يثني أصابعه ببطء وبشكل متكرّر، واحدًا بعد آخر لعدّة مرات ومجتمعة لمرّات أخرى، متباعدة أحيانًا ومُتَضامّة تقوم بالقبض على الأشياء وإفلاتها في أحيان أخرى. بعد ذلك شرع في فحص أظافره، وجعل ينخس أنامله برقّة حينًا وبحدّة حينًا آخر، ويقيس الأحاسيس الناتجة عن ذلك. كم فتنته تلك الخبرة! ووجد الرجل نفسه فجأة مغرمًا بجسده الذي يعمل بمثل هذا الجمال وبهذه السلاسة والرهافة. ثم إذا به يلقي نظرة تنضح بالخوف على دائرة الذئاب التي تضيق - كما هو متوقّع - من حوله، ثم يلطمه إدراك مفاجئ أن جسده الرائع هذا ليس سوى قدرٍ من اللحم، تطلبه الحيوانات الجائعة لتقطعه وتمزّقه بأنيابها النهمة، وتلتهمه غذاءً لها، تمامًا كما سبق له أن تغذّى على الأرانب والوعول.

فزع هنري من إحدى غفواته التي كانت أشبه بالكابوس، ليجد أمامه الذئبة المُوشّاة باللون الأحمر، لا تبعد عنه أكثر من بضع أقدام قليلة، جالسة على الجليد، ترمقه بأسى. كان الكلبان يِئنّان ويزومان تحت قدميه، لكنها لم تبالِ بهما، بل ركّزت نظراتها عليه، وقد بادلها هو النظر لبعض الوقت. لم يكن من شيء يوحي بالخطر في جلستها، غير أنها أخذت ترنو إليه بأسى عميق، أدرك هو أنه الوجه الآخر لما تشعر به من جوع شديد. نعم، هو بالنسبة لها «طعام»، ورؤيته أمامها تثير فيها متعة حاسّة

التذوق. لقد انفتح فمها، وبدأ لعابها يسيل، ثم أخرجت لسانها ومسحت به شفتيها، وهي غارقة في التخيل.

أما هنري، فقد تقلّص جسده خوفًا للحظة، ثم مد يده مضطربًا يتناول عودًا مشتعلًا ليلقيه عليها كالقذيفة، لكن قبل نجاحه في الوصول إليه، والقبض عليه بأصابعه، إذا بالذئبة تتراجع إلى الخلف حيث الظلام الآمن، وأيقن الرجل عندئذٍ أنها معتادة على التعرض لإلقاء الأشياء عليها. وأثناء تراجعها زمجرت الذئبة، كاشفة عن أنيابها البيضاء حتى الجذر، أما الأسى الذي كان في عينيها فقد اختفى، وحلّ مكانه رغبة حيوان من آكلي اللحوم في الافتراس، وهو ما بعث القشعريرة في جسد هنري. ثم أمعن النظر في يده التي حملت العود المشتعل، وقد لاحظ البراعة الرهيفة للأصابع التي قبضت عليه، وكيف تكيّفت هذه الأصابع مع السطح غير المستوي لقطع الخشب، وتسلّلت بمهارة فوق الأخشاب وتحتها ومن خلالها لتصل إلى العود المناسب. كذلك فُتن بذلك الإصبع الصغير الذي اقترب أكثر من اللازم من الجزء المشتعل في العود الخشبي فتلوى بحساسية وتلقائية مبتعدًا عن الحرارة المؤلمة إلى موضع أكثر برودة، وأسهل في القبض عليه. وفي تلك اللحظة رأى بعين خياله تلك الأصابع الحسّاسة الرقيقة نفسها وهي تُنهش وتُلتهم بالأسنان البيضاء لتلك الذئبة. حقًّا، لم يسبق له أن شعر بذلك الولع بجسده كما يشعر الآن، وهو يوشك على فقدانه.

انخرط هنري طوال الليل في محاربة القطيع الجائع، ودفعه بعيدًا عنه بقذف قطع الخشب المشتعلة عليه، فإذا غفا رغمًا عنه أيقظه أنين الكلبين وزمجرتهما. ثم جاء الصباح، وانتظر الرجل بلا جدوى حتى ترحل الذئاب، التي تحلّقت في دائرة حوله والنار التي أشعلها، فكانت تلك هي المرة الأولى التي لم ينجح فيها ضوء النهار في تشتيت شملها. لقد ظلّت في مكانها تنظر له وقد ظهر عليها إصرار لا يلين على التمكن منه، مما هزّ شجاعته التي ولدت مع ضوء النهار.

قام الرجل بمحاولة يائسة لجرّ الزلّاجة، غير أنه ما إن ابتعد عن النار التي تحميه حتى فوجئ بأضخم ذئاب القطيع وهو يثب في اتجاهه، لكنها كانت وثبة قصيرة. وأنقذ هنري نفسه بالقفز إلى الخلف، بينما انطبق فكّا الذئب على بعد ست بوصات بالكاد من فخذه. عندئذٍ، شرع باقي القطيع في الاستعداد للوثوب عليه، ولم يكن أمامه سوى أن يقذف بأعواد الخشب المشتعلة يمينًا ويسارًا حتى اضطُرت الذئاب للتراجع إلى مسافة آمنة.

لم يجرؤ هنري - حتى في ضوء النهار - على الابتعاد عن النار للحصول على المزيد من الأخشاب لتغذيتها، فأنفق نصف اليوم تقريبًا ليمدّ النار إلى شجرة صنوبر ضخمة يابسة تبعد نحو عشرين قدمًا عن ناره الموقدة، حاملًا في يده حزمة من الأعواد المشتعلة ليلقيها على أعدائه متى حاولوا الاقتراب منه. وبمجرّد وصوله إلى الشجرة شرع يفحص الدغل المحيط بها لكي يعمل على إسقاطها في الاتجاه الذي يكثر فيه حطب التدفئة.

كانت تلك الليلة تكرارًا لليالي الفائتة، غير أن الاحتياج للنوم صار مسيطرًا عليه بحيث فقدت زمجرة الكلبين تأثيرها في إيقاظه، وهي على كل حال كانت تزمجر طوال الوقت تقريبًا. أما حواسّه فقد صارت شبه مخدّرة بفعل التعطّش إلى النوم، فلم تعد قادرة على ملاحظة التغيير في حدّة زمجرة الكلبين وعمقه. وفجأة استيقظ من غفوته مفزوعًا، ليجد الذئبة تقف على بعد أقل من ياردة واحدة منه، فلم يُضِع فرصة هذا الاقتراب الشديد، وألقى بتلقائية سريعة عودًا مشتعلًا تجاه فمها المفتوح المزمجر. قفزت الذئبة مبتعدة، وهي تصرخ في ألم، وعلى حين ابتهج برائحة لحمها ووبرها المحترق أخذ يرقبها وهي تهزّ رأسها وتعوي في حنق على بعد نحو عشرين قدمًا منه.

وقبل أن يغفو هنري مرة أخرى، ربط في يده اليمنى قطعة مشتعلة من خشب الصنوبر، فما إن غفا لدقائق حتى أيقظه اللهب الساخن على جلده. وظل لعدة ساعات ملتزمًا بذلك النظام، وكلما استيقظ دفع قطيع

الذئاب بعيدًا عنه بالقذائف المشتعلة وأعاد تغذية النار بالأخشاب، وأعاد ربط الصنوبر المشتعل في يده. سارت الأمور على هذا النحو إلى أن ربط الخشب المشتعل إلى يده ربطًا ضعيفًا، فسقطت من يده فور إغلاقه عينيه.

عبر هنري بوابة الأحلام. رأى نفسه جالسًا في راحة مستمتعًا بالدفء في محطة «ماكري» التجاريّة، ومستغرقًا في لعب الورق مع أحد مندوبي التجارة. وبدا له في الحلم أن المحطة محاصرة بالذئاب التي أخذت تعوي خارج البوابة، أما هو ورفيقه في اللعب فكانا يتوقّفان عن اللعب لدقائق ليستمعا إلى محاولات الذئاب العقيمة لاقتحام المكان، ويضحكا منها ساخرين. ثم حدث في الحلم شيء في منتهى الغرابة، وهو أنهما سمعا صوت اصطدام قوي، ثم انفتح الباب فجأة، ورأى بعينيه الذئاب تتدفّق إلى قلب غرفة الاستقبال الكبيرة في المحطة، متّجهة مباشرة إليه وإلى زميله في اللعب. ومع انفتاح الباب، تصاعد عواء الذئاب بشكل فظيع. وبدأ العواء يضايقه بشكل كبير، وبدا له أن الحلم يتحول إلى شيء آخر لا يدري ما هو على وجه التحديد، لكن العواء ظلّ يلاحقه.

استيقظ هنري، وإذا به يجد العواء حقيقيًّا. وارتفعت جلبة من الزمجرة والنباح، وجعلت الذئاب تدفعه من كل جانب، ثم انطبقت أسنان أحدها على ذراعه. وبشكل غريزي وثب هنري إلى قلب النار، على حين أحس بالأسنان الحادة تقطع في لحم ساقه. ثم بدأت معركة النيران، إذ استفاد هنري من قفازيه السميكين في حماية يديه بشكل مؤقت من النار، وأخذ يغترف بهما قطعًا من الجمر المشتعل ويقذف بها على الذئاب، حتى صارت المنطقة أشبه بالبركان المشتعل.

لم يكن ممكنًا أن يستمر الأمر كثيرًا على هذه الحال، فوجه هنري قد امتلأ بالبثور بسبب السخونة العالية، أما حاجباه ورموشه فقد لفحتها النار، كذلك لم تعُد قدماه قادرتين على احتمال المزيد من السخونة، فما كان منه إلا أن قفز إلى حافة النار وفي كل يد عود مشتعل. دفع ذلك الذئاب إلى الخلف، في كل الاتجاهات حول النار، حيث سُمعت أصوات أزيز خفيف

فالجمر المشتعل يذيب الجليد، وفي كل لحظة تتصاعد من أحد الذئاب المتراجعة أصوات زمجرة ونخير إذ يخطو بقوائمه على الجمر المشتعل.

رشق هنري القذائف النارية التي يحملها بيديه في أكثر أعدائه قربًا منه، ثم تقدّم ودس يديه في الجليد بقفازيه السميكين اللذين أوشكا على الاحتراق، كما جعل يدقّ على الأرض بقدميه حتى تبترد قدماه. اِفتقد هنري الكلبين، وأدرك أنهما قد صارا صنفًا من الطعام في تلك الوجبة الممتدة التي بدأت منذ أيام مع الكلب فاتي، وأن يكون هنري نفسه سيكون الصنف الأخير في تلك الوجبة قريبًا.

صرخ هنري بشراسة، وهو يهز قبضته في وجه تلك الوحوش الضارية، ويقول:

- «لم تنالوا مني بعد».

ما إن سمعت الذئاب صراخه العالي حتى انتابها الهياج، وصدرت عنها زمجرة عالية، ثم تقدّمت الذئبة منزلقة عبر الجليد وأخذت تراقبه وقد اختلط في نظرتها الأسى وشدّة الجوع.

اتخذ هنري قرارًا بتنفيذ فكرة جديدة طرأت على ذهنه، فجعل النار على شكل دائرة، ثم جثم في وسطها، وقد وضع رداء نومه تحته ليحميه من الجليد الآخذ في الذوبان. وعندما اختفى الرجل في قلب الملجأ المشتعل، بدأ فريق الذئاب في الاقتراب من حافة الدائرة وقد استبد بها الفضول لمعرفة ماذا جرى له، ولما لم تتمكن من اجتياز حاجز النار، لم يبقَ لها سوى أن تجلس في دائرة قريبة كأنها جماعة من الكلاب تنظر بعيون نصف مغمضة، وتتثاءب وتتمطى بأجسامها الضامرة مستمتعة بالدفء غير المعتاد. ثم جلست الذئبة، مشيرة بأنفها إلى نجمة في السماء، وبدأت تعوي، وانضمت إليها الذئاب كلّها، واحدًا بعد الآخر، فجلست على قوائمها الخلفية، وأنوفها تجاه السماء، تعوي بصيحة الجوع.

جاء الفجر، ثم ضوء النهار، وبدأت النار تخبو، فقد نفد الحطب، ولا

بد من جلب المزيد منه لكي تشتعل النار من جديد. حاول الرجل أن يخطو إلى خارج دائرة اللهب، فإذا بالذئاب تنبعث واقفة في مواجهته. نعم، جعلتها القذائف المشتعلة تتنحّى جانبًا، لكنها لم تعُد كافية لدفعها إلى التراجع. وقد حاول من دون جدوى إخافتها لكي تبتعد عنه، وعندما استبدّ به اليأس، وتعثر داخل الدائرة المشتعلة وثب عليه أحد الذئاب. أخطأه الذئب، واستقر على الأرض بقوائمه الأربع فوق الجمر المشتعل، فصرخ صرخة ألم وفزع، وأخذ يعوي وهو يرجع إلى الخلف متعثّرًا، باحثًا عن الجليد ليبرّد قوائمه.

ربض هنري فوق البطاطين، جذعه مائل إلى الأمام، وكتفاه مسترخيتان متخاذلتان، ورأسه مستقرّة على ركبتيه معلنة توقّفه عن المقاومة، ومن حين لآخر يرفع الرجل رأسه فيلاحظ أن النار تخبو، وأن ثمة فجوات آخذة في الاتساع في دائرة اللهب، الذي يتناقص باضطراد. وتمتم هنري قبل أن يغفو:

– «أظنّ أنه يمكنكم أن تأتوا للنيل مني في أي لحظة. على كل حال، أنا في حاجة لبعض النوم».

بعد قليل انتبه هنري، ونظر من إحدى فتحات الدائرة ليجد الذئبة في مواجهته تمامًا، ونظراتها لا تكاد تتحوّل عنه.

ثم استيقظ مرة أخرى بعد قليل من الوقت، وإن بدا له أن ساعات قد انقضت، ففوجئ بتغيُّر غامض قد حدث. غامض إلى الحدّ الذي جعل الصدمة تفتح عينيه عن آخرهما، فلقد حدث شيء ما لم يفهمه في البداية. لقد ذهبت الذئاب، ذهبت جميعًا، ولم يبقَ سوى قطع الجليد المتكسرة، لتبين له إلى أي حد كانت تلك الحيوانات قريبة منه. وداهمته الرغبة في النوم من جديد، وتمكّنت منه، فغاصت رأسه إلى أسفل واستقرّت على ركبتيه، ثم صحا مرة أخرى على مفاجأة.

صحا على صيحات لرجال، وأصوات قرقعة زلّاجات، وصرير ألجمة، وتذمّر كلاب مجهَدة. لقد خرجت من مجرى النهر أربع زلّاجات

استقرت في المخيم بين الأشجار، ونصف دزينة من الرجال التفوا حول هنري وأخذوا يهزّونه وينغزونه من كل ناحية محاولين إعادته لوعيه. أما هو فقد نظر إليهم باستغراب، وجعل يهذي كالمخمور، ويقول بصوت غريب وهو يحاول مغالبة النوم:

- «ذئبة حمراء... انضمت للكلاب في وقت الطعام...أكلت طعام الكلاب.. ثم التهمت الكلاب.. وبعد ذلك التهمت بيل».

أخذ واحد من الرجال يهزّه بخشونة بينما يجأر في أذنه:

- «أين لورد ألفريد؟».

هز هنري رأسه ببطء وهو يقول:

- «لا، لا، لم تأكله. هو مستقر على إحدى شجرات المخيم الأخير الذي توقّفنا عنده قبل هذا المخيم».

فصاح الرجل:

- «ميّت؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

فأجاب هنري:

- «نعم، وفي صندوق».

ثم هز كتفه بفظاظة متملِّصًا من قبضة مُستجوبه، وقال:

«دعني وشأني، لقد هدّني التعب».

رفّت عيناه ثم انطبق جفناه، وسقط ذقنه على صدره، وبينما أمسكه الرجال من أطرافه ليمدوا جسمه على البطاطين، ارتفع شخيره عاليًا في الهواء المحمّل بالصقيع.

وكان ثمة صوت آخر، صوت بعيد خافت، في البراح الواسع. إنها صيحة قطيع الذئاب الجائع، وهو ينطلق على الطريق بحثًا عن صيد آخر، بدلًا عن ذلك الإنسان الذي نجا بحياته منذ قليل.

الجزء الثاني

مولود البراري

1

معركة الأنياب

كانت الذئبة هي أول من انتبه لأصوات أحاديث الرجال وأنين الكلاب التي تجرّ الزلّاجات، وكانت أيضًا أول المنصرفين عن الرجل المحاصر داخل دائرة اللهب المتهاوي. أما الذئاب الأخرى، فقد تردّدت بعض الوقت في التخلّي عن الفريسة التي طاردتها لأيام، وتباطأت لعدّة دقائق حتى تأكّدت من سماع أصوات القادمين، ثم انطلقت مندفعة على الطريق نفسه الذي ركضت عليه الذئبة.

قاد قطيع الذئاب - الذي ركض خلف الذئبة - ذئب ضخم الحجم رمادي اللون، وهو واحد من عدة قادة يضمّها القطيع. هذا الذئب هو الذي اقتفى آثار الذئبة، وكان يزوم محذّرًا في وجه الشباب من أفراد القطيع، أو حتى ينهشهم بأنيابه إذا طمحوا إلى تجاوزه في السير، كما كان هو نفسه الذي حثّ الخطى عندما أبصر الذئبة وقد أبطأت من سيرها على الجليد.

سارت الذئبة بمحاذاة ذلك الذئب الضخم، وكأنه المكان المخصّص لها، ملتزمة بسرعة سير القطيع. أما رفيقها فلم يزُمّ في مواجهتها، أو يُكشر عن أنيابه، عندما صادف في بعض اللحظات أن وثبت فسبقته ببضع خطوات، بل على العكس من ذلك كلّه بدا ميالًا لها، إلى الحدّ الذي يجعله لا يحذو حذوها، فقد كانت هي التي تزوم وتكشّر عن أنيابها إذا حدث واقترب منها أكثر من اللازم أثناء السير. وأكثر من ذلك، هي لم

تتوانَ عن نهش كتفه بحدة إذا اقترب، فلم يكن عندئذٍ يُظهر أي غضب بل يكتفي بالوثب جانبًا، ثم يقوم بعدة وثبات خرقاء إلى الأمام بجسم متصلّب، وهكذا يبدو من حيث المشية والسلوك وكأنه يشبه عاشقًا قرويًا خجولًا.

كانت هذه مشكلته الوحيدة في إدارة القطيع، أما هي فتعاني من مشكلات أخرى، فإلى جانبها الآخر يجري ذئب نحيل عجوز، مبرقش الجسم باللون الرمادي، وقد امتلأ بآثار جروح من معارك متعدّدة سابقة، وهو دائمًا يجري على يمينها، ولعل السبب في ذلك أنه لا يرى سوى بعين واحدة هي عينه اليسرى. هو أيضًا مواظب على محاصرتها، وذلك بالانحراف ناحيتها حتى يلمس خطمه المثخن بآثار الجروح خاصرتها أو كتفها أو رقبتها. أما هي فتصدّ محاولاته للتقرّب منها بأسنانها كما اعتادت أن تفعل مع الذئب الآخر على الناحية الأخرى. أما عندما يسبغ الاثنان اهتمامهما في وقت واحد، وتجد نفسها وقد دُفعت بخشونة على الجانبين، لا يكون أمامها سوى أن تحمل على الاثنين بخبطات سريعة على الناحيتين، لتبعد الذئبين العاشقين بعيدًا عنها، ولكي تتمكّن أيضًا من المحافظة على حركتها إلى الأمام في إيقاع منتظم مع حركة القطيع، ومن رؤية الطريق أمامها. وفي مثل تلك الأوقات كان رفيقاها يكشران عن أنيابهما، في حين يزمجر كل منهما مهدِّدًا الآخر. كان بإمكانهما بالطبع أن يتعاركا، لكن لا شك أنه يمكن تأجيل اهتمام كل منهما بمغازلتها ومواجهة منافسه، إلى أن تنتهي مشكلة الجوع الملحّة التي تواجه القطيع كلّه.

ينحرف الذئب العجوز بشكل مفاجئ، بعيدًا عن محبوبته الحادّة الأسنان، بعد كل واحدة من لحظات الصدود هذه، ويُحاذي بكتفه ذئبًا شابًّا آخر، بلغ الثالثة من عمره، يجري على يمينه، حيث عينه التي لا ترى. ذلك الذئب الشاب قد اكتمل حجمه، وإذا أُخذ في الاعتبار حالة الضعف والإشراف على الهلاك جوعًا التي يعانيها القطيع، فهو بلا شك

يحظى بقدر من الحيوية والنشاط يفوق المتوسط، بالمقارنة برفاقه. ومع ذلك، أخذ هذا الذئب الشاب يجري ورأسه بمحاذاة كتف العجوز ذي العين الواحدة، فإذا جازف بالجري بجانب الذئب الضخم الآخر، وهو شيء نادر الحدوث، فهو يتعرّض لزمجرة وأحيانًا عضة ترسله إلى الوراء محاذيًا لكتف وحيد العين مرة أخرى. وينسحب الذئب الشابّ، من حين لآخر، ببطء حَذِر إلى الخلف بحيث يصبح على الحد بين القائد العجوز والذئبة، وعندئذ يتعرّض للرفض من ناحيتين وأحيانًا ثلاث، فعندما تزمجر الذئبة معلنة استياءها، يلتفت القائد العجوز غاضبًا إلى الذئب الشاب، وأحيانًا تستدير هي أيضًا، وقد يستدير القائد الشاب من الناحية اليسرى غاضبًا.

عندما يواجُه الذئب الشابّ بتلك المجموعات الثلاث من الأنياب الشرسة يتوقّف بسرعة، مرتكزًا على فخذيه، وقائمتاه الأماميتان منتصبتان في ثبات، وقد انتفش الفراء حول عنقه، وبدا فمه مُكشِّرًا في توعّد. ذلك الاضطراب الذي يطرأ على مقدّمة القطيع يسبب ارتباكًا في الصفوف الخلفية، فيصطدم بعض أفراد القطيع مع الذئب الشاب، وقد يعبِّرون عن ضيقهم بعضّات سريعة حادّة على قائمتيه الخلفيتين وخاصرتيه. في حقيقة الأمر، هو الذي كان يتسبّب في عديد من المشكلات لنفسه، فنقص الطعام يكون مصحوبًا في العادة بنفاد الصبر، لكن ثقة الشباب التي بلا حدود جعلته يصرّ على تكرار المناورة نفسها من حين إلى آخر، رغم أنها لا تعود عليه في كل مرة إلا بخيبة الأمل.

لو توفّر الطعام لصار طبيعيًا أن تتعدّد مناورات الحب والحرب بين أفراد القطيع، ولتَجَزّأ القطيع إلى عدة قطعان، غير أن الذئاب كانت مشرفة على اليأس، بعد أن بلغ منها الهزال مبلغًا بسبب طول العهد بالجوع، فكانت تجري بسرعة أقل كثيرًا من سرعتها المعتادة. يعرج الضعفاء، أصغر أفراد القطيع وأكبرهم سنًا، في الخلف، وفي المقدّمة تركض

الذئاب الأكثر قوة. كانت الذئاب جميعًا كأنها مجرّد هياكل عظمية، وليست أجسامًا كاملة، غير أنها باستثناء تلك التي أخذت تعرج، اتسمت حركتها بالخفة وعدم الإجهاد. لقد بدت عضلاتها المفتولة ينابيع لطاقة لا تنضب، فكل انقباضة صلبة لعضلة، تتبعها انقباضة أخرى أكثر صلابة، وهكذا، وهكذا، بلا نهاية.

ركضت الذئاب حتى قطعت أميالًا كثيرة في ذلك اليوم، وركضت في الليل، فلما طلع الصبح، كانت لا تزال على الحال نفسه. كانت تركض على سطح ميت متجمّد، خالٍ من أي أثرٍ للحياة، وهي فقط الكائنات التي تتحرّك داخل ذلك الجمود الشاسع، هي فقط التي تتمتّع بالحياة، وكان عليها أن تواصل البحث عن كائنات حيّة أخرى تلتهمها، لكي تبقى هي على قيد الحياة.

عبرت الذئاب ممرّات مائية في مناطق شديدة الانخفاض، قبل أن تظفر ببُغيَتها. لقد وقعوا على وعل كبير. نعم، لحم فريسة لا تحرسها نيران غامضة ولا قذائف من اللهب المشتعل. بدا الوعل مألوفًا لها بحوافره المفلطحة وقرنيه المنبسطين كأنهما كَفّان، ولعلها لذلك تخلّت عن حذرها المعتاد وصبرها، فدخلت معه في معركة شرسة حُسمت سريعًا. لقد هوجم الوعل من جميع النواحي، فرد بضربات حادّة بارعة بحوافره القوية فمزق أجسام بعض الذئاب وكسر رؤوس بعضها، وكاد يسحق بعضها الآخر بقرونه الضخمة، أو بارتطامها بالجليد تحت حوافره الثقيلة، أثناء العراك. ورغم ذلك كلّه، فقد كان مقدرًا للوعل الضخم أن يسقط، فقد وثبت عليه الذئبة، فنهشت نحره بشراسة، ثم تكاثرت عليه الأنياب، في أنحاء جسده، حتى كادت تلتهمه حيًّا، قبل حتى أن تخور قواه، وتنتهي مقاومته.

أكلت الذئاب حتى شبعت من ذلك الطعام الوفير، فوزن الوعل كان يزيد على ثمانمائة رطل، أي إنوعدّل كل فرد من القطيع الذي بلغ أربعين

ذئبًا أو أكثر قليلًا، قد حصل على ما يقرب من عشرين رطلًا كاملة. وكما كانت قدرة الذئاب على تحمّل الجوع هائلة، كانت سرعتهم في التهام الطعام مذهلة، وسرعان ما انتهوا من التهام ذلك الحيوان الضخم الذي واجه القطيع منذ ساعات قليلة، ولم يبقَ منه إلّا بضع عظمات متناثرة.

جاء الآن وقت الراحة والاستغراق لساعات طويلة في النوم. ثم بدأت المشاحنات واشتعل العراك بين الذكور الشباب، بعد أن امتلأت البطون بالطعام، واستمتعت بالراحة، واستمر ذلك لعدة أيام، قبل أن ينقسم القطيع إلى قطعان متفرقة. لقد انتهت المجاعة، وها هي الذئاب الآن ترتع في أرض عامرة بالفرائس. ورغم أنها لا تزال تمارس الصيد كقطيع واحد، فهي الآن أكثر حذرًا، إذ إنها عندما تمرّ في طريقها بقطعان الوعول، تتحايل حتى تنفرد بالإناث السمينة بطيئة الحركة، أو الذكور الكبيرة المصابة، بعيدًا عن بقية القطيع.

وذات يوم، في أرض الوفرة هذه، انقسم القطيع إلى جزأين ذهب كل منهما في اتجاه. قادت الذئبة واحدًا من القطيعين، وعلى يسارها القائد الشاب، وعلى يمينها الذئب وحيد العين، وسار القطيع إلى نهر «ماكينزي»، ثم عبْر منطقة البحيرات إلى الشرق منه. ويومًا بعد يوم، أخذت أعداد القطيع تتناقص؛ قد يهجر القطيع اثنان من الذئاب: ذكر وأنثى، وفي حالات أخرى يفرّ أحد الذكور منفردًا فرارًا من الأنياب الحادّة لمنافسيه. ولم يبقَ من القطيع في نهاية الأمر سوى أربعة: الذئبة، والقائد الشاب، ووحيد العين، والذئب الطموح الذي بلغ الثالثة من عمره.

صار مزاج الذئبة غاية في الحدّة، حتى إن أجسام محبيها الثلاثة، حملت علامات من آثار أنيابها، غير أن الثلاثة لم يردّوا على سلوكها بالمثل، بل لم يدافعوا عن أنفسهم في مواجهتها. نعم، اعتادت الذئاب الثلاثة الذكور أن تدير أكتافها عندما تهاجمها الذئبة بشراسة، وتنصرف عنها، بخطوات هادئة وذيول مهتزّة، باذلة أقصى الجهد لاسترضائها

والتخفيف من غضبها. وفي مقابل تلك الرقّة في معاملة الذئبة، اتصف التعامل بين الذكور الثلاثة بشراسة شديدة. لقد بالغ الذئب ذو السنوات الثلاث في شراسته، حتى إنه تحيّن فرصة، وانقض على وحيد العين، من اناحية اعين المصابة، فنهش أذنه حتى تمزّقت إربًا. صحيح أن الذئب العجوز كان يرى من جانب واحد فقط، لكنه في مقابل تفوّق منافسيه عليه بالشباب والحيوية، كان بالضرورة قد استفاد من الخبرة التي تعلّمها خلال سنوات طويلة. خبرة تتجلّى آثارها في عينه المظلمة وخطمه المليء بالجروح. لقد خاض معارك كثيرة، ونجا منها بحياته، ولهذا لا يجب أن يساوره أي شك الآن في ما يجب عليه القيام به.

تواجه الطرفان بنزاهة في البداية لكن الوضع تغيّر بعد قليل. فلا أحد كان بإمكانه أن يتنبأ كيف يمكن للمعركة أن تنتهي بينهما. لقد انضم الذئب الثالث إلى العجوز، وهاجم الاثنان الذئب الشاب الطموح، وتآزرا على تحطيمه، وهكذا وجد نفسه وقد أخذت الأنياب الشرسة لرفيقيه القديمين تمزّقه من الجانبين. لقد نُسيت تلك الأيام التي مارسوا فيها الصيد معًا، والفرائس التي التهموها معًا، والمجاعة التي عاشوا آلامها معًا، فكل ذلك صار من حكايات الماضي. أما رغبات الحب فهي التي في متناول الذئاب الآن، وهي رغبات قد تكون أكثر إلحاحًا وأشد حدّة في تلك اللحظة.

كانت الذئبة، التي هي السّبب في كل ما يحدث، تراقب القتال، وقد أقعت على عجيزتها، وبدا الرضا، بل السعادة على وجهها. كان ذلك هو يومها الذي لا يتكرّر كثيرًا، إذ تقف الذكور، وقد انتفش فراؤها واصطكّت أنيابها بأنياب الذئاب المنافسة، أو انغرزت في أجسادها، وكل ذلك من أجل الفوز بها.

فقد الذئب الشاب الطموح حياته من أجل الحب، في مغامرته الأولى، وعلى جانبي جيفته المسجّاة وقف غريماه، وكل منهما يمعن النظر في الذئبة التي جلست تبتسم على الجليد. اتسم الذئب العجوز بالحكمة، بل

بالدهاء، في الحب والحرب على حد سواء، وعندما التفت القائد الأصغر سنًا برأسه كي يلعق جرحًا على كتفه، صارت صفحة عنقه مبسوطة أمام رفيقه، الذي رأى بعينه الواحدة أن الفرصة سانحة، فقذف نفسه كالسهم وانطبق بأنيابه على نحر غريمه في قضمة طويلة عميقة. عاد وحيد العين إلى مكانه بخفّة، بعد أن اصطدمت أسنانه بجدار الوريد الرئيسي في عنق الضحية، فانفجرت منه الدماء.

زمجر القائد الشاب بصوت مروّع، ثم انقلبت الزمجرة إلى سعال مختلط بحشرجة، ورغم الدماء النازفة والسعال والألم، اندفع مهاجمًا، بينما أخذت شعلة الحياة تخبو بداخله، وقوائمه تضعف من تحته، وضوء النهار يغيم في عينيه، إلى أن صار اندفاعه واهنًا وضرباته خافتة.

لا تزال الذئبة حتى تلك اللحظة تقعي على مؤخّرتها وسط الجليد، وعلى وجهها ما يشبه الابتسامة. لقد كانت سعيدة بشكل غامض بسبب تلك المعركة. هذا هو فعل الحب في البراري، أو لنقل فاجعة الجنس في عالم الطبيعة، وهو فاجعة فقط لأولئك الذين انتهت حياتهم. أما الذين نجوا فلم يكن لهم إلا تحقُّقًا وإنجازًا.

عندما رقد الذئب الشاب على الجليد من دون حراك، تقدّم الذئب العجوز في اتجاه الذئبة، في مشية جمعت بين الانتصار والتوجّس. كان في ما يبدو متوقّعًا ما يدلّ على الصدّ، فإذا به يفاجأ بأن أسنانها لم تنهشه في غضب، بل استقبلته بأسلوب غاية في المودّة. لقد تشمّم كل منهما أنف الآخر، وتلطّفت معه إلى حد أنها أخذت تتواثب حوله وتدور وتلعب معه كأنهما جروان صغيران. أما هو، فرغم سنوات عمره الكثيرة وخبرة السنين، فقد تصرّف أيضًا بأسلوب طفولي، بل بمزيد من الحمق في بعض اللحظات.

لقد نُسِيت المعارك بالفعل، وغاب الغرماء المهزومون، وأُعيدَت

كتابة قصة الحب على الجليد. نُسيَت المعارك في ما عدا مرة واحدة عندما توقّف وحيد العين لدقيقة ليلعق جراحه المتيبّسة. عندئذٍ، اختلجت شفتاه في ما يشبه الزمجرة، وانتفش وبر رقبته وكتفيه بشكل تلقائي، على حين اتّخذ جسمه وضع التحفّز للانطلاق، فتشنّجت قوائمه متشبّثة بسطح الجليد لحفظ توازنه. ثم غاب ذلك كلّه في اللحظة التالية، إذ انطلق في إثر الذئبة التي قادته عبر الأحراش.

أخذ الذئبان، منذ ذلك الحين، يركضان متجاورين، كأنهما صديقان حميمان، متفاهمان في كل شيء. ومرّت الأيام بهما وهما على هذا الحال، يشتركان في مطاردة الفرائس والإيقاع بها ثم يقتسمان لحومها. وبعد قليل من الوقت، بدأت الذئبة تشعر بشيء من عدم الارتياح، وبدا كأنها تبحث عن شيء لا تستطيع أن تعثر عليه. صارت تنجذب إلى التجاويف التي تحت الأشجار التي هوت على الارض، وتمضي وقتًا طويلًا تتشمّم الفجوات الواسعة في الصخور وفي الكهوف الواقعة على الضفاف الناتئة للأنهار، وقد تكوّمت فيها جميعًا قطع الثلج. لم يكن الذئب العجوز مهتمًّا بهذا الأمر على الإطلاق، غير أنه كان يتبعها عن طيب خاطر في رحلة البحث، وعندما يطول بها البحث في أماكن معيّنة، يرقد في هدوء ينتظرها إلى أن تصبح على استعداد لاستئناف المسير.

لم يستقر الذئبان في مكان واحد، بل استمرا في التنقل حتى عادا إلى نهر «ماكينزي»، حيث أخذا يسيران بمحاذاته ببطء، وقد يتحوّلان في بعض الأحيان إلى بعض الجداول الصغيرة التي تلتقي به من أجل صيد بعض الفرائس، ثم يعودان دائمًا إلى النهر في النهاية. وقد تكرّر أكثر من مرة أن صادفا بعض الذئاب الأخرى، في الغالب على شكل ثنائيات من ذكر وأنثى، غير أنه لم يحدث أي اهتمام بالتزاوج بين أيّهما وأحد الأطراف الأخرى، بل لم يسعدا بلقائها، ولم يبديا أي رغبة في العودة إلى شكل القطيع. وحدث في مرات أخرى أن التقيا بذئاب تسير منفردة، وهي

من الذكور التي ظلت تصرّ بإلحاح على الانضمام إلى الذئب العجوز ورفيقته، غير أنه كان دائمًا يرفض. وعندما تقف الذئبة إلى جواره، كتفًا إلى كتف، وقد انتفش وبرها وكشّرت عن أنيابها، يتراجع الذئب المتطفّل، ثم يستدير ويغادر المكان وحيدًا.

توقف الذئب العجوز فجأة، بينما هما يجريان في قلب الغابة الهادئة، في إحدى الليالي المقمرة، واتّجه بخطمه إلى أعلى وتصلّب ذيله، ثم أخذ يتشمّم الهواء بمنخاريه اللذين زاد اتساعهما في تلك اللحظة. رفع الذئب واحدة من قوائمه، كما تفعل الكلاب عندما تتوتّر، واستمر في تشمّم الهواء، باذلًا أقصى الجهد لكي يفهم الرسالة التي يحملها إليه. اكتفت رفيقته على الجانب الآخر بتشمّم الهواء بسرعة، ثم بدأت في التهادي على أرض الغابة لطمأنته. ورغم أنه تبعها فإنه لم يتخلَ عن ارتيابه، فلم يكُفّ عن التوقّف من فترة لأخرى من أجل دراسة أدقّ لذلك التحذير الذي تلقّاه.

زحفت الذئبة بحذر إلى حافة منطقة فسيحة مفتوحة وسط الأشجار، ووقفت وحدها لبعض الوقت. تبعها الذئب العجوز زاحفًا متسلّلًا وقد استُنفرت كل حاسّة من حواسّه، وانتصبت كل وبره في جسمه عاكسة لحالة الشكّ العميق التي تسيطر عليه، ووقف الاثنان متجاورين، يرقبان ويتسمّعان ويتشمّمان.

تسلّلت إلى آذانهما أصوات كلاب تزوم وتتشاجر، وصيحات عالية صادرة عن حناجر رجالية قوية، وأصوات أكثر حدة لنساء،ثم تعالت صيحة رضيع غاضب محتجّ. ولم يستطع الذئبان أن يريا إلا أشياء قليلة، باستثناء تجمّعات ضخمة من الأكواخ المصنوعة من جلود الحيوانات، ولهب النيران الذي يتقاطع معه أحيانًا بعض الأجساد البشرية التي تتحرّك في المكان، والدخان المتصاعد ببطء في الهواء الساكن. أما أنفاهما، فقد اشتمّا خليطًا وافرًا من الروائح التي تميّز مخيَّمًا للسكان الأصليين

ذوي الأصل الهندي، وهي روائح بدت مبهمة للذئب العجوز، على حين كانت الذئبة معتادة على تفاصيلها كلها.

ظهر الانفعال بشكل مثير للدهشة على الذئبة، وجعلت تتشمّم الهواء بسرور متزايد، أما رفيقها العجوز فقد ظلّ على توجّسه، وبدا عليه التخوّف، وشرع في التحرك سريعًا مُزمِعًا الرحيل. التفّت الذئبة إليه ولمست عنقه بخطمها كأنما تُطمئنه، ثم عادت تنظر إلى المخيم، وفي عينيها حزنٌ جديدٌ، ليس حزن الجوع هذه المرة. كانت في حقيقة الأمر تحدوها رغبة حارقة في التقدّم ناحية المخيم، بالقرب من تلك النار، تتعارك مع الكلاب، وتتجنّب الرجال وتراوغ أقدامهم التي لا تكفّ عن التجول في المكان.

تحرّك الذئب العجوز بجوارها بشيء من نفاد الصبر، فها هو عدم الارتياح يسيطر عليها، وها هي الحاجة المُلحَّة تعاودها للبحث عن شيء مجهول. التفتت الذئبة وتقدّمت بهدوء في اتجاه الغابة، مما أثار ارتياح رفيقها، فمضى يتقدّمها في اتجاه الغابة حتى صارا في حمَى الأشجار.

انحدر الذئبان في الغابة تحت ضوء القمر، من دون صوت كأنهما شبحان، إلى أن عثرا على ممر، فأخذا يتشمّمان آثار الأقدام التي كان واضحًا أنها حديثة على الجليد. ركض الذئب حذرًا في المقدّمة، ورفيقته في إثره. انتشرت آثار أقدامهما المفلطحة على مساحات واسعة من الجليد، وبدت في اتصالها بالجليد كأنها قطع متناثرة من القطيفة. ثم لمح الذئب حركة خافتة لشيء أبيض وسط البياض الغامر. كانت حركته المنزلقة غاية في السرعة والخفّة، لكنها ليست شيئًا بالمقارنة بسرعته الآن، وأمامه تتواثب الرقعة الباهتة البياض التي عثر عليها.

كان الذئبان يركضان عبر ممشى ضيّق يحيط به من الناحيتين سياج من أشجار صنوبر قصيرة، ومن بين الأشجار تبدو فتحة نهاية الممشى التي

تفضي إلى مساحة من البراح يُنيرها ضوء القمر. استمرّ الذئب في الركض مسرعًا ليلحق بذلك البياض الهارب، وها هو ذا يكاد يصل إليه، لم يبق سوى وثبة واحدة حتى يغرز أسنانه فيه، غير أن هذه الوثبة لم تحدث أبدًا. لقد علا ذلك الشيء الأبيض، الذي اتضح أنه أرنب جليدي، في الهواء وشرع يتقافز ويتمايل في رقصة رائعة، من دون أن يلمس الأرض.

تراجع الذئب إلى الخلف وصدر عنه صوت كالشخير، بسبب الخوف المفاجئ، ثم انكمش على نفسه بقرب الجليد وربض هناك وهو يزوم مهددًا ذلك الشيء المخيف الذي لم يستوعبه. أما الذئبة، فقد تقدّمت بهدوء وتخطّته، ثم توقّفت للحظة، بعدها اندفعت تطارد الأرنب الراقص. وثبت هي أيضًا لأعلى، لكن ليس بما يكفي لكي تلحق بالفريسة، وهكذا اصطكّت أسنانها تقبض على الهواء وهي تصدر صريرًا معدنيًّا رنانًا، ثم وثبت مرة ثانية وثالثة، ولكن من دون أي فائدة.

كان رفيقها في تلك اللحظة قد استرخى في جلسته، وأخذ يراقبها، ثم عبّر بوضوح عن استيائه لفشلها المتكرّر، قبل أن يندفع مرّة أخرى في وثبة هائلة إلى أعلى، أوصلت أسنانه إلى الأرنب فانطبقت عليه، وحمله الذئب في طريقه إلى الأرض. وفوجئ الذئب في الوقت نفسه بصوت طقطقة غامض يصدر من حركة بجانبه، ورأت عيناه المندهشتان شجيرة صنوبر تنثني لتصطدم به، فأفلت فكّاه الفريسة، ووثب إلى الخلف هاربًا من ذلك الخطر الغريب، على حين كشّر عن أنيابه وأخذ يزوم وقد انتفشت كل شعرة في جسمه من الغضب والخوف. وفي تلك اللحظة انتصبت الشجيرة النحيلة عائدة إلى وضعها الأصلي وعاد الأرنب يرقص في الهواء من جديد.

غضبت الذئبة، وغرزت أنيابها في كتف رفيقها تعبيرًا عن استيائها، فما كان منه إلا أن ردّ عليها بالعنف نفسه، مُمَزِّقًا جزءًا من جانب خطمها، وقد غمره الخوف وعدم الفهم أيضًا لذلك الهجوم عليه. انتابت الذئبة الدهشة

لرد الفعل العنيف لرفيقها، فوثبت عليه وهي تزمجر في سخط. اكتشف الذئب العجوز خطأه، فشرع في محاولة استرضائها، غير أنها استمرت في معاقبته بحدة، حتى فقد الأمل في تهدئتها، فلم يجد بدًّا من التحرّك بشكل دائري مُبعدًا رأسه عنها على حين يتلقّى كتفاه العقاب من أسنانها.

كان الأرنب - في تلك الأثناء - لايزال يرقص في الهواء فوق رأسيهما. جلست الذئبة على الجليد، أما وحيد العين الذي صار خوفه من رفيقته أكبر من خوفه من الشجيرة، فقد وثب مرة أخرى مستهدفًا الأرنب. عاد به وهو بين أسنانه هذه المرة، بينما عيناه لا تتحوّلان عن الشجيرة، التي تبعته - كما في المرة السابقة - إلى الأرض. جثم الذئب على الأرض متوقّعًا الضربة الوشيكة الحدوث، وقد انتفش فراءه، ولا تزال أسنانه تقبض على الأرنب. لكن الضربة لم تأتِ، وظلت الشجيرة على انحنائها فوق رأسه. تحرّكت عندما تحرّك، فأخذ يزوم في مواجهتها بفكّين متصلّبين، ثم لما سَكَن سكنت هي أيضًا، فاستنتج أنه من الأفضل له أن يظل بلا حراك. ظلّ الذئب ساكنًا مستمتعًا بطعم دماء الأرنب الدافئة في فمه.

كانت رفيقته هي التي تقدّمت لإخراجه من المأزق الذي وجد نفسه فيه. لقد أخذت الأرنب منه، وبينما تمايلت الشجيرة وتأرجحت فوقه رأسها مهدِّدةً، انهمكت الذئبة في قضم رأس الأرنب بهدوء، وما أن انتهت من ذلك حتى انتصبت الشجيرة مفرودة، ولم تسبّب أي مشكلات أخرى، بل ظلّت على الوضع العمودي الأصلي الذي أرادته الطبيعة لها. عندئذٍ، اقتسم الذئبان في ما بينهما الفريسة التي اصطادتها الشجيرة الغامضة لهما.

كان ثمة مماشٍ وممرّات أخرى في الغابة، حيث الأرانب معلّقة في الهواء، وقد نقّب عنها الذئبان وفحصاها جميعًا، هي في المقدّمة، وهو يتبعها ويراقب، فيتعلّم كيفية سلب فرائس شراك الصيد، وهي خبرة سيُقدّر لها أن تثبت فائدتها له في ما هو قادم من الأيام.

2

العرين

ظل الرفيقان يحومان حول المخيَّم الهندي لمدة يومين. كان هو قلقًا متوترًا، غير أن مشهد المخيّم أغوى رفيقته، فكانت عازفة عن الرحيل. وذات صباح، تأكّد وجود بندقية ق يبة عندما دوَّت في الهواء رصاصة شقّت السكون واصطدمت بجذع شجرة ضخمة، على بعد عدة بوصات من رأس الذئب العجوز. عندئذٍ، لم يعد التردّد ممكنًا، واندفع الاثنان في خطوت سريعة واسعة، ولم يتوقّفا حتى ابتعدا عدة أميال عن مصدر الخطر.

لم يرتحلا لمدة طويلة، فقط مسيرة يومين، فالذئبة باتت في حاجة مُلحّة إلى العثور على الشيء الذي كانت تبحث عنه. لقد أصبح جسمها ثقيلًا إلى حدٍّ كبيرٍ، فلم تعد تستطيع الجري إلا ببطء ملحوظ، حتى إنها وهي تطارد أرنبًا، كان يمكنها في الماضي أن تلحق به بسهولة، وجدت نفسها غير قادرة على الاستمرار في المطاردة، وقررت أن ترقد طلبًا لبعض الراحة. فلما جاء رفيقها مستطلعًا، ولمس رقبتها بخطمه هاجمته بشراسة، حتى إنه تعثّر وهو يتراجع إلى الخلف، فانقلب على عقبيه، ورسم جسمه شكلًا مضحكًا في الهواء، وهو يفرّ من أسنانها الحادّة. لقد صارت نافدة الصبر بشكل لا يُصدق، أما هو فقد أصبح صبورًا أكثر من أي وقت مضى، وأكثر توتّرًا أيضًا.

ثم عثرت الذئبة على الشيء الذي كانت تبحث عنه. كان ذلك على بعد

أميال قليلة من جدول صغير يصبّ في فصل الصيف في نهر «ماكينزي»، أما الآن فهو متجمّد من أعلى ومن أسفل حتى قاعه الصخري، فما هو إلا كتلة من البياض المُصمَت من منبعه إلى مصبه. كانت الذئبة تسير وقد بدا عليها الضجر، ورفيقها يتقدّمها، فلما رأت الضفة الطينية الناتئة، التفتت وعبرت إليها. كانت عواصف الربيع ومعها الجليد الذائب قد غسلت تلك الضفة الناتئة، وحوّلت أحد الشقوق إلى كهف صغير.

توقّفت الذئبة قليلًا عند مدخل الكهف، ونظرت إلى جدرانه بحذر شديد. ثم أخذت تدور من ناحية لأخرى تتفحص نقاط التقائه بالأرض الليّنة حوله. وعادت بعد ذلك إلى مدخل الكهف الضيّق، فدخلت حيث اضطرت إلى الالتصاق بالأرض لمسافة ثلاث أقدام تقريبًا، بعد ذلك تراجعت الجدران فاتّسع المكان، وارتفعت قليلًا لتصبح على شكل فجوة دائرية يبلغ قطرها نحو ست أقدام، والجدار العلوي بالكاد يعلو رأس الذئبة. بدا المكان جافًا مريحًا، غير أنها فحصته بدقة بالغة. أما الذئب العجوز فقد لحق بها ووقف يرقبها عند المدخل في صبر وأناة. أحنت الذئبة رأسها وتوجّهت بأنفها إلى نقطة على الأرض بين قوائمها، وأخذت تدور حول تلك النقطة، ثم استلقت على الأرض، رأسها في مواجهة المدخل، وقد تموّج جسمها، واسترخت قوائمها، وصدرت عنها تنهيدة تعب تشبه الشخير. أما رفيقها الذئب فقد انتصبت أذناه بما يدل على الاهتمام، وضحك في وجهها، وأكثر من ذلك، رأت ذيله يرتفع كفرشاة، ويُلَوِّح في لطف، على خلفية من ضوء النهار المنتشر خارج الكهف. عندئذٍ، استرخت أذناها، ملتصقتين برأسها للحظات، ومتّجهتين بطرفيهما الحادّين إلى الخلف، على حين انفتح فمها وتدلّى لسانها خارجًا من فمها بسكينة، وهكذا عبّرت الذئبة عن سعادتها ورضاها.

شعر الذئب العجوز بالجوع، ورغم أنه استلقى خارج الكهف ونام، فقد كان نومه مُتقطّعًا، فظلّ يستيقظ من حين لآخر، ويُنصت إلى ما يجري

في الخارج، حيث كانت شمس إبريل تتوهّج على الجليد. ثم تأخذه غفوة فتتسلّل إلى أذنيه همسات خافتة لمياه تجري في مسارب خفيّة، عندئذٍ ينهض ويُنصت باهتمام. لقد عادت الشمس إلى الظهور، وبدأ عالم المنطقة الشمالية المنبعث من جديد يجذب حواسّه ويناديه، وها هي ذي الحياة الجديدة تضطرم حوله. وتَبَدّى الربيع الجديد في الهواء، تبدّى في الحياة التي بدأت تنمو تحت الجليد، وفي العصارة التي انسابت في جذوع الأشجار، وفي البراعم التي تفتّحت متحدّية أغلال الصقيع.

ألقى الذئب نظرات متسائلة على رفيقته، لكنها لم تُبدِ أي رغبة في النهوض. ثم نظر إلى الخارج حيث رأى بعض الطيور ترفرف على الجليد عبر مجال الرؤية، وشرع في النهوض، وهو يلقي نظرة ثانية على رفيقته، قبل أن يسكن ويغفو مرة أخرى. ثم إذا بصفيرٍ حادٍّ خافت يستولي على سمعه، مرة، ثم مرة أخرى، فمد خُفّ قائمته الأمامية ودعك به أنفه، كانت بعوضة تقف على قمة أنفه، وتصدر أزيزها في الهواء. إنها بعوضة كاملة النمو رقدت متجمّدة طوال الشتاء في قطعة خشب جافّة، ثم أعادت الشمس إليها الحياة. لم يستطع الذئب مقاومة نداء الحياة الطبيعة أكثر من ذلك، خصوصًا وقد استبدّ به الجوع.

زحف الذئب إلى أن وصل إلى رفيقته، وحاول إقناعها بالنهوض، لكنه لم ينَل منها سوى الزمجرة، فخرج وحده إلى حيث الشمس المشرقة، غير أنه وجد الجليد الذي بدأ يذوب فصار زلقًا، وأصبح التحرك على سطحه صعبًا. توجّه إلى مجرى الجدول الذي كان لا يزال بلّوريًّا صلبًا، إذ حجبت عنه الأشجار ضوء الشمس. غاب الذئب لثماني ساعات، وعاد في الظلام، وقد تزايد إحساسه بالجوع. لقد وجد صيدًا في طريقه لكنه لم يتمكّن من الإمساك به، إذ انكسر الجليد عدة مرات تحت أقدامه، فتعثّر وسقط بينما كانت الفرائس من أرانب الجليد تواصل الهرب وهي تثب بخفّة على السطح الهشّ.

توقّف الذئب للحظات عند مدخل الكهف، وقد داخله شعور مفاجئ بالصدمة والارتياب، بسبب أصوات غريبة خافتة جاءته من الداخل. كان واثقًا أن هذه الأصوات لا تصدر عن رفيقته، وهي تبدو مألوفة، ولكن في نقطة بعيدة من عمق الذاكرة. زحف الذئب على بطنه إلى الداخل بحذر، وقوبل بزمجرة محذّرة من الذئبة. لم يتلقَ ذلك بأي اندهاش، ورغم أنه استجاب لإشارتها بالالتزام بالبعد عنها لمسافة كافية، فقد ظلّ على تطلّعه لمعرفة مصدر تلك الأصوات، أصوات النشيج المكتوم الخافت وأصوات أخرى.

حذّرته رفيقته مرة ثانية، وقد ازداد توتّرها، من الاقتراب، فزحف إلى المدخل ثم نام هناك. في الصباح، عندما تسلّل ضوء باهت إلى داخل العرين، عاود الذئب الاقتراب محاولًا معرفة مصدر تلك الأصوات المألوفة البعيدة معًا. قابلته الذئبة بالزمجرة مرة أخرى، لكنّ مع نبرة غيرة حافلة بالتهديد هذه المرّة، مما جعل الذئب في غاية الحرص على الاحتفاظ بمسافة مناسبة بعيدة عنها. وقد تمكّن رغم ذلك من تبيّن خمسة أجسام صغيرة تلوذ بالذئبة، ملتصقة بها بين قوائمها وعلى امتداد جسمها المُستلقي. أجسام صغيرة في غاية الهشاشة والضعف، تُصدر أصوات نشيج خافتة، بعيون لم تنفتح بعد في مواجهة الضوء. عندئذٍ، غمرته الدهشة، ورغم أنه مرّ بتلك التجربة عدّة مرّات من قبل، في حياته الناجحة الممتدّة، فقد بدت له مفاجأة مدهشة، تمامًا كما بدت في كل مرّة من المرّات السابقة.

جعلت رفيقته تنظر إليه بقلق، ومن حين لآخر يصدر عنها صوت غمغمة، يتحول إلى زمجرة حادّة كلّما بدا لها أنه يقترب منها أكثر من اللازم. صحيح أن ذاكرتها لم تحتفظ بمثل تلك التجربة من قبل، لكن غريزتها، التي هي في الحقيقة خلاصة تجارب كل الذئاب الأمهات اللاتي سبقتها، اندست فيها ذكريات بعيدة لآباء من الذئاب التهموا

صغارهم الحديثي الولادة. تلك الذكريات البعيدة انعكست في خوف عميق يسكنها، وإليه يرجع منعها للذئب العجوز من الاقتراب من الجراء الصغيرة التي أنجبها.

لم يكن هناك أي داعٍ للخوف في حقيقة الأمر. أما الذئب العجوز فقد تغلغل في نفسه دافعٌ مُلِحٌّ، هو بالنسبة له غريزة انحدرت إليه من الذئاب الآباء السابقين لوجوده. ولم يتساءل الذئب عن تلك الغريزة، ولم تساوره أيّ حيرة بشأنها، فهي موجودة في نسيج كيانه كلّه. تلك الغريزة تحثّه في هذه اللحظة على أن يسرع بالبحث هنا وهناك عن طعام لعائلته الجديدة.

على بعد خمسة أميال أو ستة من العرين انقسم جدول الماء إلى فرعين، يندفعان بين الجبال على شكل زاوية قائمة. اختار الذئب الفرع الواقع إلى جهة الشمال، وهناك رأى بعض آثار الأقدام على الجليد، فتشمّمها وعندما أدرك أنها حديثة جثم على الجليد وأخذ يتحرّك بنعومة وهو يتطلّع في الاتجاه الذي اختفت فيه تلك الآثار، ثم استدار متعمّدًا ومضى يتحرّك على الفرع الآخر، ناحية اليمين. كانت آثار القوائم أكبر من آثار قوائمه، لذا أدرك الذئب أن أمامه على الطريق صيد مناسب.

على بعد نحو نصف ميل التقطت أذنا الذئب الحادّتان صوت أسنان تقرض، فاستمر في طريقه ملاحقًا الفريسة، التي اتضح أنها قنفذ رآه واقفًا على خلفيتيه يقرض بأسنانه لحاء شجرة. شرع الذئب في الاقتراب من فريسته بحذر وبغير كثير من الأمل في اقتناصها. كان يعرف هذا النوع من الكائنات، لكنه لم يلتق به من قبل في ذلك الشمال البعيد، ولم يتناوله طعامًا على امتداد حياته الطويلة. لقد تعلّم أن هناك ما يسمى فرصة أو احتمال، لذا مضى يقترب في هدوء، فلا أحد يمكنه أن يتنبأ بما سيحدث، إذ إن الحوادث في الحياة الحقيقية عادة ما تحدث بطريقة مختلفة على نحو أو آخر.

التفّ القنفذ على نفسه حتى صار كرة تنبثق منها أبر طويلة حادة في كل الاتجاهات، متحدّية أي هجوم يُوَجّه إليه. كان الذئب العجوز قد سبق له أن تشمّم مستطلعًا كرة مشابهة من الشوك بدت له خاملة، وفجأة تعرَّض لضربة قوية من ذيل القنفذ الذي اصطدم بوجهه فتسبب في جرح في خطمه ظلّ يلهب وجهه بالألم عدة أسابيع. وهكذا ربض الذئب في سكون تام، في وضع مريح، متأهِّبًا للانطلاق، وخطمه على غير خط امتداد الذيل، بالإضافة إلى أنه يبعد نحو قدم عن القنفذ. لعل القنفذ يفرد جسمه، فيعطي الذئب فرصة لتنقضَّ قائمته برشاقة على بطن القنفذ اللينة التي لا يحميها الشوك، وتمزّقها.

نهض الذئب بعد ما يزيد على نصف ساعة من الانتظار، وهو يدمدم مُتَذمِّرًا في مواجهة كرة الشوك الساكنة، ثم شرع في الابتعاد مهرولًا. لقد سبق له أن أمضى ساعات من دون فائدة، في انتظار قنافذ عسى أن تفك وضعها الشوكي هذا، ولا داعي لإضاعة المزيد من الوقت. وهكذا انطلق مستكملًا طريقه في الفرع نفسه، أي الذي يقع على اليمين، وأخذ النهار يمرّ، من دون أن تُحقّق جهوده أي نجاح.

أضحت غريزة الأبوّة المنبعثة في قلب الذئب العجوز دافعًا قويًا له ليجد صيدًا كافيًا لإطعام صغاره. وفجأة، بعد منتصف النهار، وجد الذئب نفسه في مواجهة طائر ترمجان[1]، إذ كان خارجًا من أجمة من الشجيرات المتشابكة، فإذا بالطائر في مواجهته مباشرة، جالسًا على كومة من الأخشاب، ولا يبعد عن أنفه بأكثر من قدم واحدة. رأى كل منهما الآخر في اللحظة نفسها، فحاول الطائر القليل الذكاء أن يطير وقد غلبه الاضطراب، لكن الذئب عاجله بضربة سريعة من راحة قائمته الأمامية، ثم ألقى به على الجليد وانقض عليه بأسنانه، على حين أخذ الطائر يحاول من

---

(1) Ptarmigan

دون جدوى التملّص منه مندفعًا في الفضاء. شرع الذئب في الأكل تلقائيًا بأسنانه التي أخذت تطحن اللحم الطري والعظام الهشّة، ثم تذكر المهمّة التي خرج من أجلها، فحمل الطائر في فمه، وانطلق في طريق العودة.

أخذ الذئب العجوز يعدو في طريقه بخفّة، بقوائمه المخملية الطابع، كما هي عادته، وكأنه طيف ينزلق على الجليد، ويفحص بدقة كل زاوية من الطريق. وعلى بعد نحو ميل واحد، بدأ يرى آثار قوائم مماثلة لتلك التي رآها في طريقه في الصباح، فاستمرّ في طريقه، متهيئًا لمقابلة صاحب تلك الآثار في كل منحنى على الجدول المتجمّد.

أدار الذئب رأسه ليمعن النظر إلى زاوية من الصخور، حيث بداية منحنى ذي حجم أكبر من المعتاد في مجرى الجدول، وسرعان ما تبيّن بعينيه الخبيرتين ما جعله ينزلق بخفّة جائمًا على الجليد. لقد وجد صاحبة الآثار التي رآها من قبل، وهي أنثى حيوان وَشَق[1] كبيرة الحجم. كانت رابضة، كما سبق له أن فعل في الصباح، وفي مواجهتها كرة الشوك الملتفة على نفسها بإحكام. هو الآن مجرّد شبح تسلّل واستدار حتى صار في مواجهة الغريمين الساكنين بلا حراك.

رقد الذئب العجوز على الجليد، تاركًا طائر الترمجان بجواره، ثم أخذ يراقب لعبة الحياة التي تدور بالقرب منه متلصِّصًا من بين الأوراق الإبَرية لشجرة صنوبر صغيرة. نعم، لعبة الحياة التي يلعبها القنفذ وأنثى الوَشَق. كلاهما حريص على حياته، والمفارقة في هذه اللعبة هي أن حياة أحدهما تتطلّب التهام الآخر، وحياة الثاني تستلزم ألا يدع الآخر يلتهمه. أما الذئب العجوز الجائم مُتخفّيًا، فهو صاحب دور في اللعبة أيضًا، إذ إنه يختبئ في انتظار فرصة استثنائية، غير متوقّعة، بين الغريمين، تساعده في الحصول على الطعام، للإبقاء على حياته هو.

---

(1) Lynx

مرّت نصف ساعة، بل ساعة كاملة، ولم يحدث شيء. لعل كرة الشوك تحوّلت إلى حجر لا حياة فيه، ولعل أنثى الوَشَق صارت تمثالاً متجمِّدًا من الرخام، ولعل الذئب العجوز مات! لا، بل الحقيقة هي أن الحيوانات الثلاثة كانت على درجة عالية من التيقّظ والحيوية، قد تصل إلى حدِّ الشعور بالألم من التوتّر، بل لعلها لم تكن قط أكثر تَيَقُّظًا وحيوية مما هي الآن، رغم ما تبدو عليه من تحَجُّر.

تحرّك الذئب العجوز لمسافة بالغة الصغر، وتقدّم وهو يُمعن النظر باهتمام، فقد بدا له أن شيئًا ما يحدث. نعم، لقد اعتقد القنفذ بأن عدوَّه قد غادر المكان أخيرًا، وهكذا شرع، ببطء شديد وبحذر أشدّ يفُكّ كرة الدروع الشائكة التي تحيط به. كان مضطربًا لأنه لا نأمة حوله تساعده على التنبؤ بما يمكنه أن يحدث، وهكذا ببطء، أخذت كرة الشوك تنفرد وتتحوّل إلى جسم مستطيل، على حين بدأ الذئب العجوز المستغرق في المراقبة، يشعر برطوبة مفاجئة في فمه، إذ بدأ ريقه يتحلّب بشكل تلقائي، متشوّقًا للفريسة الحيّة التي تتمدد أمامه كوجبة شهية.

لم يكن القنفذ قد انتهى من فرد جسمه تمامًا عندما اكتشف أن عدوه لا يزال حاضرًا مُتربِّصًا، وفي تلك اللحظة انقضت عليه أنثى الوَشَق بسرعة كومضة الضوء، واندفعت براثنها القوية ذات المخالب الحادة في لحم بطنه الطريّ، فمزّقته ثم انسحبت بالسرعة نفسها. وقد كان ممكنًا لتلك البراثن أن تنسحب سالمة لو كان القنفذ قد أتم بسط جسمه قبل تلك اللحظة، أو لو لم يكتشف وجود عدوه قبل الضربة بجزء من الثانية، أما والحال لم يكن كذلك، فقد تمكّن القنفذ بضربة جانبية من ذيله من غرز بعض الشوكات الحادة في القائمة المعتدية أثناء انسحابها.

لقد حدث كل شيء في وقت واحد: الضربة الأولى، والضربة المضادة، وصرخة مريعة من القنفذ، وصرخة الألم المفاجئ غير المتوقّع من الحيوان الشبيه بالقطّ. تحرك الذئب العجوز، حتى كاد يقف بسبب توتره، على حين انتصب ذيله عموديًّا، ثم أخذ يختلج وراء ظهره. أما أنثى

الوَشَق، فقد استبد بها الغضب، فأخذت تنقض بوحشية على ذلك الكائن الذي تسبّب لها في ذلك الألم الفظيع. أما القنفذ فقد أخذ يصرخ مُتشكّيًا ويصدر أصواتًا كالشخير، ويحاول واهنًا، أن يعود إلى الاختباء داخل كُرته الشوكيّة، ولذا جعل يضرب بذيله مرات ومرات، على حين تعاود أنثى الوَشق الصراخ من الألم المروِّع. ثم بدأت الأخيرة في التراجع مبتعدة، وهي تعطس، وقد تورّم أنفها حتى صار كوسادة قبيحة الشكل انغرزت فيها كمية هائلة من الدبابيس. ومسحت أنثى الوشق أنفها براحة إحدى قائمتيها الأماميتين، محاولة أن تُزيح تلك السهام الحارقة، ثم حكّته في الجليد، ودعكته في فروع الأشجار وأغصانها. كل ذلك وهي تقفز في كل اتجاه، في نوبة من الألم والخوف.

ظلّت أنثى الوشق تعطس بشكل متواصل، بينما ذيلها يتأرجح وراءها في هزّات عنيفة سريعة، وفجأة توقفت عن ذلك، وهدأت لدقائق قليلة. استغرق الذئب العجوز في مراقبتها، ولم يستطع السيطرة على انزعاجه الذي جعل شعر ظهره يقف بشكل تلقائي، عندما انطلقت فجأة من دون إنذار تثب إلى أعلى، وهي تصدر صرخة طويلة مروعة، ثم اندفعت على الطريق، وهي تصرخ مع كل وثبة تقوم بها.

اِنتظر الذئب العجوز إلى أن خفتت الضجة التي أثارتها أنثى الوشَق. وعندما تلاشت تمامًا مع إيغالها في البعد، جازف بالتقدّم إلى حيث يرقد القنفذ، وقد حرص على أن يسير بخطوات في غاية الخفّة والرهافة، وكأن الجليد مفروش بأشواك القنافذ، وهي حادّة ومنتصبة على استعداد لاختراق راحة قائمته الناعمة. أما القنفذ فقد استقبله بأنين غاضب، وباصطكاك أسنانه الطويلة، ثم تمكّن من العودة إلى شكل الكرة الشائكة، إلا أنها لم تكن الكرة المتماسكة السابقة نفسها، بسبب ما أصاب عضلاته من تهتّك، حتى إن جسمه كاد ينقسم إلى قسمين، وكان بالإضافة إلى ذلك ينزف بغزارة.

اغترف الذئب العجوز ملء فمه عدة مرات من قطع الثلج المتشربة

بدماء القنفذ، فمضغها وتذوقها ثم ابتلعها، فاستثارت شهيته، وتضاعف إحساسه بالجوع، لكن خبرته الطويلة بالحياة جعلته لا ينسى الحذر. رقد منتظرًا، بينما أخذ القنفذ يصرُّ بأسنانه ويصدر أصواتًا متداخلة من النخير والنشيج وبعض الأنين الحادّ من حين لآخر. وبعد بعض الوقت لاحظ الذئب أن الأشواك بدأت تتهدّل بالتدريج، ورأى اختلاجة عميقة تسيطر على القنفذ، ثم تنتهي فجأة، وإذا بأسنانه الطويلة تصطك للمرة الأخيرة، وترتخي الأشواك كلها، ثم استرخى الجسم كلّه من دون أي حركة.

تقدم الذئب العجوز، وبكف متوتّرة متوجِّسة قام بفرد جسم القنفذ، إلى أقصى امتداد طوله، ثم قلبه على ظهره، فلم يحدث أي شيء؛ إذًا لا شك أن القنفذ قد نفق. فحصه الذئب بدقّة لدقائق، ثم قبض عليه بأسنانه بحذر وبدأ رحلة عودته عبر الجدول، يحمل القنفذ أحيانًا ويجرّه أحيانًا أخرى، وقد أمال رأسه إلى جانب في كل الأحوال، لكي يتجنّب أن يخطو على كتلة الأشواك الحادة. تذكّر الذئب شيئًا ما، فأسقط حمله، ثم هرول راجعًا إلى حيث ترك طائر الترمجان. وهناك لم يتردّد للحظة، فهو يعرف بوضوح ما عليه فعله، وأقدم عليه إذ التهم الطائر على الفور، ثم عاد والتقط القنفذ من مكانه.

عندما أحضر الذئب العجوز صيده إلى داخل الكهف، فحصته الذئبة ثم استدارت إلى رفيقها ولعقت عنقه بِرِقّة، غير أنها أخذت تحذّره بعد ذلك مباشرة لكي يبتعد عن الجراء، لكن زمجرتها في تلك المرّة كانت أقل حدة من المعتاد، بل كانت أقرب إلى الاعتذار منها إلى التهديد. لقد بدأ خوفها الغريزي من والد صغارها يخبو بالتدريج، بعد أن أثبت أنه يلتزم بواجبه كأب، وأوضح أن لا رغبة لديه في التهام الصغار التي أتت بها إلى العالم.

3

الجرو الرمادي

كان مختلفًا عن إخوته وأخواته. هم جميعًا ورثوا عن الذئبة الأم الخط الأحمر في فرائهم، على حين كان هو في هذا الجانب على وجه الخصوص شبيهًا بأبيه، فهو الجرو الرمادي الوحيد في المجموعة الوليدة. في واقع الأمر، كان ذلك الجرو نتاج سلالة نقية من الذئاب، وأكثر من ذلك كان مماثلًا من حيث الشكل الخارجي لأبيه الذب العجوز، ما عدا أنه حظي بعينتين بينما لم يحظَ أبوه إلا بواحدة.

لم تكن عينا الجرو الرمادي قادرتين على الإبصار في البداية، ثم ثم شيًا فشيئًا أصبح قادرًا على الرؤية بدرجة ثابتة من الوضوح. حينما كانت عيناه لا تزالان مغمضتين، تمكّن من ممارسة اللمس والتذوّق والشمّ، ومن التعرُّف على أَخويه وأُختيه. كما بدأ يلهو ويمرح معهم بوهن ونزق، وأيضًا يتشاجر معهم، وصار حلقه الصغير يضطرم بصياح غريب خشن، هو بداية الزمجرة التي يحاول بها أن يعبّر عن مشاعره. وقد تعَلَّم الجرو قبل أن تتفتّح عيناه، بواسطة اللمس والتذوّق والرائحة، أن يتعرّف على أمه، منبعًا للدفء وللطعام السائل والحنان. كذلك كان لديها لسان يشعر به لطيفًا رقيقًا عندما يمر على جسمه الصغير الناعم، ويغريه على الاستكانة بالقرب منها، والإغفاء حتى يغلبه النوم.

لقد قضى معظم الشهر الأول من عمره نائمًا، لكنه الآن يستطيع أن يرى بشكل جيد إلى حد كبير، وأن يظل مستيقظًا لفترة أطول، كما بدأ

يتعرّف على عالمه بشكل أفضل. نعم، كان عالمه موحشًا، لكنه لم يدرك ذلك، فهو لا يعرف أي عالم آخر. وتميّز عالمه أيضًا بخفوت ضوئه، لكنه لم يكن مُطالبًا أبدًا بالتكيّف مع أي ضوء آخر، ويضاف إلى ذلك أن عالمه غاية في الصِغَر، فحدوده لا تتعدّى جدران العرين، غير أن عدم معرفته بالعالم الواسع خارج ذلك العرين، جعلته لا يضيق على الإطلاق بالمساحة الضيّقة التي تُحِد وجوده.

واكتشف الجرو الرمادي مبكرًا أن واحدًا من جدران عالمه يختلف عن الجدران الأخرى، وهو مدخل الكهف وفيه مصدر الضوء. لقد أدرك اختلافه في وقت مبكر للغاية، قبل أن تكون لديه أي أفكار خاصة، أو أي إرادة واعية. هذا الجدار يمثل إغراءً لا يُقاوَم حتى من قبل أن تنفتح عيناه ويتمكّن من رؤيته، فقد تمكّن الضوء القادم من خلاله من التسلّل عبر جفنيه المُحْكَميّ الإغلاق، على حين نبضت عيناه وأعصابه البصرية استجابةً للومضات الصغيرة اللامعة، ذات الألوان الدافئة والتأثير المُدهش المحبّب. إن طاقة الحياة في جسمه، بل في كل جزء من نسيج هذا الجسم، تلك الطاقة التي هي جوهر وجوده، والمنفصلة في الوقت نفسه عن حياته الشخصية، تتوق إلى ذلك الضوء، وتدفع جسمه ناحيته، بالطريقة نفسها التي يندفع بها النبات للتوجّه باتجاه الشمس.

وقد اعتاد الجرو الرمادي، في بداية حياته، وقبل أن يبزغ فجر حياته المدركة، على الزحف في اتجاه مدخل الكهف، واشترك إخوته معه في تلك العادة، ولم يحدث قط في تلك الفترة أن زحف أيٌّ منها في اتجاه الجوانب المظلمة للكهف. كان الضوء يجذبها كلَّها إليه، كأنها نباتات، فالتكوين الكيميائي لأجسامها يتطلّب الضوء باعتباره إحدى ضرورات الحياة، لذا اعتادت أجسامها الصغيرة أن تزحف نحو الضوء، يلفّها العماء، مدفوعة بكيمياء أجسامها، تمامًا كما تتطلّع الأوراق الرفيعة المتسلّقة لأشجار الكرم إلى اتجاه الشمس. وعندما مسّت عصا النمو -

في ما بعد – كل واحد منها، وصار واعيًا بدوافعه ورغباته، زادت جاذبية الضوء لهم جميعًا، فكانت كثيرًا ما تزحف باتجاه الضوء، إلى أن تُعيدها الأم إلى الداخل.

وهكذا عرف الجرو الرمادي صفات أخرى للأم، غير لسانها الناعم المُلَطِّف، ففي محاولاته المثابرة في اتجاه الضوء اكتشف أنفها القادر على النعر الحادّ، بغرض الزجر والتأنيب، وفي ما بعد تعرَّف على كفّها الذي كثيرًا ما أخضعه أو دحرجه بخبطات رشيقة حذرة. عرف الجرو من أفعال أم أن ثمَّة ألمًا في الحياة، وفوق ذلك، تعلّم كيف يتجنّب ذلك الألم، أولًا بعدم المجازفة بفعل ما يجلب ذلك الشعور، وثانيًا باللجوء إلى المراوغة والتراجع عما يقوم به. كان ذلك كلّه نتيجة تجارب وغرائز موجودة فيه راحت تنمو تحت عين أمه. أما قبل ذلك فقد كان يجفل بشكل تلقائيٍّ بعيدًا عما يسبب الألم، كما كان يزحف بشكل تلقائي في اتجاه الضوء. ثم بعد ذلك صار يبتعد عما يسبب الألم، لأنه بدأ يدرك معناه.

كان ذلك الجرو الصغير شرسًا، وكذلك كان إخوته وأخواته، ولا غرابة في ذلك، فهو حيوان من اللواحم، ينحدر من سلالة من صائدي اللحوم، وآكليها، تغذّى والداه على اللّحم فقط، وحتى اللبن الذي رضعه في أيامه الأولى المرتبكة كان أيضًا يتحول مباشرة من اللحوم. والآن، وقد بلغ عمره شهرًا كاملًا، ولم يفتح عينيه إلا منذ أسبوع فقط، فقد بدأ بالفعل في أكل اللحم، فهو يتغذّى على اللحم نصف المهضوم الذي تتناوله الأم ثم تستعيده بالاجترار لكي تطعمه لصغارها الخمسة الذين أثقلوا جسدها وأثدائها بطلب اللبن.

لا شك أن الجرو الرمادي كان أكثر إخوته شراسة، فهو القادر على إصدار زمجرة أعلى صوتًا وأكثر خشونة من أيٍّ منها، ونوبات غضبه الصغيرة أكثر عنفًا من نوباتها. وهو أيضًا أوّل من تعلّم ممازحتها بدحرجة أحدها بدفعة ماهرة من قائمته، وأوّل من قبض على أحد إخوته من أذنه،

ثم مضى يشدّه ويسحبه ويدمدم من خلال فكّيه المطبقين بإحكام. وبطبيعة الحال، كان هو من بين إخوته الذي سبّب للأم أقصى العناء في محاولة إبعاده عن مدخل العرين.

تزايد افتتان الجرو الرمادي بالضوء يومًا بعد يوم، فهو باستمرار يحاول التقدّم في مغامرة تبلغ ياردة واحدة في اتجاه مدخل الكهف، وعلى الدوام يُحمَل إلى الداخل. حقيقة الأمر هي أنه لم يدرك أنه مدخل، فهو لا يعرف شيئًا عن المداخل بصفتها ممرات ينتقل عن طريقها الإنسان من مكان إلى مكان، فهو لم يعرف أيَّ مكان آخر، فضلًا عن كيفية الانتقال إليه. المدخل إذًا كان بالنسبة له جدارًا، مثل الجدران الأخرى، غير أنّه جدار من الضوء، ومثلما كانت الشمس لمن يعيشون في الخارج، كان ذلك الجدار بالنسبة له. وصار ذلك الضوء يجذبه كما تنجذب فراشة إلى ضوء شمعة، ولا تكفّ عن المجاهدة للوصول إليه. إن طاقة الحياة التي تسري بسرعة داخله تحثّه باستمرار على التوجّه ناحية الضوء، فهي في ما يبدو تدرك أن هذا هو الطريق الوحيد إلى الخارج. إنه الطريق الذي قُدِّر له أن ينطلق فيه، على حين لم يعرف هو أي شيء عن ذلك، بل لم يكن يعلم أن ثمة شيئًا في الخارج على الإطلاق.

لاحظ الجرو الرمادي شيئًا غريبًا يخصّ ذلك الجدار من الضوء. لقد تعرّف على والده بصفته الساكن الآخر الوحيد في العالم، وهو مخلوق يشبه أمّه، وينام بالقرب من جدار الضوء، وهو الذي يُحضِرُ اللحم لإطعامهم، ولكن كيف له أن يسير عبر الجدار الأبيض البعيد، ثم يختفي! ورغم أنه لم يُسمح أبدًا للجرو الرمادي بأن يقترب من ذلك الجدار، فقد اقترب من الحوائط الأخرى، اقترب إلى الحدِّ الذي جعله يصطدم بموانع قاسية، أدّت إلى إصابات مؤلمة على طرف أنفه الرقيق. وبعد عدة مغامرات من ذلك النوع، ترك الحوائط بسلام، ومن دون أن يفكّر في الأمر، تَقبّل اختفاء أبيه داخل الحائط معتبرًا أن هذا أمرٌ يختصّ بأبيه، كما أن اللبن واللحم نصف المهضوم يختصّان بأمه.

لم يكن الجرو الرمادي في حقيقة الأمر معتادًا على التفكير، على الأقل نوع التفكير الذي يمارسه البشر، فعقله يعمل بطريقة مبهمة، إلا أن استنتاجاته تميّزت بالدقّة والتحديد، مثل تلك التي قد يتوصّل إليها البشر. كان أسلوبه هو أن يتقبّل الأشياء من دون أن يتساءل: لماذا حدثت؟ ولأي هدف؟ فهذا التصنيف هو نوع من أنشطة العقل التي لا يمارسها. هو لم يزعج نفسه قطّ بمعرفة لماذا حدث شيء ما، بل يكفيه أن يعرف كيف حدث ذلك الشيء؛ لذلك عندما اصطدمت أنفه عدّة مرّات بالجدار الخلفي للعرين، تقبّل حقيقة أنه لن يختفي في الجدران أبدًا، كما تقبّل أن والده يمكنه أن يفعل ذلك، غير أنه لم ينشغل على الإطلاق بمعرفة سبب الاختلاف بينهما. ولا شك أن علوم المنطق والفيزياء لم تكن جزءًا من تكوينه العقلي.

خاض الجرو الرمادي مبكرًا تجربة المجاعة، كما خاضتها معظم الكائنات في البراري. لم يتوقّف الأمر عند ندرة اللحم، وإنما أيضًا لأن أثداء الأم لم تعد قادرةً على إدرار المزيد من اللبن. أخذت الجراء تئن وتصرخ في البداية، ثم بدأت تستسلم للنوم، ولم يمضِ وقت طويل حتى تحوّل النوم إلى غيبوبة جوع. لقد توقّفت المناوشات والمشاجرات، ولم يعد هناك نوبات غضب ولا محاولات للزمجرة، وتوقّفت تمامًا مغامرات التقدّم إلى الحائط الأبيض البعيد. لقد نام الصغار، على حين اختلجت طاقة الحياة بداخلها وراحت تخبو بالتدريج.

بدأ الذئب العجوز يفقد الأمل، فقد أخذ يوسّع دائرة البحث عن الطعام، ويحاول استكشاف مناطق بعيدة، من دون جدوى، وصار لا ينام سوى أوقات قليلة في العرين الذي صار بائسًا خاليًا من البهجة، حتى الذئبة الأم بدأت تترك صغارها وتخرج للبحث عن الطعام. قام الذئب الأب بعدة رحلات إلى مخيم السكان الأصليين، حيث اعتاد أن يستولي على الأرانب التي صادتها فخاخهم، لكنه وجد سكّان المخيّم قد غادروا

المكان مع ذوبان الجليد، وسريان الماء في الجداول، وهكذا انسدّ أمامه ذلك المصدر للطعام.

عندما استيقظ الجرو الرمادي من غيبوبته، وعاد إليه اهتمامه بالجدار الأبيض البعيد، وجد أن سكان عالمه قد قلّ عددهم، إذ لم يبقَ لديه سوى أخت واحدة، على حين رحل الآخرون. وقد بدأ جسمه يستعيد قوّته بالتدريج، غير أنه وجد نفسه مضطرًّا إلى اللعب وحده، إذ لم تعُد أخته ترفع رأسها، أو تتجوّل في المكان. وقد أخذ جسمه يمتلئ ويستدير من تأثير الطعام الذي عاد إلى الظهور، أما هي فيبدو أن اللحم قد جاءها متأخِّرًا، فهي الآن نائمة على الدوام، مجرّد هيكلٍ عظميٍّ صغيرٍ مطروحٍ أرضًا ومحاطٍ بكساء من الجلد الذي أخذت شُعلة الحياة تخبو فيه، وتتضاءل حتى انطفأت تمامًا.

ثم جاء الوقت الذي لم يعد الجرو الرمادي يرى فيه أباه يظهر ويختفي في الحائط، أو يتمدّد نائمًا في مدخل العرين. لقد حدث ذلك في نهاية مجاعة أخرى، أقل حدّة من سابقتها، وقد عرفت الذئبة الأم لماذا لم يعُد الذئب الأب أبدًا، غير أنه لم يكن ثمة وسيلة تُمكّنها من إخبار الجرو الرمادي بما رأته. نعم، لقد خرجت بنفسها تبحث عن صيد، واتّخذت فرع الجدول الذي على اليسار، حيث تعيش أنثى الوَشَق، وسارت ليوم كامل في الطريق الذي اتّخذه الذئب الأب، وهناك في آخر ذلك الطريق وجدته، بل وجدت ما بقي منه. كانت ثمة علامات تدلّ على المعركة التي خاضها الاثنان، وعلى دخول أنثى الوَشَق إلى عرينها بعد أن انتصرت على الذئب. وقد عثرت الذئبة الأم على ذلك العرين قبل أن تغادر المكان، غير أنها لم تجرؤ على المجازفة بالدخول، إذ كان ثمّة ما يدلّ على وجود أنثى الوَشَق بالداخل.

وفي الأيام التالية، تجنّبت الذئبة الأم في رحلات صيدها ذلك الفرع من الجدول، فهي تدرك أن عرين أنثى الوشق يضمّ بعض صغارها، وهي

تعرف عنها أنها كائن عنيف سيئ المزاج، وهي مقاتلة شرسة. صحيح أن نصف دزّينة من الذئاب يمكنها أن تدفع الوشق إلى الهروب إلى أعالي الأشجار، وقد انتفش فراؤها، وهي ترغي وتزبد من الغضب، لكنه شيء مختلف تمامًا أن تحاول ذئبة أن تواجه وشقًا بمفردها، خصوصًا إذا كان الوشق أنثى وراءها بعض الصغار الجوعى.

البراري هي البراري على كل حال، والأمّ هي الأمّ، فهي في الأوقات كلّها تدافع عن صغارها بشراسة، سواء داخل البراري أو خارجها. وسوف يجيء الوقت الذي ستُضطرّ فيه الذئبة، من أجل صغيرها الرمادي، إلى المجازفة بالسير في الفرع الأيسر من الجدول، والذهاب إلى العرين الذي بين الصخور، ومواجهة غضب أنثى الوشق.

4

جدار العالم

عندما بدأت الذئبة الأمّ تغادر الكهف في رحلات صيد كان الجرو الرمادي قد تعلّم جيدًا القانون الذي يمنع اقترابه من المدخل، ليس فقط لأن هذا القانون فرضته الأم، وأكّدت عليه باستخدام أنفها وكفِّها، ولكن أيضًا لأن غريزة الخوف بدأت تنمو بداخله. لم يحدث قط في حياته القصيرة داخل الكهف أن واجه شيئًا يخاف منه، ورغم ذلك كان الخوف بداخله. لقد انحدر إليه من أسلافه الغارقين في البعد، عبر آلاف الآلاف من الحيوات. نعم، كان ذلك إرثًا تلقّاه مباشرة من أبويه، على حين تلقياه هما من ناحيتهما عبر كل أجيال الذئاب التي سبقتهما. الخوف هو ميراث البراري الذي لا يستطيع حيوان أن يهرب منه أو يحصل بدلًا منه على حساء اللحم!

إذًا، عرف الجرو الرمادي الخوف، رغم أنه لم يدرك من أي مادة صُنِع ذلك الخوف، لعلّه قبله باعتباره واحدًا من قيود الحياة، فقد تعلّم بالفعل أن الحياة تفرض مثل هذه القيود. لقد جرّب الجوع على سبيل المثال، ولما أخفق في تخفيفه أدرك أنه قيد يكبّله. كذلك عرف العقبة القوية التي يمثّلها حائط الكهف، والنعرات الحادّة التي تلقاها من أنف أمّه، والضربات القاسية التي تلقاها من كفّها، وتجارب الجوع المتكرّرة التي عاشها عبر عدّة مجاعات، كلّها تجارب أكّدت له أن الحياة ليست كلّها حرّية، بل هي ملأى بالعقبات والقيود، التي تمثّل قوانين الحياة.

وطاعة تلك القوانين هي الوسيلة الوحيدة لتجنّب الألم وتحقيق شيء من السعادة.

هو بالطبع لم يفكّر في الأمر كما قد يفكّر فيه البشر، وإنما فقط قام بتقسيم الحياة من حوله إلى أشياء تسبّب الألم وأخرى لا تفعل ذلك، ثم أخذ يتجنّب تلك الأشياء التي تؤلم، أي القيود والعقبات، من أجل أن يحظى بمكافآت الحياة ويستمتع بما يرضيه.

وهكذا، فإن طاعته للقانون الذي وضعته أمه، وطاعته لقانون ذلك الشيء المجهول الذي بلا اسم - الخوف - جعلته يستقرّ بعيدًا عن مدخل الكهف، الذي ظل بالنسبة له جدارًا أبيض مصنوعًا من الضوء. كان يقضي معظم وقته نائمًا، عند غياب أمّه عن الكهف، أما الأوقات المتقطّعة التي يقضيها مستيقظًا، فهو يحرص أشدّ الحرص على الهدوء، ويكبت النشيج الذي يعتمل في حلقه، ويسعى للخروج بصوتٍ مسموعٍ.

وذات مرّة، بينما الجرو الرمادي يرقد مستيقظًا بالداخل، إذا به يسمع صوتًا غريبًا في الجدار الأبيض. لم يدرك في ذلك الحين أن ثمة حيوان ولـڤرين - الذي يشبه الدب - يقف في الخارج، وقد اضطرم جسمه بالجرأة، وهو يتشمّم محتويات الكهف بحذر. لم يعرف الجرو الرمادي سوى أن الأنف التي تشمّ بالخارج غريبة مجهولة بالنسبة له، ومخيفة، فالمجهول بالنسبة له هو المركّب الرئيسي للخوف.

انتصب الوبر على ظهر الجرو الرمادي، ولكنه لم يُصدر أي صوت. كيف كان له أن يعلم أن ذلك الكائن الذي يتشمّم بالخارج يجب أن يثير خوفه؟ لم يكن ذلك مستندًا إلى أي معرفة لديه، ومع هذا كان هو التعبير العملي عن الخوف الذي بداخله، والذي لم يسبق له أن اختبره من قبل. وصحبت الخوف غريزة أخرى، هي حب البقاء. هكذا غرق الجرو في نوبة رعب، ورقد من دون حركة أو صوت، متجمّدًا، متسمّرًا، حتى

إن العيون لتظنّه ميّتًا. وعندما عادت الأم إلى الكهف، زمجرت عندما شمت آثار حيوان ولفرين، ثم اندفعت إلى الداخل حيث أخذت تلعق وجهه وتتشمّمه وقد فاضت مشاعرها من دون توقّع منه، حتى إن الجرو الرمادي أحسّ أنه بطريقة ما قد نجا من ضرر كبير.

وكانت ثمة قوى أخرى تعتمل في داخل الجرو الرمادي، لعل أعظمها هو طاقة النمو. وإذا كانت غريزة البقاء وقانون الحياة قد تطلّبا منه الطاعة، فإن تطلّعه إلى النمو كان يتطلّب منه عكس ذلك تمامًا، أي التمرّد. لقد دفعته أمّه، كما دفعه الخوف إلى البعد عن الجدار الأبيض، أما النمو الذي هو جوهر حياته، فهو من دون شك يسعى إلى الضوء، لذلك لم يكن من سبيل للوقوف أمام مدّ الحياة الذي بدأ يفيض بداخله، يفيض مع كل مضغة لحم يلتهمها، وكل شهيق يدخل صدره. وفي نهاية الأمر، اكتسحت طاقة النمو، ذات يوم، الخوف والطاعة، وأسرع الجرو الرمادي بخطى واسعة حثيثة في اتجاه مدخل الكهف.

وجد الجرو الرمادي ذلك الجدار مختلفًا عن أي جدار آخر سبق له معرفته، فهو يتراجع بعيدًا كلما اقترب منه، ولم يكن ثمّة سطح صلب يصطدم به أنفه الصغير الرقيق، الذي شرعه أمامه تحسّبًا. المادّة التي صُنع منها الجدار بدت مرنة قابلة للنفاذ خلالها، مثلها مثل الضوء، وبناءً عليه فقد اخترق ذلك الجدار سابحًا في المادة التي تكوّنه.

كان ذلك مربكًا. ها هو ذا يحثّ الخطى عبر مادة كثيفة متماسكة، وها هو الضوء يزداد سطوعًا، الخوف يحثّه على التراجع، لكن تطلّعه إلى النمو يدفعه إلى الأمام. وفجأة وجد الجرو نفسه عند مدخل الكهف، أما الجدار الذي كان يظنّ نفسه بداخله، فقد تراجع بالشكل المفاجئ نفسه إلى مسافة لا يمكنه قياسها. الآن صار الضوء ساطعًا بشكل مؤلم، فأعشى عينيه، وكذلك شعر بشيء من الدوار بسبب ذلك الامتداد الشاسع المفاجئ للكون أمامه. ثم بدأت عيناه، بشكل تلقائي، تتكيّفان مع الضوء

الشديد، ويزداد تركيزهما لكي تتمكّنا من الإلمام بالمحيط الواسع من الأشياء حولهما. بدا، للوهلة الأولى، وكأن الجدار قد انزاح إلى ما وراء مدى الرؤية لديه، لكنه عاد الآن يراه من جديد، وإن صار غايةً في البعد. وقد تغيّر مظهره أيضًا، فهو الآن جدار يضم أشكالًا متعدّدة: الأشجار التي تقع على حافّة جدول الماء، ثم الجبل المقابل الذي يعلو الأشجار، ثم السماء التي تعلو الجبل.

وداهم الجرو خوفٌ شديدٌ، إذ زاد المجهول المخيف على الحد المقبول، فربض على الحافّة الناتئة للكهف، وأمعن النظر في العالم الخارجي، والخوف لا يزال يلفّه. بدا العالم المجهول عدائيًا في مواجهته، لذلك انتصب الشعر واقفًا على امتداد ظهره، وتجعّدت شفتاه في وهن محاولًا إصدار زمجرة شرسة مرعبة، يتحدّى بها العالم ويهدّده، رغم ضعفه وخوفه.

لم يحدث أي شيء. انشغل الجرو بالتحديق بعينيه حتى نسي أن يزمجر، ثم نسي خوفه الذي توارى مهزومًا من قوى النمو، التي تقدّمت متخفية وراء ستار من الفضول. وأخذ الجرو يلاحظ الأشياء القريبة منه: جزءًا مكشوفًا من جدول الماء يلمع تحت الشمس، شجرة الصنوبر الذابلة المستقرة عند قاعدة المنحدر، والمنحدر نفسه الذي يمتد من بعيد ثم يتوقّف تحت تلك الحافة الناتئة التي يربض عليها بنحو قدمين.

لقد عاش الجرو الرمادي أيامه كلّها حتى هذه اللحظة على أرض مستوية، ولم يُجرِّب قط ألم السقوط من أعلى، بل لم يعرف ما هو السقوط. وهكذا، خطا إلى الأمام، في الهواء، وقائمتاه الخلفيتان مستقرتان على الحافّة الناتئة، وإذا بجسمه يسقط ورأسه إلى أسفل، فتصطدّم أنفه بالأرض بقوّة جعلته ينتحب، ثم أخذ جسمه بعد ذلك في التدحرج إلى أسفل المنحدر وهو غارق في نوبة من الذعر. ها هو ذا المجهول قد تمكّن منه أخيرًا، بل قبض عليه بشراسة، وكاد يُنزل به ألمًا

رهيبًا، وإذا بالخوف يعود ويتغلّب على الرغبة في النمو، ويجعله يأخذ في النحيب بصوتٍ ينضح بالخوف.

نعم، ها هو المجهول يحمله إلى ألم مخيف غير متوقّع، على حين ينتحب هو ويصرخ من دون انقطاع. كم كان ذلك وضعًا مختلفًا عن جثومه متجمِّدًا من الخوف على حين يتربّص به المجهول متخفِّيًا من حوله. المجهول الآن ممسك بخناقه، على حين لم يعد الهدوء مجديًا، ولم يعد الخوف فقط هو الذي يزلزله الآن بل الرعب.

وفجأة، لاحظ الجرو أن المنحدر قد أصبح أقلّ انحدارًا، وأن قاعدته مغطاة بالعشب، وبدأ عندئذٍ يفقد قوة اندفاعه بالتدريج، إلى أن توقّف أخيرًا، حينئذٍ صدر عنه صوت نباح يشي بالألم، وبعض الأنين المتفجّع. ثم بدأ الجرو - بشكل تلقائي - وكأنّه أمر سبق له أن فعله آلاف المرّات، في استخدام لسانه في نفض الطين الجاف الذي علق بجسمه.

جلس الجرو، وأخذ يمعن النظر في ما حوله، ولعلّه لم يختلف كثيرًا عن الإنسان الذي يريد وضع قدمه على كوكب المريخ لأول مرة! لقد اقتحم الجرو الرماديّ جدار العالم، وأفلت من قبضة المجهول، وهو الآن في أمان، لكن إحساسه بالغرابة يفوق إحساس ذلك الرجل الأول على كوكب المريخ. وها هو ذا من دون أي معرفة سابقة، ومن دون أي إنذار، يجد نفسه يكتشف عالمًا جديدًا تمامًا.

الآن، وقد تخطّى الجرو الخوف من المجهول، بل نسي أن المجهول كان يسبّب له الرعب، غمره الفضول لمعرفة كل تلك الأشياء المحيطة به. لقد شرع يفحص الأعشاب التي يجلس عليها، ونبات التوت الواقع وراءه، والجذع اليابس لشجرة الصنوبر الذابلة التي تقف على حافّة المساحة المفتوحة بين الأشجار. وظهر سنجاب أخذ يجري حول قاعدة الجذع اليابس، ثم فجأة قفز في مواجهة الجرو فأخافه وجعله ينكمش

على نفسه ويزمجر. أما السنجاب فقد غمره الخوف هو الآخر، فجرى مسرعًا إلى أعلى الشجرة، وعندما بلغ نقطة آمنة بدأ يثرثر من أعلى بشيء من الشراسة.

وقد أحيا ذلك في ما يبدو شجاعة الجرو الرمادي. فهو عندما فوجئ بعد ذلك بطائر نقّار الخشب، مضى في طريقه بثقة، وظل على ثقته عندما فوجئ بطائر القِيْق الرمادي يقفز فوقه بجرأة، فمدّ كفّه إلى أعلى ملاعبًا، وكانت النتيجة أن تلقّى نقرة حادّة على طرف أنفه، فانكمش متراجعًا وهو يغمغم في تذمّر، ويبدو أن صوت تذمّره كان مزعجًا لطائر القِيْق الذي ذهب ليبحث عن الأمان في الفضاء البعيد.

الجرو الرمادي كان على أي حال يتعلّم. لقد قام عقله الصغير بعمل بعض التقسيمات الضبابية من دون أن يعيها، فهناك أشياء حيّة، وأخرى ليس فيها الحياة، ثم إن عليه أن يراقب الأشياء الحيّة، فالأشياء غير الحيّة تظلّ دائمًا في المكان نفسه، أما تلك التي تتمتّع بالحياة فهي تتحرّك، ولا يمكن التنبؤ بحركتها، وعليه أن يكون دائمًا مستعدًا لها.

وانطلق الجرو في سيره بأسلوب أخرق بعض الشيء، فهو يصطدم بالأغصان وأفرع الأشجار، فقد يرى غصنًا يظنّه بعيدًا عنه، فإذا به في اللحظة التالية يرتطم بأنفه أو يخدش أضلاعه. ولم يكن سطح الأرض مستويًا، فإذا خطا على منطقة مرتفعة احتك أنفه بالأشجار، وإذا خطا على أرض منخفضة تعثّرت قدماه بما على سطح الأرض. ثم كان ثمة حصًى وأحجارٌ، تتطاير من تحت أقدامه وهو يسير، فتعلّم أنّه ليست كل الأشياء التي تنقصها الحياة على القدر نفسه من الثبات والتوازن اللذين يتميّز بهما العرين الذي يعيش فيه، وأن القطع الصغيرة التي تفتقد الحياة هي عرضة للسقوط عليه من أعلى أو القفز في وجهه من أسفل، أكثر من القطع ذات الحجم الكبير. على كل حال، كان الجرو الرمادي يتعلّم من كل مشكلة تقابله، وكلّما مشى أكثر مشى أفضل، وازداد تكيّفه مع ما حوله. وقد أخذ

يتعلّم كيف يحصي حركات عضلاته، ليعرف حدود إمكاناته الجسمانية، وكيف يقيس المسافات بين الأشياء، وبين الأشياء وبينه.

حظي الجرو بحظ المبتدئين الحسن، فقد جاء إلى الدنيا ليصطاد الحيوانات والطيور ويأكل لحمها، وإن لم يدرك ذلك بعد، وإذا به في تلك اللحظة يتعثّر في الصيد بجوار الكهف، في أول مغامرة له في العالم الخارجي، إذ وقع بالصدفة على عش طائر ترمجان مُخبّأ بمهارة. كان الجرو يحاول السير على جذع شجرة صنوبر ممدّدة على الأرض، فإذا باللحاء العطن يتهاوى تحت أقدامه، ويجد نفسه يتأرجح ويحطم بعض أوراق الأشجار وسيقان النباتات تحته وهو يغوص إلى أسفل حتى اصطدم بالأرض، حيث وجد حوله سبعة من صغار طائر الترمجان.

كان ثمة ضوضاء تصدر عن الصغار، وقد خاف منها في البداية، ثم أدرك أنها بالغة الصغر، فزادت جرأته عليها. وعندما تحرّكت وضع كفه على أحدها، فتزايدت سرعته، وكان ذلك مصدرًا لمتعته، فتشمّمه، ثم رفعه من على الأرض إلى فمه. حاول الصغير المقاومة، وأخذ يدغدغه في لسانه. في اللحظة ذاتها بدأ الجرو يستوعب الإحساس بالجوع، وانطبق فكّاه معًا، فإذا به يسمع صوت قرقشة عظام رقيقة، ويتذوّق طعام دماء دافئة تجري في فمه. كان الطعم جيّدًا. نعم، إنه لحم طعمه يشبه ذلك الذي اعتادت أمه على إحضاره له، لكنّه الآن حيّ بين أسنانه. وهكذا أكل طائر الترمجان الصغير، ولم يتوقّف حتى التهم الصغار جميعًا، ثم لعق شفتيه بلسانه مستمتعًا، كما اعتادت أمّه أن تفعل، وبدأ يزحف في طريقه إلى الخارج.

فوجئ الجرو بزوبعة من الريش تهب عليه، فارتبك واضطُر لإغلاق عينيه ليتّقي الريش المتطاير المصحوب بهجوم من أجنحة غاضبة، ثم أخفى رأسه بين كفيه وأخذ ينتحب. تزايدت ضربات أم صغار الترمجان الغاضبة، ثم سيطر الغضب عليه أيضًا فرفع رأسه وأخذ يزمجر ويضرب

الطائر بكفيه، وغاص بأسنانه الصغيرة في واحد من الجناحين، وجعل يجذب بإصرار وثبات. استمرت الترمجان الأمّ في مقاومته بضربات متتالية من جناحها الآخر المتحرّر، أما بالنسبة له، فكانت تلك معركته الأولى، وقد أبهجه ذلك، ونسي خوفه من المجهول، بل لم يعُد هناك ما يخيفه، وها هو الآن يقاتل، بل يحاول تمزيق كائن آخر يضجّ بالحياة، ويصلح طعامًا له أيضًا. لقد بدأت غريزة القتل تثور بداخله، وها هو ذا في طريقه لقتل الطائر الكبير بعد أن التهم الصغار. لقد انشغل بالقتال، وكان سعيدًا به إلى الحدِّ الذي جعله غير قادر على استيعاب سعادته تلك. وبدا الأمر مثيرًا ومبهجًا بطريقة جديدة عليه، وإلى حدٍّ من العمق لم يبلغه من قبل.

تشبّث الجرو الرمادي بجناح الطائر، على حين انطلقت زمجرته من بين أسنانه المنطبقة بعنف. كانت الترمجان الأمّ قد جرّته خارج العش أثناء صراعهما، ولما التفّت محاولة إرجاعه إلى حِمى العش مرة أخرى أخذ هو يشدّها إلى الخارج، وهي في تلك الأثناء كلّها تصدر صيحات متتالية وتضربه بجناحها، بينما الريش يتطاير كأنه ندف من الثلج. هو الآن في أوج انفعاله، وكأنما كل دماء فصيلته المتعطّشة للقتل تصطخب في داخله وتفور في طريقها إلى الخارج. كان هذا هو معنى الحياة بالنسبة له، وإن لم يدرك ذلك بعدُ. نعم، كان جوهر حياته يتحقّق في تلك اللحظة، فهو الآن يصنع الشيء الذي خُلق من أجله، وهو مهاجمة الحيوانات وافتراسها. إنه الآن يبرر وجوده، وهو ما لا يمكن للحياة أن تحقّق أعظم منه، فحياة كل كائن تصل إلى أقصى تَحَقُّق لها عندما يحقّق ذلك الكائن أقصى ما تتيح له إمكاناته القيام به.

وبعد قليل من الوقت، بدأت أنثى الترمجان تقلّل من عنف هجومها عليه، في حين ظلّ هو مُتشبثًا بجناحها، واستقر الاثنان على الأرض، وكل منهما يركّز بصره على الآخر.

شرع الجرو في الزمجرة مهدِّدًا بشراسة، بينما انطلقت هي تنقره في

أنفه مرة بعد مرة، فأصبح متورّمًا من كثرة ما تلقّى من ضربات. جفل الجرو، لكنه ظلّ متماسكًا، أما هي فظلّت تنقره. انتقل الجرو من الجفول إلى الأنين، ثم حاول التراجع إلى الداخل غير مدرك أنه بذلك يجذبها إليه من جناحها، فما كان منها إلا أن أمطرته بوابل آخر من النقرات على أنفه المسكين. عندئذٍ خبت بداخله الرغبة في القتال، فإذا به يُفلت فريسته ويُولّي هاربًا، فيخرج من المخبأ من الناحية الأخرى، وقد جلّلته الهزيمة.

رقد الجرو الرمادي طلبًا لبعض الراحة، على حافة العش من الجانب الآخر، وقد تدلّى لسانه، وأخذ صدره يرتفع وينخفض لاهثًا، بينما لا يزال أنفه يؤلمه ويزيد من أنينه. وبينما هو على تلك الحال، إذ داخله فجأة شعور أن شيئًا ما سيحدث، فتذكّر خوفه من المجهول المرعب، وتراجع محتميًا بالعش المُتخفّي مرة أخرى. عندئذٍ، فوجئ بتيار هوائي يهبّ عليه، وكائن كبير ذي أجنحة ظهر ثم اختفى بسرعة وكأنما كنّس المكان بجناحيه في حركة سريعة، صامتة، مُنذرة بالشؤم. إنه صقر انقض من أعلى على حين غرة، وكاد يمسك به.

رقد الجرو في المخبأ، يحاول تمالك نفسه بعد ذلك الرعب الذي كان، ويتلصّص بعينيه إلى الخارج، حيث رأى أنثى الترمجان، وهي ترفرف في الهواء، بقرب الحافة الأخرى للمخبأ المُخرَّب. يبدو أنها في غمرة حزنها وغضبها لخسارتها، لم تلحظ الصاعقة المُجنحة الهابطة عليها من السماء. أما الجرو، فقد رأى ما هو تحذير له، ودروس لا تُنسى: الانقضاض الناعم للصقر من السماء، والانزلاق السريع لجسده من تلك المسافة الشديدة القرب من الأرض، وانغراز مخالبه في جسم الطائر، ثم صراخ الطائر المفعم بالخوف واللوعة، وأخيرًا اندفاع الصقر إلى أعلى من حيث أتى، حاملًا الطائر معه.

استغرق الجرو وقتًا طويلًا قبل أن يترك مخبأه. لقد تعلّم كثيرًا، تعلّم أن المخلوقات الحيّة هي لحم لذيذ يؤكل، لكنها إذا كانت كبيرة الحجم،

فقد تكون قادرة على الإيذاء. إذًا من الأفضل أن يأكل الكائنات الحيّة الصغيرة، مثل صغار الترمجان، ويبتعد عن الكبار منها. ورغم ذلك، شعر برغبة كأنها وخزة داخلية، تجعله يطمح في معركة أخرى مع تلك الترمجان، لولا أن ذلك الصقر الكبير قد حملها إلى بعيد. هل يا تُرى ثمة طيور ترمجان أخرى في المنطقة؟ فليذهب ويرى.

ذهب الجرو إلى ضفة متدرّجة لجدول الماء، ولم يكن قد سبق له أن رأى الماء في الجداول من قبل، وبدا له السطح مستويًا وموضع القدم لا غبار عليه. خطا الجرو ببساطة إلى الأمام، فإذا به يسقط في حضن المجهول، فاندفع يصرخ خائفًا. كان الماء باردًا، فأخذ يتنفّس بسرعة إلى درجة اللهاث، واندفع الماء إلى رئتيه بدلًا من الهواء الذي اعتاد عليه في فعل التنفّس من قبل. كان الاختناق الذي اختبره لأول مرة يُمَثِّل تحذيرًا من الموت. صحيح أنه ليست له أي خبرة سابقة واعية بالموت، لكنه مثل حيوانات البراري كلها، لديه ما تُسمى بغريزة الخوف من الموت. الموت بالنسبة له هو أقصى الأضرار، وهو الجوهر العميق لمفهوم المجهول، وخلاصة المخاوف المتعلّقة به، وهو ذروة المصائب التي لا يمكنه تصورها، والتي يمكن أن تحط عليه. تلك المصائب التي لا يعرف عنها شيئًا، والتي يخاف كل شيء له أي علاقة بها.

لقد طفا الآن على سطح الماء، واندفع الهواء النقي بهدوء إلى داخل فمه المفتوح، ولم يغُص مرة أخرى. ثم أخذ يدفع الماء بقوائمه ويسبح بهدوء، وكأن السباحة عادة قديمة طالت ممارسته لها. كانت الضفة القريبة على بعد نحو ياردة واحدة، لكنه خرج من الماء موليًا ظهره لها، على حين استقرّ بصره على الضفة الأخرى، التي بدأ يسبح مُتَّجهًا إليها. كان جدول الماء صغيرًا، لكنه اتّسع ليصل إلى عدة أقدام في المنطقة العميقة البعيدة.

في منتصف الطريق فوجئ الجرو بالماء يمسك به ويشده إلى أسفل،

وذلك بسبب وجود تيارات نهرية سريعة في الماء[1]. عندئذٍ، لم تعد السباحة ممكنة بعد أن تحوّل الماء الهادئ إلى الغضب فجأة، فهو على سطح الماء في لحظة ما، ثم ينقلب في القاع في اللحظة التالية، وفي كل الأحوال هو في حركة عنيفة، يتقلّب لأعلى وأسفل، ويصطدم بالصخور، ومع كلّ اصطدام يتألم وينتحب من جديد، حتى يمكن استنتاج عدد الصخور التي اصطدم بها بعدد المرّات التي انطلق فيها نحيبه.

بعد عبور تلك المنطقة، كان ثمة منطقة أخرى عميقة، حملته فيها دوامة هادئة في اتجاه الضفة، ثم أسلمته بلطف إلى حافة مغطّاة بالحصى، زحف منها إلى خارج الماء مُنفعلًا، ورقد على الأرض. لقد تعلم توًّا أشياء أكثر عن العالم. إن الماء ليس حيًّا، غير أنه يتحرّك، ورغم أنه يبدو متماسكًا مثل الأرض، فهو ليس متماسكًا على الإطلاق. وقد استنتج الجرو من ذلك كلّه أن حقيقة الأشياء ليست دائمًا كما تبدو. إن خوفه من المجهول ينبع من إحساس متوارث بعدم الثقة، وقد تعمّق الآن استنادًا إلى الخبرة. إذًا، يجب عليه منذ تلك اللحظة، أن يلتزم بعدم الثقة بمظهر الأشياء، وأن يعمل على إدراك حقيقتها قبل أن يضع ثقته فيها.

لا تزال هناك مغامرة أخرى مُقَدّر له أن يخوضها في ذلك اليوم. لقد تذكّر الآن أن ثمة كائنًا في هذا العالم يشعر أنه يريده أكثر من أي شيء آخر في الحياة، هذا الكائن هو أمّه. ليس جسده فقط الذي استبدّ به التعب بعد المغامرات التي خاضها في ذلك اليوم، وإنما صار عقله الصغير أيضًا مُتْعَبًا بالقدر نفسه، ففي الأيام التي عاشها كلّها لم يُرهق بالعمل مثلما أُرهق في هذا اليوم وحده. ثم إنه بدأ يشعر بالرغبة في النوم. وهكذا شرع في البحث عن الكهف وعن أمّه، وقد غمرته مشاعر الوحدة والعجز.

سمع الجرو فجأة صيحة حادّة تثير الرعب بينما كان مستلقيًا على

---

(1) rapids

الأرض بين الأجمات الصغيرة المتناثرة. ثم رأى لمحة من لون أصفر أمام عينيه، كان ذلك حيوان ابن عرس يثب بخفّة مُبتعدًا عنه، ولأنه كان صغير الحجم، لم يشعر الجرو بأي خوف منه. ثم رأى أمامه، في مكان شديد القرب من قائمته، ابن عرس آخر بالغ الصِغَر، إذ لا يتعدّى طوله بضع بوصات، يبدو أنه فعل مثلما فعل الجرو وخرج يكتشف العالم وحده، من دون إشراف الكبار. حاول ابن عرس الصغير التراجع أمام الجرو، الذي مدّ كفه وقَلَبَه على ظهره، فصدر عن الصغير صوت حاد مخيف. وفجأة، عادت اللمحة الصفراء تظهر أمام عينيه، ثم سمع الصرخة الحادّة للمرة الثانية، وتلقّى في اللحظة نفسها لطمة قوية على جانب عنقه، وأحسّ بالأسنان الحادّة لأم ابن عرس تنغرز في لحمه.

جعل الجرو ينتحب ويئن، وقد تقهقر إلى الوراء، وفي تلك الأثناء، رأى ابن عرس الأمّ تَثِب وتمسك بصغيرها ثم تختفي معه في إحدى الشجيرات الملتفة المجاورة. كان جرح أسنانها في عنقه لا يزال يؤلمه، لكن جرح مشاعره كان أشدّ إيلامًا، فانتحى جانبًا وأخذ يئن بصوت واهن. تلك الأم كانت صغيرة للغاية وشرسة للغاية أيضًا! لم يتعلّم الجروُ بعد أن حيوان ابن عرس رغم حجمه الصغير ووزنه الضئيل يُعد الأكثر توحّشًا وشراسة ورغبة في الانتقام، بالمقارنة بالحيوانات المفترسة في البراري. على كلّ حال، كان مُقَدّرًا للجرو أن يحصل على بعض تلك المعرفة في المستقبل القريب.

ظهرت ابن عرس الأم مرة أخرى، بينما كان الجرو لا يزال يئنّ. لم تكن في عجلة من أمرها الآن بعد أن صار صغيرها في مكان آمن. لقد اقتربت من الجرو في حذر، على حين لاحظ هو جسمها اللين الذي يشبه جسم الحية، ورأسها المنتصب المتيقظ، الذي يشبه رأس الحيّة أيضًا. ثم جاءت صرختها حادّة متوعّدة جعلت وبر ظهره ينتفش، وزمجر محاولًا تهديدها. أما هي فقد أخذت تقترب وتقترب، ثم كان ثمّة وثبة سريعة،

أسرع من عينيه غير المدرّبتين، واختفى الجسم الليّن الأصفر اللّون للحظة خارج مجال رؤيته ثم إذا بها في اللحظة التالية تنقضّ على عنقه، وتغرز أسنانها في جلده ولحمه.

بدأ الجرو الرمادي يزمجر، وحاول أن يقاتل، غير أنه كان صغيرًا، فليس ذلك سوى يومه الأول في العالم الخارجي، فإذا بالزمجرة تتحوّل إلى أنين، والقتال يتحوّل إلى مجاهدة للفرار. أما أنثى ابن عرس، فلم تخفِّف قبضتها عنه، بل ظلّت متشبّثة بعنقه، وهي تجاهد للضغط بأسنانها أكثر وأكثر لكي تصل إلى الوريد الكبير في عنقه، حيث تيار الدم يمور بالحياة. إن حيوان ابن عرس مغرم بشرب الدماء، وهو يفضل أن يمتص الدماء من تلك الفوهة التي تضطرم فيها الحياة.

كان من الممكن أن يموت الجرو الرمادي في تلك اللحظة، ولا يكون ثمة ما نرويه عن حياته، لولا أن جاءت الذئبة الأم مسرعة من بين الشجيرات الملتفة. أفلتت أنثى ابن عرس الجرو الرمادي، وانطلقت كومضة مفاجئة مستهدفة عنق الذئبة الأم، فأخطأته، غير أنها تعلّقت بفكّها. عندئذٍ، قذفت الذئبة برأسها كأنما تضرب بسوط، فأفلتت قبضة ابن عرس وقذفت بها عاليًا في الهواء، ثم تلقّت الجسم اللين من الهواء بين فكّيها، حيث لقيت ابن عرس حتفها بين الأسنان الطاحنة للذئبة.

تلقّى الجرو مشاعر غامرة من ناحية أمّه، حتى لقد بدت فرحتها بالعثور عليه أعظم من فرحته. لقد مسّدت أنفه وربّتت على جسمه، ولعقت جراحه التي سبّبتها أسنان ابن عرس. بعد ذلك التهم الاثنان جسم شاربة الدماء، ثم عادا إلى كهفهما واستغرقا في النوم.

5

قانون اللحم

استعاد الجرو الرمادي صحّته بشكل سريع، فقد استراح ليومين ثم خرج من الكهف بحثًا عن مزيد من المغامرات. التقى في بداية المغامرة بصغار ابن عرس الذي شارك في التهام أمّها في اليوم السابق، فما كان منه إلا أن فعل بها مثلما فعل بالأمّ. وفي هذه الرحلة لم يضلّ الجرو طريقه، وعندما استبد به التعب وجد طريقه إلى الكهف بسهولة، ثم استغرق في النوم. وفي كل واحد من الأيام التالية، شقّ طريقه إلى مغامرة جديدة، ونجح في ارتياد مناطق أوسع.

لقد بدأ يعرف مقياسًا دقيقًا لقوّته وضعفه، ومتى يمكنه أن يكون شجاعًا، ومتى عليه أن يلتزم بالحذر. وبدا له مناسبًا أن يكون حذرًا طوال الوقت، فيما عدا اللحظات النادرة، التي يكون واثقًا فيها من جرأته، فيطلق العنان لنوبات الغضب الصغيرة، والرغبات التافهة.

هو دائمًا شيطان غاضب عندما يصادفه طائر ترمجان تائه، ولم يحدث أبدًا أن أخفق في أن يستجيب بشراسة لثرثرة السنجاب الذي التقى به للمرة الأولى على شجرة الصنوبر الذابلة. أما مشهد طائر القِيْق[1]، فهو غالبًا ما يجعله في حالة من الحَنَق الشديد، إذ لم ينسَ أبدًا النقرات الحادّة التي تلقاها على أنفه من أول طائر التقى به من ذلك النوع.

---

(1) moosebird

وكانت ثمة أوقات لا يتأثّر فيها حتى بطائر القِيْق هذا، وهي تلك الأوقات التي يشعر فيها بأنه مهدّد من بعض آكلي اللحم الذي لا يكفّون عن التجوّل في المكان، فهو لم ينسَ قط الصقر الذي رآه من قبل، ودائمًا يُخيفه ظلّه الذي يحوم في الفضاء فيجثم تحت أقرب أجمة. كذلك لم يعُد يتمدّد على الأرض على جانبه، أو يباعد ما بين قائمتيه الأماميتين والخلفيتين أثناء المشي، بل أخذ يُقلّد المشية الذئبية التي تقوم بها الأم، وهي تتميّز بالتخفّي والانسيابية، ويبدو أنها لا تحتاج إلى كثير من الجهد، وتتّصف بالانزلاق بسرعة تجعل حركتها خادعة بل من الصعب إدراكها.

أما بالنسبة للصيد فقد توقّف حظّه الحسن بعد البدايات، ولم يتجاوز صيده صغار الترمجان السبعة وصغار ابن عرس، رغم ازدياد رغبته في القتل مع مرور الأيام. كما كان يطمح إلى إشباع جوعه بالتهام السنجاب الذي كان يثرثر بطلاقة كبيرة، معلنًا لكل المخلوقات في البراري أن الجرو الرمادي الصغير يقترب. عندئذٍ، تَفِرّ الطيور في الهواء، وتتسلّق السناجب جذوع الأشجار، فلا يبق للجرو سوى أن يحاول الزحف متسلّلًا لعلّه ينجح في الإمساك به وهو على الأرض قبل أن يتسلّق جذع شجرة.

امتلأت نفس الجرو بالاحترام لأمّه، فهي التي تستطيع أن تحضر له الطعام، وهي لم تخفُق قطّ في توفير ما يكفيه. وهي بالإضافة إلى ذلك، لا تعرف الخوف، ولم يخطر ببال الصغير أن عدم الخوف كان مُستندًا على الخبرة والمعرفة. أما تأثيره عليه فتمثّل في إعطائه انطباعًا عميقًا بالقوة. نعم، كانت أمّه رمزًا للقوة، وكلما تقدّم به العمر شعر بقوّتها في تنبيهاتها التي تنتقل عبر كفّها، وتزداد حدّتها يومًا بعد يوم، أما نعرات التوبيخ التي اعتاد أن يقوم بها أنفها فقد استبدلت بها، أسلوبًا آخر في التوجيه هو عضّات أنيابها. لذلك كلّه، شعر بالاحترام لأمّه الذئبة، ومن ناحيتها قد أجبرته على طاعتها، وكلما ازداد عمره، قلّ صبرها وزادت سرعة غضبها.

وحلت المجاعة بهم مرة ثانية، وعرف الجرو الرمادي عضة الجوع

مرة أخرى، وإن ازداد وعيه بها هذه المرة. وأجهدت الذئبة الأمّ نفسها إلى أقصى حدٍّ بحثًا عن اللحم، فلم تعد تنام في الكهف إلا نادرًا، وتنطلق معظم الوقت في محاولة لتوفير الطعام، لكن من دون جدوى. ورغم أن المجاعة لم تستمر طويلًا هذه المرة، فقد كانت أكثر قسوة، إذ لم يعد الجرو يجد لبنًا في أثداء أمّه، كما لم يعد يحصل على أي لحم يقتات به.

اعتاد الجرو في ما سبق أن يخرج للصيد من أجل المتعة أو التسلية، أما الآن فهو يفعل ذلك بجدية وحرص شديدين، وإن لم يحقّق أي نتيجة. ذلك الفشل كان مفيدًا من ناحية أخرى، فقد عجّل في وصوله إلى مرحلة النضج. لقد درس عادات السنجاب بحرص أكبر، وبذل جهدًا أعمق في محاولة التلصّص للوصول إليه ومفاجأته. كذلك استقصى أحوال الفئران وأخذ يحاول إخراجها من جحورها، وأيضًا تعرّف على كثير من عادات طيور القِيق ونقّار الخشب. وقد جاء اليوم الذي لم يعد يخيفه ظلّ الصقر في السماء، فهو لا يجري ليختبئ تحت أي أجمة كما اعتاد أن يفعل من قبل. هو الآن أقوى وأكثر حكمة، وأيضًا أكثر ثقة في نفسه. لكن كان قد غلبه اليأس، لذا صار يجلس على قائمتيه الخلفيتين، في البراح الواسع، من دون أي تخفٍ، متحدّيًا الصقر أن ينزل من عليائه. نعم، كان الجرو يعلم أن ثمة لحمًا تشتهيه نفسه يطير في السماء، غير أن الصقر رفض أن ينزل ويواجه غريمه، فلم يُمكن للجرو أن يفعل شيئًا سوى أن يزحف مبتعدًا تحت أجمة قريبة ويئن من الجوع وخيبة الأمل.

انتهت المجاعة، ونجحت الذئبة في إحضار بعض الطعام إلى الكهف. بدا اللحم غريبًا، ومختلفًا عن أي صيد آخر سبق أن أتت به. كان ذلك هو لحم صغار حيوان الوَشَق، وقد كَبرت بعض الشيء، مثل الجرو الرمادي، لكنها لا تزال أصغر منه حجمًا. وقد منحته أمّه اللحم كلّه، فقد أسكتت هي جوعها في مكان آخر. لم يدرِ الصغير أنها اتّخذت من بقية مجموعة الصغار غذاءً لها، ولم يدرك ما انطوى عليه ذلك التصرّف من تهوّر. لم

يعلم سوى أن تلك القُطيطات الصغيرة المخملية الملمس كانت لحمًا طيبًا، أخذ يأكل منه، ويمسح شدقيه بينما يتزايد استمتاعه، بعد كل قضمة.

أسلمته معدته الممتلئة إلى الخمول، فتمدّد الجرو في الكهف راقدًا بجوار أمه، وإذا بصوت زمجرتها يدفعه إلى الوقوف. لم يسمعها قط تصدر مثل تلك الزمجرة، ولعلّها في حياتها كلّها لم يسبق لها أن زمجرت بشكل أكثر ترويعًا. كان لذلك سبب بكل تأكيد، سبب لم يعرفه أحد بأعمق مما عرفته هي. حقًّا، لا يُمكن لعرين الوشق أن يتعرّض للاعتداء، من دون عقاب مناسب؛ وهكذا في وهج ضوء الظهيرة، رأى الجرو الرمادي أنثى الوشق جاثمة في مدخل الكهف، فانتصب الشعر على امتداد ظهره من هول المنظر. يا له من مشهد مرعب، ولم يتطلّب منه الأمر الاستعانة بغريزته ليعرف ذلك. وإذا لم يكن المشهد كافيًا ليثير خوفه، فإن صيحة الغضب التي أطلقها الحيوان المُهاجم، والتي بدأت كأنها زمجرة ثم تحوّلت إلى صرخة مرعبة، كانت كافية في ذاتها للإقناع.

أحس الجرو بطاقة الحياة تنبعث في داخله، فوقف بجوار أمّه وشرع في الزمجرة بجرأة، لكنها دفعته بقسوة مهينة فانقذف خلفها. لم تستطع أنثى الوشق أن تقتحم العرين بسبب انخفاض سقف المدخل، وعندما حاولت الدخول زاحفة، وثبت الذئبة الأم وأوقفتها حيث هي، ثم بدأت المعركة التي لم يرَ الجرو منها سوى القليل. كان ثمة زمجرة رهيبة وصراخٌ عالٍ وبصاق كثير، وقد أخذ الحيوانان يتقلّبان ملتحمين، أنثى الوشق تنهش وتُقطّع بكفيها وأسنانها أيضًا، على حين تستخدم الذئبة الأم أسنانها فقط.

في لحظة، اندفع الجرو الرمادي وغرز أسنانه في القائمة الخلفية لأنثى الوشق، وراح يزمجر بشراسة وهو متعلّق بها. ورغم أنه لم يدرك ذلك، فقد عرقل وزن جسمه حركة القوائم، وأنقذ أمّه من ضرر كبير. ثم حدث تغيّر ما في المعركة أدى بجسمه إلى الارتطام بشدّة تحت جسميهما، وانفكاك

أسنانه عن أنثى الوشق. في اللحظة التالية انفصلت المتعاركتان، وقبل أن تلتحما مرة أخرى، تلقّى الجرو ضربة قاسية من أنثى الوشق بكفّها الأمامي الضخم فأصابه إصابة قاسية في كتفه، وأرسله ليصطدم بالحائط. عندئذٍ، أُضيف إلى زمجرة الجرو عواؤه الحاد بسبب الألم والخوف. وطالت المعركة بحيث كان للجرو فرصة ليبكي كما يشاء، ثم تنبثق من داخله نوبة أخرى من الشجاعة. وفي نهاية المعركة، تعلّق مرة أخرى بالساق الخلفية لأنثى الوشق وأخذ يطلق زمجرة شرسة من بين أسنانه.

انتهت المعركة بموت أنثى الوشق، أما الذئبة الأم فقد خرجت من المعركة مريضة وفي غاية الضعف. في البداية ربّتت على الجرو، وأخذت تلعق كتفه المصابة، لكنّ الدماء التي فقدتها استنفدت قواها، حتى إنها ظلّت راقدة بجوار جثة غريمتها ليوم وليلة، لا تكاد تتنفّس، ومن دون أي حركة. ثم بقيت الذئبة الأم لمدة أسبوع كامل في الكهف، لا تفارقه سوى للحصول على الماء، فإذا خرجت كانت حركتها بطيئة تنضح بالألم، وبانتهاء ذلك الأسبوع كانت أنثى الوشق قد التُهمت تمامًا، على حين التأمت جراح الذئبة الأم، إلى الدرجة التي سمحت لها بالخروج مرة أخرى بحثًا عن الطعام.

كانت كتف الجرو الرمادي يابسة متقرّحة، وظل يعرج لبعض الوقت بسبب ارتطامه القوي بجدار الكهف، غير أن تغيرًا كبيرًا طرأ على عالمه، فهو الآن يشق طريقه في الحياة بثقة أكبر، وبجرأة لم يعرفها في الأيام التي سبقت المعركة مع أنثى الوشق. إنه ينظر إلى الحياة بمنطق أكثر شراسة؛ لقد قاتل، وغرز أسنانه في لحم عدوه، وانتصر عليه. ونتيجة لذلك كلّه، هو يواجه الحياة بشجاعة أكبر ولم يعد يتردّد بالقدر الذي كان في الماضي، ومع ذلك لم يتوقّف المجهول أبدًا عن الضغط على أعصابه بما ينطوي عليه من أشياء غامضة ومخاوف، لا يستطيع إدراكها بوضوح، رغم أنه لا يشك في ترصدها به.

وبدأ الجرو الرمادي يصحب أمّه في جولات الصيد، حيث رأى الكثير من القتل، وبدأ يشارك في ممارسته. وقد أدرك قانون اللحم بإمكانات عقله البسيطة: ثمة نوعان من الحياة، نوع ينتمي هو إليه، ونوع آخر. النوع الأول يضمه هو وأمه، أما الثاني فهو يضم كلّ الأشياء الأخرى التي تتحرّك. وهو ينقسم من ناحية أخرى إلى قسمين، الأول يحتوي في داخله كل ما يمكن للنوع الأول - الذي يضمّه وأمّه - أن يصطاده ويأكله، ومنها مخلوقات لا يمكنها أن تقتل، وأخرى يمكنها إلا أنها صغيرة. أما القسم الثاني، فهو قادر على قتل النوع الذي ينتمي إليه الجرو، وعلى التهامه أيضًا، والعكس صحيح، أي إنه قد يتعرّض للقتل والالتهام من طرف الجرو وأمه. وبناءً على هذا التقسيم، يتّضح القانون. إن هدف الحياة هو الحصول على اللحم، بل إن الحياة نفسها هي لحم، هي حياة تقتات على حياة أخرى. هناك آكلون ومأكولون، والقانون هو: فلتأكل أو تُؤكل. لم يَصُغ الجرو القانون بهذا الوضوح، ولم يضع بنوده، أو يبرر وجوده. هو في حقيقة الأمر لم يفكّر فيه، بل فقط عاش القانون من دون أن يفكّر فيه على الإطلاق.

لقد رأى هذا القانون ساريًا في الحياة حوله من كل جانب. لقد أكل هو صغار طائر الترمجان، على حين التهم الصقر الترمجان الأم، وكان على وشك أن يأكله هو، ثم في وقت لاحق، عندما صار هو أكبر حجمًا، تمنّى أن يأكل الصقر. كذلك سبق له أن أكل صغار حيوان الوشق، وكادت أنثى الوشق تلتهمه لولا أنها قُتلت والتُهمت، وهكذا تسير الأمور. نعم، يسري القانون على كل الكائنات الحيّة من حوله. وهو نفسه جزء من القانون، فهو من آكلي اللحم، بل إن طعامه الوحيد هو اللحم، لحم حيّ يفر من أمامه مسرعًا، أو يتسلّق الأشجار، أو يختفي داخل الأرض، أو يواجهه مقاتلًا، أو يقلب المائدة ويطارده.

لو كان الجرو الرمادي يفكّر مثلما يفكر الإنسان، فلعله كان يُلخّص

الحياة باعتبارها في جوهرها رغبة نهمة، وما العالم إلا براح تتعدّد فيه الرغبات والدوافع وتتصارع: تطارد أو تتعرّض للمطاردة، تصطاد أو تُصطاد، تأكل أو تُؤكل، ذلك كله يحدث بشكل عشوائيّ غامض، ويتّسم بالعنف وافتقاد النظام. إنه فوضى أبدية من الشراهة والمجازر، غارق في التخبط، تحكمه الصدفة، وتغيب عنه الرحمة.

طبعًا لم يفكّر الجرو مثلما يفكّر الإنسان، فهو لا يرى الأشياء من منظور شامل، بل من زاوية ضيّقة لتحقيق هدف محدّد، وهو لا يستطيع أن ينشغل بأكثر من فكرة أو رغبة واحدة في الوقت نفسه. وبالإضافة إلى قانون اللحم هذا، كان ثمة قوانين أخرى أكثر بساطة عليه أن يتعلّمها ويلتزم بها، فيا له من عالم يبعث على الدهشة. التوق الى الحياة الذي يملأ نفسه، وقدرة عضلاته على الحركة، كانت من الأشياء التي تمنحه سعادة لا تنتهي. مطاردة الصيد كانت تجربة تملأه بالبهجة والانتشاء. حتى نوبات غضبه ومعاركه لم تكن تخلو من متع، بل إن الرعب نفسه وغموض المجهول قد أضافا كثيرًا إلى حياته.

وعرفت أيامه أيضًا أشياء تنعش حياته وتبعث على الراحة، منها على سبيل المثال أن تمتلئ معدته بالطعام، وأن يغفو كسولًا في ضوء الشمس. حقًّا، كانت مثل هذه الأشياء هي أحسن جزاء له على كدحه وحماسته، على حين أن ذلك الكدح وتلك الحماسة كانا في جوهرهما جزاءً حسنًا، فهما من مظاهر تجلّي الحياة، التي تكون دائمًا سعيدة عندما تعبّر عن نفسها. الجرو الرمادي إذًا لم يكن في صدام مع البيئة العدوانية التي يعيش فيها، بل صار في منتهى الحيوية، والسعادة، كما كان شديد الفخر بنفسه.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثالث

آلهة البراري

1

صانعو النار

حدث ذلك للجرو الرمادي بشكل مفاجئ، وكان خطأه أنه تصرّف بتهوّر. لقد غادر الكهف وركض في اتجاه جدول الماء ليشرب. لعله لم يلاحظ وجودهم لأنه كان لا يزال مثقلًا بالرغبة في النوم، فقد قضى الليلة السابقة كلّها في البحث عن الطعام، ولم يستيقظ من نومه إلا الآن. ولعل تهوّره يرجع إلى اعتياده على المشي في ذلك الطريق إلى جدول الماء، الذي طالما سار فيه، ولم يحدث له شيء من قبل.

لقد مرَّ بشجرة الصنوبر الذابلة، ثم مرّ عبر المنطقة الخالية، وبعد ذلك هرول في ما بين الأشجار. ثم رأت عيناه وشمّ أنفه في الوقت نفسه. كان هناك خمسة كائنات حيّة لم يرَ مثلها من قبل تجلس على أعجازها، وهي أول نظرة يلقيها على بني الإنسان. أما الرجال الخمسة، فلم ينبعثوا واقفين عند رؤيته، ولم يكشِّروا عن أسنانهم، ولا زمجروا. لم يتحرّكوا على الإطلاق، وإنما ظلّوا جالسين هناك، في صمت يدعو للرّيبة.

الجرو الرمادي أيضًا لم يتحرّك. كل غريزة في داخله كانت لَتَحُثّه على الفرار بعيدًا، لولا أن انبعثت في داخله فجأة، وللمرة الأولى غريزة أخرى مضادة. لقد نزلت على نفسه رهبة لم يعرفها من قبل، ووجد نفسه مجبرًا على التوقّف عن الحركة وقد غمره إحساس بضعفه وضآلته. هو الآن في مواجهة السيادة والقوة، وهي أشياء تتجاوز إدراكه.

لم يسبق للجرو أن رأى بشرًا من قبل، ورغم ذلك كانت لديه الغريزة

التي تخصّ الإنسان. لقد تعرّف في نفسه، بطريقة غامضة، على الحيوان الذي حارب حتى وصل إلى المكانة التي هو عليها بين الحيوانات الأخرى في البراري. كان الجرو في تلك اللحظة ينظر إلى الإنسان، ليس من خلال عينيه هو فقط، بل أيضًا من خلال عيون أسلافه جميعًا. وهي عيون دارت في الظلام حول نار المخيّمات في الشتاء لعدد لا يُحصى من المرّات، وتلصّصت من مسافات آمنة، ومن أعماق الشجيرات الملتفّة، على الحيوان الغريب ذي القائمتين الذي تسَيَّد على الكائنات الحيّة كلّها. إن تراث الجرو له في ما يبدو تأثير سحري وقد بدأ في السيطرة عليه؛ الخوف والاحترام اللذان تولّدا من قرون من الكفاح ومن الخبرة المتراكمة للأجيال، هما تراث ضاغط مسيطر على ذئب لم يكن في حقيقة الأمر سوى جروٍ صغيرٍ. لو كان ذئبًا كامل النمو وعرف التجارب، لفرّ هاربًا. أما والحال ليس كذلك، فقد جثم على الأرض يشلّه الخوف، فبدا وكأنه يقدّم بالفعل ما سبق لسلالته أن قدّمت من خضوع في الماضي، منذ المرة الأولى التي جاء فيها ذئب ليجلس بجوار النار التي يشعلها الإنسان، ويحصل على الدفء.

وقف واحد من البشر الجالسين، وهم من السكان الأصليين من الهنود، ثم تقدّم إلى حيث يقف الجرو، وانحنى فوقه. ازداد التصاق الجرو بالأرض، فها هو المجهول يتمثّل أخيرًا في لحم ودم، ينحني فوقه ويمد يده للإمساك به. لقد انتصب وبر رأس الجرو تلقائيًا، وانسحبت شفتاه إلى الخلف، فانكشفت أنيابه البيضاء. وبسط الرجل كفّه في الهواء كأنها قدر لا مفرّ منه، فوق الجرو، وبعد شيء من التردّد قال بلهجته المحلّية، وهو يضحك:

- «انظروا إلى أنيابه البيضاء».

ضحك الآخرون بصوت عالٍ، وشجعوا زميلهم الواقف بجوار الجرو على حمله، وبينما أخذت يد الرجل تقترب وتقترب، بدأت معركة

في داخل الجرو بين غريزتين، فهو الآن يشعر بدافعين يتصارعان في داخله: الخضوع والمقاومة. وكان رد فعله شيئًا من التوفيق بين الاثنين: لقد خضع حين لمسته اليد، ثم بدأ يقاتل، فانغرزت أسنانه في تلك اليد. وفي التو واللحظة، تلقى الجرو الرمادي ضربة على رأسه ألقت به على جانبه، فتلاشت كل رغبة له في القتال، على حين أسلم نفسه لمشاعره الطفولية وغريزة الخضوع، فإذا به يجلس على عَجُزه ويشرع في الأنين. أما الرجل الذي تعرّضت يده للعضّ، فقد سيطر عليه الغضب لذا تلقى منه الجرو لطمة أخرى على الجانب الآخر من رأسه، عندئذٍ، أخذ أنينه يعلو ويعلو، لكنه بقيجالسًا.

ضحك الرجال الأربعة بصوت صاخب، وشاركهم في ذلك الرجل المصاب، ثم أحاطوا بالجرو وهم يضحكون منه، بينما استمر هو في النحيب مُعبِّرًا عن خوفه وألمه. سمع الجرو في تلك الاثناء، صوتًا، سمعه الرجال أيضًا، لكن الجرو عرف صاحبة الصوت، فأصدر نحيبًا طويلًا، فيه من الانتصار أكثر مما فيه من الحزن، ثم توقّف عن إصدار أي صوت، وأخذ ينتظر حضور أمّه. نعم، أمّه الشرسة التي لا تُهزم، التي حاربت كل الكائنات، ولم تعرف الخوف. وها هي ذي قادمة، تجري وقد سبقتها زمجرتها، فقد سمعت صيحة صغيرها، وهي الآن في طريقها لإنقاذه.

وثبت الذئبة الأمّ إلى وسط دائرة الرجال، وقد بدت بأمومتها الملتاعة المتحفِّزة في صورة أبعد ما تكون عن أن توصف بالجمال، غير أن منظر غضبها، الذي يَعِد الجرو بالحماية، أبهجه، فأصدر صيحة سعيدة قصيرة ثم انطلق ليلتقي بها. أما الرجال فقد تراجعوا لعدة خطوات على عجل. وقفت الذئبة الأم بجوار صغيرها، في مواجهة الرجال، وقد انتصب شعر جسمها، وبدأت زمجرة عالية تدمدم متصاعدة من حلقها. أما وجهها فقد بدا قبيحًا منذرًا بالشرِّ، بما ارتسم عليه من تهديد ووعيد، حتى إن قصبة

أنفها أخذت ترتعش من طرفها البعيد حتى عينيها، ثم انبعثت زمجرتها الهائلة.

وإذا أحد الرجال يصيح بنبرة غارقة في التعجّب والمفاجأة:

- «كيتش!».

أحسّ الجرو عندئذٍ بأن أمّه أخذت تتضاءل بعد سماعها لتلك الكلمة.

ثم صاح الرجل، بحدة مُسيطرة هذه المرة:

«كيتش».

عندئذٍ فوجئ الجرو برؤية أمّه، التي لا تعرف الخوف، تجثم على الأرض حتى تكاد بطنها تلمس الأرض، وهي تئن وتهز ذيلها، وتقوم بحركات أخرى تدلّ كلّها على المسالمة. لم يستطع الجرو أن يفهم، فاستبد به الهلع، وعاد تهيّبه من الإنسان يسيطر عليه مرة أخرى. إن إحساسه الغريزي كان مُحقًّا، وها هي أمه تؤكّد ذلك، فهي أيضًا تظهر الخضوع لذلك الكائن البشري.

تحرّك الرجل صاحب الصيحة، واقترب منها، ثم وضع يده على رأسها، فلم تفعل شيئًا سوى أن ازدادت اقترابًا من الأرض. لم تعضّ أحدًا، ولم تهدّد بمهاجمة أحد. وجاء الرجال الآخرون، فأحاطوا بها، وتحسَّسوا جسمها بأياديهم ومقدّمات أقدامهم، من دون أي اعتراض منها على هذه التصرّفات. كان الرجال في غاية الانفعال، وقد أصدروا ضجة كبيرة انطلقت من أفواههم، لكنها لم تدلّ على شيء خطير، أو هكذا رأى الجرو، على حين كان يزداد التصاقًا بأمّه. ورغم أن وبر جسمه كان ينتصب من حين لآخر، فقد كان الصغير يبذل أقصى جهده لإظهار خضوعه.

قال أحد الرجال ذوي الأصل الهندي:

- «ليس هذا غريبًا. كان أبوها ذئبًا، وكانت أمّها كلبة، ربطها أخي

لثلاثة ليالٍ في الأحراش في موسم التزاوج. وهكذا فإن والد كيتش من الذئاب».

وتكلّم رجل آخر، فقال:

- «لقد مرّت سنة منذ فرّت أيها «السمّور الرمادي».

فأجاب السمّور الرمادي قائلًا:

- «كان ذلك وقت المجاعة، ولم يكن ثمة لحم كافٍ للكلاب يا «لسان السلمون».

وقال رجل ثالث:

- «لقد عاشت مع الذئاب».

فأجاب السمّور الرمادي، وهو يبسط يده على الجرو:

- «يبدو الأمر كذلك بالفعل يا أيها «العُقاب الثلاثي»، وهذا هو الدليل».

زام الجرو بصوت خافت عندما أحس بلمسة تلك اليد، التي انسحبت فيما بدا للصغير استعدادًا للطمة أخرى. عندئذٍ، غطى الجرو أنيابه، وغاص مقتربًا من الأرض في خضوع، فعادت اليد تعرك بخفة ما وراء أذنيه، وتمسح على ظهره.

ومضى السمّور الرمادي يتكلّم فقال:

- «نعم، هذا هو الدليل. من الواضح أن أمه هي كيتش، أما أبوه فهو ذئب، لذلك فيه قليل من طباع الكلاب وكثير من طباع الذئاب. وبسبب أنيابه البيضاء هذه سوف أسميه ناب أبيض. وأقول لكم الآن إنه كلبي. ألم تكن كيتش كلبة أخي؟ أما وقد مات أخي، فقد صارت الكلبة ملكًا لي».

رقد الجرو، الذي صار له اسم في هذا العالم، وهو يراقب ما يحدث، أما الرجال فقد استمرّوا لبعض الوقت في إصدار لغط من أفواههم. وأخذ

السمّور الرمادي سكينًا من جراب معلّق حول رقبته، ثم مضى إلى أجمة قريبة وقطع منها فرعًا، بينما ناب أبيض لا يزال يرقبه وهو يقوم بصنع ثقبين في طرفي الفرع، ربط في كل منهما حبلًا من جلد الحيوانات الخام، وربط أحد طرفي الحبل في رقبة كيتش، ثم قادها إلى شجيرة صنوبر حيث ربط الطرف الآخر من الحبل.

سار ناب أبيض خلف أمّه ورقد بجانبها، عندئذٍ مد لسان السلمون يده، وقلب ناب أبيض على ظهره، على حين أخذت كيتش تنظر إليهما في شيء من التوتّر. بدأ ناب أبيض يشعر بالخوف يتصاعد بداخله مرة أخرى، فلم يستطع أن يكتم زمجرة خافتة، غير أنه لم يُبدِ أي نية للهجوم. أما اليد، فقد امتدت، بأصابع مُتقوّسة ومنفرجة عن بعضها بعضًا، تدلك بطنه في مداعبة مرحة، وهي تُقلّبه من ناحية لأخرى. بدا لناب أبيض أن منظره سخيف يدلّ على الحمق، وهو راقد هكذا على ظهره وقوائمه مرتفعة في الهواء، في وضع من العجز الكامل عن الدفاع عن نفسه لو حدث ما يستوجب ذلك، وهو شيء تأبى عليه طبيعته ان يرضى به. حقًا، لو هذا الرجل يريد به شرًّا، لما استطاع أن يهرب منه، وكيف يمكنه أن يحاول فعل ذلك بينما قوائمه الأربع مشرعة في الهواء فوقه؟ ورغم ذلك كلّه فإن ميله للاستسلام جعله يتحكّم في مخاوفه، فلم تصدر عنه إلا زمجرة خافتة لم يستطع كتمانها، ولم تُزعج الرجل إلى الحدِّ الذي يجعله يعاجله بضربة أخرى على رأسه. الأهم من ذلك كلّه، والأكثر غرابة، هو أن ناب أبيض بدأ يُجرّب شعورًا غريبًا بمتعة لا حدود لها بينما اليد تربّت على جسمه جيئة وذهابًا. وعندما قلّبته اليد على جانبه توقّف عن الزمجرة، وعندما أخذت تضغط على قاعدتي أذنيه، وتعركهما بلطف تزايد شعوره بالمتعة. وعندما قامت اليد بالتدليك مرّة أخيرة، قبل أن ينصرف صاحبها ويترك ناب أبيض وحده، فوجئ الأخير بأن كل الخوف الذي بداخله قد تلاشى. صحيح أن ناب أبيض سيُقَدّر له في ما بعد أن يعرف الخوف عدّة

مرات في علاقته بالإنسان، لكن هذه اللحظة كانت علامة على الصحبة الخالية من الخوف التي ستربط بينه وبين الإنسان في ما بعد.

بعد وقت قصير، سمع ناب أبيض أصوات ضجّة غريبة تقترب، وسرعان ما أدرك أنها أصوات آدمية. ووصل بقية أفراد القبيلة بعد عدّة دقائق، وقد تراصّوا على شكل صفٍّ طويلٍ، بنفس نظام سيرهم على الطريق. جاء مزيد من الرجال، وعديد من النساء والأطفال، وقد بلغ عددهم أربعين، كلّهم محملين بأحمال ثقيلة من معدّات المخيم ومستلزمات التخييم. كذلك جاء معهم عدد من الكلاب، كانت كلّها، ما عدا الجراء الصغيرة، مُثقلة ببعض المعدّات. حملت الكلاب على ظهورها ما بين عشرين إلى ثلاثين رطلًا، في حقائب مربوطة بإحكام حول بطونها.

لم يسبق لناب أبيض أن رأى كلابًا من قبل، غير أنه عندما رآها أدرك أنها تنتمي للنوع نفسه الذي ينتمي إليه، ولكنها مختلفة بطريقة ما. أما الكلاب، فلا تختلف كثيرًا عن الذئاب، فهي عندما اكتشفت وجود الجرو وأمّه؛ قامت بهجوم مفاجئ، فانتفش وبر ناب أبيض، وأخذ يزمجر ويستعدّ للعضّ في مواجهة الأفواه المفتوحة. ثم اندفع وسطها، أو بالأحرى بمحاذاة قوائمها ومن تحتها، فأحسّ بآثار أنيابها في جسمه، كما قام هو أيضًا بِعَضّ القوائم والبطون التي حوله. وتداخلت الأصوات مسبّبة جلبة عظيمة، وأمكنه أن يسمع زمجرة كيتش وهي تُقاتل من أجله، كما سمع صوت صيحات الرجال، وأصوات الهراوات وهي ترتطم بالأجسام، وعواء الألم الصادر عن الكلاب التي تلقّت الضربات.

وعاد ناب أبيض واقفًا على قوائمه من جديد بعد ثوانٍ قليلة، وتمكّن من رؤية الرجال وهم يصدّون هجوم الكلاب بالهراوات والأحجار، مدافعين عنه، بل أنقذوه من الأسنان الشرسة التي من المُفترض أنها تنتمي لفصيلته، ولكنها بطريقة ما ليست الفصيلة نفسها. ورغم أنه لم يمكن له

أن يستوعب بوضوح مفهومًا مطلقًا مثل «العدالة»، فقد استوعب بطريقته الخاصة، عدالة بني الإنسان، كما أمكنه أن يعرف حقيقتهم؛ هم واضعو القانون والقائمون على تنفيذه. أيضًا امتلأت نفس ناب أبيض بالتبجيل لقدرة الإنسان على فرض القانون. إن هؤلاء البشر مختلفون تمامًا عن أن أي حيوانات أخرى عرفها في البراري، فهم لا يعُضّون ولا يفرضون سيطرتهم بالمخالب، بل يستخدمون الأشياء التي تخلو من الحياة لفرض قوتهم، وتنفيذ تعليماتهم. على سبيل المثال، تطير العصيّ والحجارة، وقد ألقتها تلك المخلوقات الغريبة، فتنقضّ، كأنها كائنات حيّة، على الكلاب فتسبّب لها أقصى الألم.

كانت هذه القدرة - بحسب إدراكه - غير معتادة، وغير مفهومة، وتتجاوز المألوف، فهي تكاد تكون قدرة إلهيّة. صحيح أن ناب أبيض بطبيعته الأصليّة لا يستطيع على الإطلاق أن يعرف شيئًا عن الآلهة، فمعرفته على أحسن تقدير لا تتجاوز المعرفة بالأشياء، غير أن مشاعر العَجَب والهيبة التي ملأت نفسه تجاه البشر كانت بلا شك تشبه تلك المشاعر التي تتملّك الإنسان عند رؤيته لكائنٍ علويٍ، يجلس على قمة جبليّة، على حين تقذف كفّاه العالم بالصواعق التي تتلقاها المخلوقات بدهشة غامرة.

ها هي ذي الضجّة قد تلاشت، بعد أن دُفع آخر الكلاب بعيدًا. لعق ناب أبيض جراحه، وأخذ يفكّر في ما حدث. كانت هذه أول تجربة له في القسوة التي يمكن للقطيع أن يمارسها، بل هي أول معرفة له بمفهوم القطيع. لم يخطر بباله من قبل أنه ينتمي إلى مجموعة أخرى تتجاوزه هو وأمّه وأباه الوحيد العين. لقد ظل دائمًا يعتقد أن ثلاثتهم يُشكّلون جماعة منفصلة بذاتها، لكنه الآن يدرك بوضوح أن ثمة كائنات أخرى كثيرة تنتمي للجماعة نفسها. ولا شكّ أنه، على غير وعي منه، كان منزعجًا لأن هذه الكائنات التي تنتمي لجماعته، قرّرت مهاجمته بمجرد رؤيتها له للمرة

الأولى، وحاولت تحطيمه. وقد انزعج أيضًا عندما رأى أمّه مربوطة بذلك الفرع، رغم أن من قام بذلك هو الإنسان، ذلك الكائن الفائق القدرة. إنها إرهاصات فخ العبودية، وهو على كل حال لا يعرف شيئًا بعدُ عن الفخاخ، أو عن العبودية، فحرّية التجوّل والجري والرقاد كما يحلو له هي التراث الذي تلقّاه من أسلافه، وها هي ذي الحرية تُنتهك. إن حرّية أمّه في التحرّك قد اختُزلت فصارت لا تزيد على طول فرع شجرة، وواقع الحال هو أن حرّية ناب أبيض أيضًا لا تتعدى طول ذلك الفرع، فهو حتى هذه اللحظة لم يتجاوز احتياجه للبقاء بجوار أمّه.

لم يكن ناب أبيض راضيًا عما يحدث، وظل على استيائه عندما تحرّك الركب البشري في طريقه، وقد أخذ أحد أفراده، وكان صغير الحجم، الطرف الآخر من الفرع الذي رُبطت فيه كيتش، على حين سارت هي أسيرة خلفه، ووراءها سار ناب أبيض، وقد غمره الاضطراب والقلق بسبب تلك المغامرة التي هو مقدم عليها.

مضى الركب بمحاذاة الوادي المحيط بجدول الماء، واستمرّ أفراده في السير حتى وصلوا إلى أبعد كثيرًا مما اعتاد ناب أبيض الوصول إليه، وأخيرًا وصلوا إلى نهاية الوادي حيث يصبّ الجدول في نهر «ماكينزي». هناك، حيث كانت الزوارق الصغيرة مُمدّدة على صوارٍ مرتفعة عاليًا في الهواء والأسماك متراصّة على محفات خاصّة لكي تجف في الهواء، هناك نُصِب المخيّم. جعل ناب أبيض يتلفّت حوله بعينين مندهشتين، وقد أخذ وعيه يزداد عمقًا كل دقيقة بتفوّق هؤلاء البشر. لاحظ على سبيل المثال قدرتهم على التحكّم في تلك الكلاب ذات الأنياب الحادّة، والتي تنبئ عن سلطة قاهرة، كما لاحظ باندهاش أعظم قدرتهم على السيطرة على الأشياء التي لا تتحرّك بذاتها، حيث يستطيعون نقل الحركة إليها. إنهم - في عينيه - قادرون على تغيير وجه العالم.

وبالإضافة إلى ذلك كلّه، لفت نظره الأعمدة الخشبية التي ترتفع في

الهواء، ولم يكن ذلك في ذاته شيئًا مستغربًا، وقد أتى من الكائنات نفسها التي تقذف بفروع الأشجار والحجارة لمسافات بعيدة، لكنه اندهش حقًا عندما تحوّلت تلك الأعمدة إلى خيام مخروطية الشكل، وذلك بعد تغطيتها بقطع من الأقمشة والجلود. وتضاعفت دهشته عندما لاحظ العدد الضخم الذي أحاط به من تلك الخيام. لقد انبثقت حوله، من كل جانب، وكأنها كائنات متوحشة سريعة النمو، حتى كادت تملأ مجال رؤيته، وامتدت في الفضاء من حوله بشكل يدعو للتشاؤم. ولما أخذ الهواء يدفع تلك الخيام، حتى جعلها تضطّرم بحركات عنيفة، انكمش ناب أبيض في مكانه وقد استبدّ به الخوف، وتعلّقت عيناه بها يرقبها في حذر، حتى يكون مُستعدًّا للفرار إذا حاولت الانقضاض عليه.

تجاوز ناب أبيض خوفه بعد فترة قصيرة، إذ رأى النساء والأطفال يدخلون تلك الخيام ويخرجون منها من دون أن يصيبهم أي ضرر، كذلك رأى الكلاب تحاول أن تدخلها فتُقابل بالصراخ الحادّ وقطع الأحجار المتطايرة التي تدفعها للتراجع. ابتعد ناب أبيض عن كيتش قليلًا - بعد فترة قصيرة - وزحف بحذر في اتجاه جدار أقرب الخيام إليه، مدفوعًا بتطلّعه إلى النمو الذي يتطلّب التعلُّم والانغماس في الحياة وتجاربها التي تجلب الخبرة.

اتّسمت حركة ناب أبيض، في البوصات الأخيرة التي تفصله عن الخيمة، بمزيد من الحذر والبطء المؤلم، فقد أعدّته تجارب ذلك اليوم للمجهول الذي لا يكُفّ عن التجلّي بطرق مثيرة للدهشة وبعيدة كل البعد عن التوقّعات. وأخيرًا لمس أنفه القماش الخشن الذي صنعت منه الخيمة، وانتظر قليلًا فلم يحدث شيء. شمّت أنفه الرائحة البشرية التي تشبّع بها القماش، ثم ضمّ فكاه عليه وجذبه بخفة، فلم يحدث شيء، رغم أن الأجزاء الملاصقة له من الخيمة تحرّكت. جعل ناب أبيض يجذب بقوة مرّة بعد مرّة، ويشعر بالابتهاج لتحرّك الخيمة، إلى أن وجد الخيمة

كلّها تتحرّك. عندئذٍ، انبعثت صيحة حادّة من امرأة من داخل الخيمة، أرسلت به فارًّا إلى كيتش. بعد تلك الواقعة لم يعد ناب أبيض يخشى تلك الخيام المنتشرة بأعداد كبيرة من حوله.

بعد لحظات، انطلق ناب أبيض يتجوّل مرة أخرى بعيدًا عن أمّه، التي كانت مربوطة إلى وتد في الأرض ولا يُمكنها الانطلاق وراءه. وفجأة، وجد جروًا آخر يزيد عنه قليلًا في العُمر والحجم، يقترب منه ببطء، وقد بدت عليه الشراسة ولفّه إحساس بالأهمية والتعالي. اسم الجرو كما سيسمعهم ناب أبيض ينادونه به في ما بعد، هو ليـپ ليـپ، وهو صاحب خبرة في القتال مع الجراء، والحق أنه كان يميل إلى التنمّر بالآخرين.

كان ليـپ ليـپ ينتمي لفصيلة ناب أبيض نفسها، ولأنه كان مجرّد جرو فلم يرَ فيه ناب أبيض ما يوحي بالخطورة، لذلك استعدّ لملاقاته بروح ودودة. وفجأة، تيبّس القادم الجديد في مشيته، وكشّر عن أنيابه، فما كان من ناب أبيض إلّا أن فعل مثله، ثم دار كل منهما حول الآخر نحو نصف دائرة، وهما يزومان وقد انتفش وبرهما. استمر ذلك لبضع دقائق وقد بدأ ناب أبيض يستمتع بالأمر باعتباره لعبة، إلا أن ليـپ ليـپ وثب فجأة وبسرعة فانقضّ على ناب أبيض وعضّه، قبل أن يثب عائدًا بالسرعة نفسها. وقعت العضّة في الكتف، في الموضع نفسه الذي نهشته فيه أنثى الوشق من قبل، وكان لا يزال يعاني من الألم والتقرّح. ارتفع صوت نباح ناب أبيض بسبب الألم والمفاجأة، ثم وثب في اللحظة التالية، وقد أعماه الغضب، وانتابته رغبة في أن يعضّ في شراسة.

كان ليـپ ليـپ قد عاش حياته كلّها في المخيم، وسبق له أن اشترك في معارك مع جراء أخرى، لذا فقد توالت عضّاته مرات ومرات، تاركة آثارها على القادم الجديد، الذي فرّ من المواجهة، باحثًا عن حماية أمّه، وهو ينشج بلا حرج. كانت تلك هي المعركة الأولى، من عدة معارك سيخوضها ناب أبيض في مواجهة ليـپ ليـپ. لقد كانا في ما يبدو

عدوَين منذ البداية، إذ وُلِد كل منهما بشخصية مُقَدّر لها أن تصطدم دائمًا بشخصية الآخر.

أخذت كيتش تلعق ناب أبيض بلسانها لتُهَدِّئ نفسه، وحاولت التأثير عليه ليبقى بجوارها، إلا أن فضوله كان مسيطرًا، فما هي إلا دقائق قليلة، حتى انطلق في مغامرة جديدة تُشبع فضوله. لقد شرع في الاقتراب من واحد من بني البشر، وهو «السمّور الرمادي» الذي كان جالسًا على الأرض في وضع القرفصاء، بينما يقوم بعمل شيء ما باستخدام بعض أغصان الأشجار والطحالب الجافة المتناثرة أمامه على الأرض. اقترب ناب أبيض أكثر وأكثر، وأخذ يراقب السمّور الرمادي الذي تفوّه ببعض الكلمات التي بدت له غير عدائية، فازداد اقترابًا.

شرع الأطفال والنساء يحملون مزيدًا من الفروع والأغصان إلى السمّور الرمادي، فاتضح لناب أبيض أن الأمر مهمٌّ، وأخذ يقترب حتى لمس ركبة الرجل. ملأه الفضول، وقد نسي تمامًا إساءة الرجل إليه من قبل. وفجأة رأى شيئًا غريبًا يشبه الضباب يبدأ في التصاعد من الأغصان والطحالب الجافة الملقاة تحت يدي السمور الرمادي. ثم انبعث من بين الأغصان والطحالب شيء حيّ يتلوى ويتثنّى، لونه هو لون الشمس التي في السماء. لم يسبق لناب أبيض أن عرف شيئًا عن النار التي جذبته، كما جذبه الضوء في مدخل الكهف في أيامه الأولى، وهكذا تقدّم ببطء قاطعًا تلك الخطوات القليلة في اتجاه اللهب. لقد سمع السمور الرمادي يُغالب الضحك، وفهم أن ذلك الصوت لا يدلّ على لمحة عدائية، ثم لمس أنفه اللهب، وكذلك تدلّى لسانه الصغير ومس اللهب أيضًا.

أصاب الشلل ناب أبيض للحظة. ها هو المجهول ينسلّ من بين تلك الأغصان والطحالب الجافة، ويقبض على أنفه بشراسة. ثم انفجر في نوبة من الأنين الممزوج بالدهشة، بينما كان يتراجع متعثّرًا. سمعت كيتش صوته فوثبت مزمجرة، وهي تشد وثاقها إلى آخره حيث احتدت

وثار غضبها لعجزها عن الوصول إليه لمساعدته. أما السمّور الرمادي فقد أخذ يضحك بصوتٍ عالٍ ويضرب فخذيه بكفيه، ثم أخبر جميع من في المخيم بما حدث، حتى صار الجميع يضحكون صاخبين. أما ناب أبيض، فقد جلس على قائمتيه الخلفيتين، وهو يبكي ويئنّ. كلن مجرّد مخلوق بائس مثير للرثاء في وسط هذا الجمع من بني البشر.

بدت هذه أسوأ إهانة تعرّض لها. ذلك الشيء الحيّ، الذي انبثق من تحت يدي السمّور الرمادي، بلون يشبه لون الشمس، لسع أنفه ولسانه. ولقد صرخ وعوى من دون توقّف، وكل صرخة ألم تصدر عنه كانت تزيد من موجات الضحك من ناحية البشر. وحاول الجرو أن يُلَطِّف آلام أنفه باستخدام لسانه، لكنه كان مصابًا أيضًا، فصار الألم مضاعفًا، ولذا استمر في الصراخ وقد سيطر عليه الإحساس بالعجز واليأس أكثر من أي وقت مضى.

بدأ ناب أبيض يشعر بالحرج. هو يعرف الضحك، ويعرف ماذا يعني، ونحن لا نعلم حقًّا كيف أن بعض الحيوانات تعرف الضحك وتفهم كيف يكون في كثير من الأحيان بغرض السخرية. أدرك ناب أبيض بتلك الطريقة الغامضة أنهم يسخرون منه، وقد جعله ذلك يشعر بالهوان. عندئذٍ استدار وفرّ هاربًا، ليس من حرقة النار، لكن من الضحك والسخرية اللذين اخترقاه وغاصا في أعماقه، مسبّبين الألم لروحه. لقد فرّ إلى كيتش، التي كانت لا تزال تحاول التحرّر من وثاقها، وقد استبدّ بها الغضب كأنها جُنَّت. نعم، ذهب إلى كيتش، الكائن الوحيد الذي لا يسخر منه.

غاب ضوء النهار، وتقدّم ظلام الليل، وناب أبيض راقد بجوار أمّه. لا يزال الألم في أنفه ولسانه، لكن ما يشغله حقًّا هو مشكلة أخرى أكثر أهمية، هي حنينه إلى منزله الأول. إنَّ في داخله خواء كبير، واحتياج إلى السكون والسكينة بجوار جدول الماء، والكهف الذي يطلّ على المنحدر. أما الحياة في ذلك المخيم فهي شديدة الازدحام، وهناك

كثيرون من البشر، من الرجال والنساء والأطفال، وهم جميعًا يملأون المكان بالضجيج والحركة. وهناك أيضًا كلاب كثيرة، تكاد لا تكفّ عن التشاجر والمشاكسة، وتنفجر في موجات من الصخب الذي ينتج عنه كثير من الفوضى، والارتباك. لقد انقضت الوحدة التي تظلّلها السكينة التي لم يعرف سواها في حياته السابقة، أما هنا فحتى الهواء يضطرم بالحياة، وتتصاعد فيه الهمهمة والطنين بلا توقّف. إن التغيير المستمر في عمق تلك الأصوات، والتفاوت المفاجئ في حدّتها صارا يصطدمان بأعصابه وحواسه، ويدفعان به إلى التوتر وعدم الاستقرار، ويملآنه بالمخاوف وبالتوقّع الدائم للأحداث السيئة.

انشغل ناب أبيض بمراقبة البشر وهم يدخلون المخيم أو يخرجون منه، أو يتحرّكون في داخله. وجعل ينظر إليهم بطريقة تشبه بعض الشيء تلك التي اعتاد الإنسان أن ينظر بها إلى الآلهة التي من صُنعه. نعم، رآهم ناب أبيض بصفتهم كائنات متفوّقة، بل آلهة بحقّ. كانوا في إدراكه البسيط صانعي معجزات، كما الآلهة بالنسبة للبشر. إنهم كائنات فائقة البراعة، لديها القدرات كلّها، حتى المستحيل منها والمجهول، ولهم السيادة على الكائنات الأخرى، الحيّة وحتى على الجماد، على حد سواء، وهم قادرون على إلزام الكائنات المتحرّكة بطاعتهم، وتحريك تلك التي لا تستطيع الحركة. وهم - فوق ذلك كله - قادرون على جعل الحياة تنبعث من الطحالب والأخشاب الجافّة، حياة ذهبية كالشمس، ولاسعة مثلها. إنهم صانعو النار! إنهم الآلهة!

2

في الأَسر

ازدحمت أيام ناب أبيض بالتجارب والخبرات. وخلال الوقت الذي قضته كيتش عاقة في وثاقها المشدود، ظلّ يجري متجولًا في المخيم كلّه، مستطلعًا ومتسائلًا ومتعلمًا، وسرعان ما عرف كثيرًا من التفاصيل عن حياة البشر. ولم يؤدِ به التعوّد إلى الاستخفاف بهم، بل - على العكس - كلما ازدادت معرفته بهم، تعمقت في نفسه مبررات إيمانه بتفوقهم. وكلما أظهروا قدراتهم الغامضة، تجلّى له التشابه بينهم وبين الآلهة.

تعرّض البشر من قبل لمحنة سقوط الآلهة، وتحطّم معابدها، أما الذئاب وكلاب البراري التي ربضت تحت قدمي الإنسان، فلم يحدث لها شيء من هذا. وإذا كانت الآلهة التي يؤمن بها الإنسان لها طبيعة غير مرئية، تستلزم كثيرًا من التخمين، مجرد ضباب خيال ودخان يتملّصان من ثوب الحقيقة، وأطياف هائمة من الخير المرجوّ والسُلطة، وتداخل غير مرئي بين النفس والروح، فإن الذئاب والكلاب البرّية التي جاءت إلى النار التي أشعلها الإنسان، على خلاف ما حدث للبشر، وجدت آلهتها من لحمٍ حيٍّ، يمكن لمسه، ويحتلّ مساحة من الأرض، وهي آلهة تحتاج بعضًا من الوقت لتحقيق إنجازاتها، بل وجودها ذاته. وليس الأمر بحاجة إلى جهد للإيمان بمثل ذلك الإله، وليس ثمة إرادة تستطيع أن تحثّ على عدم الإيمان به. نعم، لا مفر من هذا الإله؛ ها هو ذا يقف

على ساقيه، ويحمل هراوة في يده، مُحمّلًا بإمكانات داخلية عظيمة، متّقد الحماسة، ومليئًا بالغضب والحبّ. هو إله وغموض وقوّة، جميعها متداخلة ومحاطة باللحم، الذي ينزف دمًا إذا جُرح، ويُمكن أكله مثل أي لحم آخر.

وهكذا كان الأمر مع ناب أبيض؛ البشر آلهة لا شك في ذلك، ولا مهرب منه. وكما قدّمت أمّه كيتش علامات الولاء لهم، منذ المرة الأولى التي سمعتهم ينادونها باسمها، شرع الابن في الاستعداد لتقديم علامات الامتثال لأوامرهم. لقد استسلم لسلطتهم وحدهم، ومن دون منازع، فعندما يسيرون في طريقهم يبتعد هو عن الطريق. أما إذا نادوه فهو يلبي النداء مسرعًا، وإذا لجأوا إلى التهديد، فعليه أن ينصاع، وإذا أمروه بالانصراف عليه بالإسراع مبتعدًا. إن هؤلاء البشر يملكون القدرة على استخدام القوة لفرض رغباتهم، وهي قوة تعبّر عن نفسها باستخدام الضرب بالهراوات أو بغيرها، والقذف بالحجارة، واللسع بالسياط.

كانوا يملكونه كما يملكون الكلاب الأخرى، فأفعاله بأوامر منهم، وجسمه لهم أن يضربوه بخشونة أو يركلوه أو يتساهلوا معه إن أرادوا. كان ذلك هو الدرس الذي انطبع بداخل ناب أبيض، وهو درسٌ قاسٍ لأنه مضاد لكثير مما هو قوي ومسيطر في طبيعته، وقد ضاق به بالفعل وهو يتعلّمه، لكنه بدأ يحبّه في ما بعد، من دون أن يدري. كان جوهر هذا الدرس هو أن يضع مصيره بين يدي طرف ثالث، فيتحمّل عنه ذلك الطرف مسؤوليات وجوده. وبدا ذلك ترضية كافية في ذاته، فمن الأسهل دائمًا أن يستند المرء إلى غيره، بدلًا من تحمّل مسؤولياته وحده.

لم يكن أمر منح نفسه جسمًا وروحًا للإنسان شيئًا سهلًا، ولم يحدث ذلك كله في يوم واحد. لم يستطع أن يتجاوز على الفور تراثه الوحشي وذكرياته في البراري. ثمّة أيام كان يتسلّل فيها إلى أطراف الغابة، حيث يقف ويستمع إلى شيء يناديه من بعيد ثم يعود مضطربًا وفي نفسه شعور

بعدم الراحة، فيظلّ يئنّ بصوتٍ خافتٍ، غارق في الحزن بجوار كيتش، وهو يلعق وجهها بلسان متلهّف متحيّر.

وسرعان ما تعلّم ناب أبيض نظام الحياة في المخيم. لقد رأى الظلم والطمع اللذين تتّصف بهما الكلاب الأكبر سنًّا عندما تقدّم اللحوم والأسماك للأكل. ولاحظ أيضًا أن الرجال هم أكثر عدلًا، والأطفال أكثر قسوة، وأن النساء أكثر عطفًا وقد يعطينه من حين لآخر قطعة إضافية من اللحم أو العظم. وقد تعلّم أيضًا بعد عدة مغامرات مؤلمة مع أمّهات الجراء التي نمت قليلًا، أن من الخير له أن يتركها وشأنها، وأن يظلّ بعيدًا عنها قدر الإمكان، ويتجنّب السير في طريقها إذا رآها مقبلة نحوه.

أما آفة حياة ناب أبيض فكانت هي الكلب ليـپ ليـپ، فهو أكبر سنًّا وأضخم حجمًا وأكثر قوة، وقد اختار ناب أبيض ليكون ضحية اضطهاده. ولقد حارب ناب أبيض بإقدام لكنه كان يُهزم دائمًا، وهكذا صار عدوّه الكبير الحجم بمثابة كابوس بالنسبة له؛ كلما ذهب للاستكشاف بعيدًا عن أمّه، وجد ذلك المتنمّر في مواجهته. وعندما يراه يتتبّعه، ويزوم في وجهه، ويتحيّن فرصة لا يكون أحد من البشر قريبًا منه، فيقفز عليه ويختلق مشاجرة. وبطبيعة الحال كان ليـپ ليـپ يفوز، ويستمتع بذلك الفوز الذي صار متعته الأولى في الحياة، كما أصبح وسيلة التعذيب الرئيسية لناب أبيض.

ولم يُروِّع ذلك كله ناب أبيض، ورغم أنه كان الطرف الذي يتلقّى معظم الضرر، وهو يُهزَم دائمًا، غير أن روحه لم تنكسر. ولم يخلُ الأمر من تأثير سيئ، إذ اكتسب طبعه مزيدًا من المكر والمشاكسة. صحيح أنه شرس بطبيعته، لكن الأمر تفاقم بسبب ما أصبح يتعرّض له من اضطهاد لا ينتهي. أما الجانب الأليف المرح في نفسه فلم يجد مجالًا للتعبير عنه، فهو لا يلعب قط مع الجراء الأخرى في المخيّم، وذلك لأن ليـپ ليـپ لم يكن ليسمح له بذلك، وفي اللحظة التي يظهر ناب أبيض بالقرب منها

يظهر ليـپ ليـپ على إثره متنمّرًا مهدِّدًا، أو يشتبك معه في قتال يدفعه إلى التراجع مبتعدًا.

لا شك أن ذلك كله كان له تأثير كبير على ناب أبيض، وهو أنه سلبه كثيرًا من طباعه الطفولية، وجعل سلوكه يشبه سلوك من هو أكبر منه سنًّا. لقد حُرِم من التنفيس عن طاقاته باللعب، فانكفأ على نفسه، وشرع في تنمية إمكاناته العقلية. وهكذا صار أكثر مكرًا، إذ كان لديه من وقت الفراغ ما يمكن أن يوجّهه إلى أفكار الخداع والاحتيال، ولأنه كان يتعرّض أحيانًا للحرمان من نصيبه من اللحم أو الأسماك، عند توزيع الأنصبة على كلاب المخيم، فقد أصبح لصًا بارعًا، إذ كان لا بد له أن يجد ما يقتات به، وقد أحسن القيام بذلك، لكن ترتّب على ذلك أنه أصبح بلاءً مزعجًا للزوجات في خيامهنّ. تعلّم ناب أبيض أن يتجوّل متسلّلًا داخل المخيم، وصار ماهرًا في معرفة ماذا يحدث في كل مكان في المخيم، فهو يشاهد ويسمع كل شيء، ثم يرى كيف يستخدم ذلك في تدبير وسائل وطرق لتجنب ذلك الحقود المغرم باضطهاده.

كان ناب أبيض في الأيام الأولى لتعرّضه للاضطهاد من ليـپ ليـپ، عندما قام بتنفيذ أول خطة ماكرة، وذاق عندئذٍ لأول مرة متعة الانتقام. وقد فعل ناب أبيض شيئًا شبيهًا بما فعلته أمّه كيتش - عندما كانت مع الذئاب - وقامت باستدراج الكلاب إلى حيث يلقون حتفهم، إذ استدرج الابن ليـپ ليـپ إلى حيث انقضّ عليه فكا كيتش المترصدان. وكانت المواجهة مع ليـپ ليـپ، وتراجع ناب أبيض، وانطلق يجري فارًّا بين الخِيَم. ورغم أن ناب أبيض يحسن الجري بسرعة، أسرع من كل الجراء الأخرى التي تماثله في الحجم، وأسرع من ليـپ ليـپ نفسه، فقد تعمّد ألّا يجري بأقصى سرعته، بل فقط بتلك السرعة التي تسمح له بالتقدم بمسافة وثبة واحدة عن مطارده.

نسي ليـپ ليـپ حذره في غمرة حماسته بالمطاردة، وباقترابه المتواصل من ضحيته، حتى فاته أن يلاحظ الموضع الي قاده إليه ناب أبيض، وعندما فعل اتضح له أن الوقت قد تأخّر. لقد اندفع يجري بأقصى سرعة حول إحدى الخيم، فإذا به في مواجهة كيتش التي كانت راقدة وقد شُدّ وثاقها. نبح ليـپ ليـپ في ارتياع، قبل أن تطبق عليه كيتش بفكّيها معاقبةً، ورغم أنها كانت مربوطة، لم يتمكّن من الفكاك منها بسهولة. لقد قَلَبَته حتى لا يستطيع الهرب، ثم أخذت تنهشه بأنيابها في كل مكان من جسمه.

عندما نجح ليـپ ليـپ أخيرًا في التخلص منها، شرع في الزحف على قدميه، وقد تَشعّث مظهره، وبلغ به الألم مبلغًا كبيرًا في الروح والجسد. كان شعره منتفشًا، وقد تجمّع على شكل خصل على امتداد جسمه، في المواضع التي تعرّضت لهجوم أسنانها. وقف ليـپ ليـپ في مكانه، ثم فتح فمه الذي صدر منه عويل طويل لجرو مكسور القلب، لكن لم يُسمح له حتى أن يُكمل عويله بهدوء، إذ انقضّ ناب أبيض على إحدى قائمتيه الخلفيتين، وغرز أسنانه فيها. لم يكن قد بقيَ في ليـپ ليـپ أي طاقة للقتال، لذا فرّ هاربًا من دون حرج، وضحيته في إثره، يضايقه حتى وصل إلى خيمته، وهناك هرعت النساء لمساندته. أما ناب أبيض، فقد تحوّل إلى شيطان هائج، لم تتمكّن النساء من إبعاده إلا بوابل من الحجارة.

وجاء اليوم الذي رأى فيه السمّور الرمادي أن احتمال محاولة كيتش الهرب قد صار ضئيلًا، لذا قرّر أن يفكّ وثاقها. ابتهج ناب أبيض بحصول أمّه على حرّيتها، وصحبها سعيدًا في جولة في أرجاء المخيم، وبالطبع حرص ليـپ ليـپ على البقاء بعيدًا عنه طالما كان قريبًا من أمّه. ومن ناحية أخرى نفش ناب أبيض وبره، ومشى متصلّب القائمتين متحدّيًا، لكن ليـپ ليـپ تجاهل التحدّي. نعم، هو ليس على هذه الدرجة من

الحمق، وأي انتقام يسعى إلى إيقاعه بناب أبيض، يجب أن يتم عندما يكون الأخير بمفرده، بعيدًا عن كيتش.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، تقدّم ناب أبيض مصطحبًا كيتش، فتجاوزا حدود المخيم إلى منطقة الأحراش الملاصقة للمخيم. لقد قاد أمّه إلى ذلك المكان خطوة خطوة، والآن عندما توقّفت حاول أن يغريها بالتقدّم مرة أخرى. كان ثمة نداء يصل إليه من جدول الماء والعرين والأدغال البعيدة، وأراد منها أن تذهب معه. لقد ركض متقدّمًا عليها بخطوات قليلة، ثم توقف والتفت إليها، لكنها لم تتحرّك. تأوه ناب أبيض متوسِّلًا، ثم انطلق يجري بمرح داخلًا إلى أجمة مجاورة وخارجًا منها، ثم جرى عائدًا إلى أمّه، فلعق وجهها ثم جرى إلى الأمام مرّة أخرى، أما هي فظلّت على سكونها لم تتحرّك. التفتت كيتش برأسها وأخذت تمعن النظر ناحية المخيم، عندئذٍ توقّف ناب أبيض ونظر إليها وقد تلاشى ببطء كل ما بداخله من حماسة وعزم، حاول التعبير عنهما بتحرّكات جسمه.

كان ثمة شيء يناديه، هناك في البراح الممتدّ، ولقد سمعت أمّه هذا النداء أيضًا، إلا أنها سمعت نداءً آخر أعلى صوتًا في الوقت ذاته، هو نداء الإنسان والنار التي يشعلها، وهو النداء الذي لم يُمنح لأي حيوان سوى للذئاب، وإخوتها من كلاب البراري، لذا فكّرت أنه عليها أن تلبيه.

استدارت كيتش وسارت بهدوء في اتّجاه المخيّم. كانت قبضة المخيم عليها أقوى من العائق المادي الذي تمثّل في وثاقها المشدود، فالآلهة لا تزال تحكم قبضتها عليها بوثاق آخر سرّي غير مرئي. جلس ناب أبيض في ظلّ شجرة بتولا وأخذ في النشيج بصوت خافت. كانت هناك رائحة صنوبر قوية في الهواء، مختلطة بعبق هادئ من روائح الأدغال، كلّها تُذكّره بحياته القديمة في الحرّية، التي سبقت أيامه في الأسر، لكنه لم يكن سوى جرو صغير، نداء الأم بداخله أقوى من نداء الإنسان ومن نداء البراري. لقد قضى عمره القصير كله معتمدًا عليها، ولم يحِن بعدُ وقت

الاستقلال عنها. وهكذا قام من مكانه، وشرع يسير في اتجاه المخيم وقد بدا خائبًا يائسًا. ثم توقّف مرّة أو مرتين أثناء سيره، فجلس في مكانه يئنّ بينما يستمع إلى النداء الذي لا يزال يُسمع، قادمًا من أعماق الغابة.

الوقت الذي تقضيه الأم مع صغارها في البراري قصير، وقد يصير أكثر قِصَرًا حين تكون تحت سيطرة الإنسان، وهذا ما حدث لناب أبيض. كان السمّور الرمادي مديونًا للعُقاب الثلاثي، الذي كان في طريقه للسفر في رحلة عبر نهر «ماكينزي»، إلى بحيرة «جريت سليف». فقرّر السمّور الرمادي أن يردّ دينه بالتنازل للنسر الثلاثي عن قطعة قماش قرمزية اللون، وفراء دب، وعشرين طلقة رصاص، والذئبة الأمّ كيتش. رأى ناب أبيض أمّه تُحمَلُ على ظهر قارب النسر الثلاثي الخشبي. وحاول أن يتبعها، فإذا بلطمة من النسر الثلاثي تعيده إلى ضفة النهر. ولما أبحر القارب، قفز الجرو إلى داخل الماء وأخذ يسبح خلفه، غير مصغٍ لصيحات السمّور الرمادي الحادّة التي تأمره بالعودة. لقد استبدّ به الرعب من فقدان أمّه، إلى الدرجة التي جعلته يتجاهل الإنسان الذي هو بمثابة إلهه.

اعتادت الآلهة أن تُطاع، لذا استقل السمّور الرمادي قاربًا آخر وقد اشتعل بالغضب، وانطلق متتبعًا ناب أبيض، وعندما وصل إليه مد يده في الماء وأمسك به من مؤخرة عنقه، ثم رفعه إلى خارج الماء. لم يتركه في الحال في قاع القارب، بل حمله مُعلّقًا في الهواء بيد واحدة، ثم شرع في ضربه باليد الثانية. كان الضرب مُبَرِّحًا، فالسمّور الرمادي لديه يد باطشة، أكثرت الضرب، وأثقلته، وضرباتها شديدة الإيلام.

أخذ ناب أبيض يتأرجح يمينًا ويسارًا، من جراء وابل الضربات الذي نزل عليه، وكأنه بندول مُتأرجح. أما المشاعر التي اعتملت في داخله فقد تعددت. في البداية، ثقلت عليه المفاجأة، ثم جاء الخوف لدقائق، عندئذٍ نبح عدة مرات من تأثير اليد القابضة عليه، ثم تلا ذلك كله شعور محتدّ

بالغضب. عادت طبيعته الحرة لتؤكّد نفسها، فكشّر عن أنيابه، وأخذ يزوم بلا خوف، في مواجهة الإله الغاضب. ولم يؤدِ ذلك إلا إلى إثارة المزيد من غضب ذلك الإله، فصارت الضربات تتوالى أسرع وأثقل، وأكثر إيلامًا.

استمرّ السمّور الرمادي في الضرب، واستمر ناب أبيض يزوم، لكن ذلك لم يكن ممكنًا أن يستمر بلا نهاية، فكان على أحدهما أن يتوقّف، وكان الذي توقف هو ناب أبيض. لقد سرى الخوف بداخله مرة أخرى، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُجرِّب فيها بالفعل التعامل عن قرب إلى هذا الحد مع الإنسان. إن ضربات العصى العابرة، والأحجار التي أُلقيت عليه في أوقات سابقة ليست سوى ملاطفة وتدليلًا بالمقارنة بما يتلقّاه الآن من ضرب. لقد سقط متداعيًا على الأرض وبدأ في الصراخ والعويل، وبعد أن كانت كل ضربة تتلوها صرخة، صار صراخه متواصلًا، غير مرتبط بإيقاع إنزال العقوبة، وذلك لتحوّل الخوف بداخله إلى رعبٍ قاسٍ.

أخيرًا، توقّفت اليد الضاربة للسمّور الرمادي، وظل ناب أبيض يعوي وجسمه معلّق في الهواء. يبدو أن ذلك كان مرضيًا للسيد، الذي قذف به بخشونة في قاع القارب، وفي الوقت نفسه انساق القارب مع التيار، والتقط السمّور الرمادي المجداف. كان ناب أبيض ملقًى في الأرض معترضًا طريقه، فإذا به يرفسه. في تلك اللحظة عادت الطبيعة الحرّة لناب أبيض كأنها ومضة سريعة، فغرز أسنانه في قدم السمّور الرمادي ذات الخف الجلدي.

كان الضرب الذي تلقّاه ناب أبيض منذ قليل لا شيء بالمقارنة بالضرب الذي يتلقاه الآن، فقد تصاعد غضب السمّور الرمادي إلى حد مريع، وبالقدر نفسه تزايد خوف ناب أبيض. وفي هذه المرة، لم تبطش

اليد فقط، وإنما استُخدم المجداف الخشبي الصلب أيضًا في الضرب، إلى أن امتلأ جسم الصغير بالتقرّحات والكدمات، ثم قذف به الرجل مرة ثانية إلى أرض القارب ورفسه مرة أخرى، متعمّدًا هذه المرة. لم يكرّر ناب أبيض هجومه على القدم، فقد تعلم درسًا جديدًا عن حياة الأسر، خلاصته ألّا يقوم أبدًا، ومهما كانت الظروف، بِعَضّ الإله الذي هو السيد المسيطر، فجسد ذلك الإله مقدّس، ولا يصح أن يُنتهك بأسنان من هم مثله، ولا شك أن حدوث ذلك هو جريمة الجرائم، التي لا يمكن الصفح عنها أو تجاهل وقوعها.

عندما لمس القارب الشاطئ، كان ناب أبيض راقدًا يئن بلا حراك، في انتظار ما تمليه إرادة السمّور الرمادي، ولأن إرادته كانت أن ينزل ناب أبيض إلى الشاطئ، فقد أُلقي به إلى الشاطئ، فارتطم جانبه بالأرض، وآلمته جروحه من جديد. زحف ناب أبيض وقائمتاه ترتعشان، حتى وقف على قوائمه، وهو يتأوه. كان ليپ ليپ واقفًا على الضفة يراقب ما يجري، فانقضّ عليه في تلك اللحظة، وأنشب أسنانه فيه. كان ناب أبيض بطبيعة الحال غير قادر على الدفاع عن نفسه، ولم يكن ليستطيع ذلك لولا أن انطلقت قدم السمّور الرمادي فألقت بمهاجمه بعنف في الهواء فارتطم بالأرض على بعد عدة أقدام. هذه هي عدالة البشر، فحتى في تلك اللحظة، في ذلك الموقف الذي يدعو لغضب الاله تقدّم لحمايته. شعر ناب أبيض بالامتنان، ثم أخذ يعرج في استكانة بجوار السمّور الرمادي، عبر الطرقات إلى أن وصل إلى الخيمة. وهكذا تعلّم ناب أبيض أن حقّ إنزال العقاب هو حقّ تحتفظ به الآلهة لنفسها، وتنكره على الكائنات الأخرى الأدنى منها.

في تلك الليلة، بعد أن ساد السكون، تذكّر ناب أبيض أمّه، وعوى حزنًا على فراقها، لكن صوته أيقظ السمّور الرمادي من نومه، فضربه عقابًا له.

ومنذ ذلك الحين اعتاد ناب أبيض أن يعبّر عن حزنه بصوت خافت إذا كانت الآلهة في الجوار. واعتاد في أحيان أخرى أن يتسلّل وحده إلى حافة الدغل القريب، حيث يجد متنفّسًا للتعبير عن حزنه، فيعوي كما يشاء ويرفع صوته.

وكان حريًّا بناب أبيض في تلك الفترة أن يُصغي إلى ذكرياته عن العرين وعن جدول الماء، ويسرع بالعودة إلى البراري، لكن ذكرى أمه استبقته. إن البشر يخرجون للصيد ثم يعودون، ولعلّها ستعود مثلهم في يوم من الأيام. لذا بقي ناب أبيض في الأسر ينتظر عودة أمّه.

لم تكن تجربة الأسر كلّها تعيسة، بل كانت هناك أشياء كثيرة تثير اهتمامه، ولم يخلُ المكان أبدًا من أشياء جديدة تحدث، فلا نهاية للأشياء الغريبة التي تقوم بها الآلهة، وهو دائمًا متشوّق لرؤية الجديد. ويُضاف إلى ذلك أنه بدأ يتعلّم كيف يتوافق مع السمّور الرمادي. الطاعة، نعم الطاعة العمياء الكاملة، هي الشيء المتوقّع منه، وهو في المقابل لا يتعرض للضرب، ويظل وجوده في المكان مسموحًا به.

وأكثر من هذا، كان السمّور الرمادي أحيانًا يرمي له بنفسه قطعة من اللحم، ويدافع عنه ضد الكلاب الأخرى بينما هو يأكلها. وقد كان لمثل تلك القطعة قيمة كبيرة، تزيد بطريقة ما عن قطع اللحم التي يمكن أن يتلقاها من أيادي النساء في المخيم. وبمرور الوقت بدأ نوع من الارتباط يتكون بين ناب أبيض وسيده الفظّ، رغم أن السمّور الرمادي لا يربّت أبدًا على أحد ولا يُدلّل أحدًا. ولعل السبب في ذلك الارتباط استمتاع ناب أبيض بيد الرجل الثقيلة عندما يضعها على ظهره، ولعلها العدالة التي يسعى إلى تطبيقها، ولعلها فقط قوّته المسيطرة، ولعلّها كل تلك الأسباب مجتمعة.

أُحكمت القيود حول ناب أبيض في الأسر بوسائل متعدّدة منها المكر

والحيلة، ومنها قوّة العصا والحجارة وقبضات الأيدي. إن صفات نوعه التي جعلته منذ البداية يقترب من مخيّمات البشر حيث توجد النيران، كانت قابلة للنمو. الحقيقة أنها كانت تنمو بالفعل بداخله، ورغم أن الحياة في المخيم كانت مفعمة بالحوادث البائسة، فقد كانت محبّته تتسلّل سرًا بداخله وتنمو يومًا بعد يوم. لم يكن ناب أبيض واعيًا بذلك، بل أدرك فقط أنه شديد الحزن لفقده كيتش، ولا يزال يأمل في عودتها. كذلك استقر بداخله توق جامح لحياة الحرّية التي عاشها من قبل.

3

المنبوذ

استمر ليـپ ليـپ في تنغيص حياة ناب أبيض، الذي أصبح نتيجة لذلك أكثر خبثًا وشراسة مما يُتوقّع له أن يكون. إن الوحشية هي جزء من طبيعته، لكن القدر الذي نما بداخله منها يتجاوز بلا شك تكوينه الطبيعي. اكتسب ناب أبيض سمعة سيّئة بين رجال ونساء المخيّم. وحيثما توجد مشكلات وصخب، بسبب عراك أو مشاكسة، أو صراخ امرأة على بعض اللحم المسروق، يكون الجميع على ثقة من أن ناب أبيض متورِّط في الأمر، وغالبًا ما يكون هو سبب المشكلة. لم يهتم أحد بالبحث عن أسباب سلوكه، على حين اهتم الجميع بملاحظة النتائج، وقد كانت النتائج في غاية السوء. كان متسلّلًا ولصًّا، ومسبب مشكلات، ومحرضًا عليها، ولطالما واجهته النساء الغاضبات، وهنَّ متوثّبات في وضع استعداد لرميه بقذائف سريعة وبالقول إنه ذئب لا قيمة له، وأن نهايته ستكون سيّئة بلا شك.

وجد ناب أبيض نفسه منبوذًا في وسط ذلك المخيّم المزدحم. الكلاب الصغيرة كلّها حذت حذو ليـپ ليـپ، ويبدو أنها شعرت بالاختلاف بينها وبينه، ولعلّها أحسّت بأصله المنتمي للبراري، فشعرت غريزيًا نحوه بالعداوة نفسها التي تشعر بها الكلاب المستأنسة تجاه الذئاب. ومهما كانت الأسباب، فقد انضموا إلى ليـپ ليـپ في اضطهاده، ومنذ واجهوه بالعداوة في البداية، وجدوا دائمًا أسبابًا للاستمرار في تلك العداوة

المعلنة. الكلاب كلّها، بلا استثناء، جرّبت أسنانه من وقت لآخر، والحقّ أنه كان في كل مرة يوقع بها ضررًا أكبر مما توقع هي به، وبعض تلك الكلاب كان يمكنه هزيمتها لو واجهته بمفردها، لكنه كان محرومًا من تلك المواجهات الفردية، فبداية مثل هذه المواجهة كانت دومًا إشارة لبقية الكلاب الصغيرة في المخيّم لكي تسرع بالمجيء للمشاركة في الانقضاض عليه.

وتعلّم ناب أبيض شيئين في غاية الأهمية من تجربة اضطهاد القطيع التي تعرض لها. لقد تعلّم كيف يحمي نفسه عندما يتعرّض لهجوم جماعي، وكيف يُنزل أقصى الضرر بغريمه في أقل وقت ممكن، عندما يدخل في معركة مع كلب واحد. أدرك ناب أبيض أن الحفاظ على توازنه في قلب جماعة من الأعداء تعني الحياة نفسها، ولقد برع في ذلك. نعم، قد تدفعه الكلاب الأكبر حجمًا إلى الخلف أو إلى أحد الجانبين، فيتراجع جسمه إلى الخلف أو يتحرّك إلى أحد الجانبين، تأثّرًا بثقل أوزانها. قد ينقلب جسمه في الهواء أو ينزلق على الأرض، لكنه يحرص دائمًا على أن تكون قوائمه تحته، ويكون واقفًا على الأرض.

عندما تتعارك الكلاب، فعادة ما تكون هناك سلوكات تمهيدية قبل بداية الاشتباك الفعلي، ومن ذلك الزمجرة، وانتفاش الشعر، والاختيال بسيقان متصلّبة. أما ناب أبيض فقد تعلّم أن يحذف تلك السلوكات من معاركه، فأي تأخير يعني وصول صغار الكلاب الأخرى للمشاركة في الهجوم عليه، فالمطلوب إذًا هو القيام بمهمّته بأقصى سرعة ثم الهرب. هكذا تعلّم ألّا يصدر عنه أي تحذير يدل على نياته، فهو يندفع فجأة فيعضّ وينهش في التو واللحظة، من دون أي تنبيه، قبل أن يستعدّ غريمه لصدّه. هو إذًا قادر على إنزال ضرر قاسٍ وسريع. ويدرك أيضًا أهمية المفاجأة، فالكلب الذي يؤخذ على غرة، فيتعرّض لجروح عميقة في كتفه أو رأسه، قبل أن يدرك ما الذي يحدث، لَهُوَ كلب نصف مهزوم.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكلب الذي يهاجَم على غرة يسهل إلى حد كبير قلبه على ظهره، وأي كلب في ذلك الوضع تنكشف ولو لدقيقة واحدة الجهة الداخلية الهشة من عنقه، وهو الموضع الضعيف، فإنه قد يفقد حياته إذا هوجم في هذا الموضع الضعيف. وقد عرف ناب أبيض هذا الموضع، وهي معرفة ورثها مباشرة من أجيال من الذئاب التي مارست الصيد. أسلوب ناب أبيض في الهجوم إذًا هو: أولًا، أن يجد كلبًا صغيرًا وحيدًا، وثانيًا أن يفاجئه ويُفقده توازنه، وثالثًا، أن ينقضّ بأسنانه على الموضع الهشّ في الجهة الداخلية من العنق.

لم ينمُ فكّا ناب أبيض نموًا كاملًا بعد، لذلك لمّا يبلغا من الحجم والقوة ما يكفي ليكون هجومه على نقطة العنق الهشة مميتًا، غير أن عددًا لا بأس به من صغار الكلاب تتجوّل في المخيم بأعناق منهوشة تدل على محاولات ناب أبيض. ففي أحد الأيام، وجد ناب أبيض أحد أعدائه وحيدًا على حافة المخيم، فتمكّن من قَلبه عدة مرات، ومهاجمة عنقه بشكل متكرر حتى نجح في نهش الوريد الكبير، فسلبه حياته. اشتد الصخب في تلك الليلة في المخيم، فقد رأى بعضهم ما حدث، وأبلغ سيد الكلب المقتول، ومن ناحية أخرى تذكّرت النساء حوادث اللحم المسروق السابقة كلّها، لذا واجهت السمّور الرمادي أصوات كثيرة غاضبة، لكنه أغلق باب خيمته بكل حزم، ومعه في داخلها المعتدي، ورفض بإصرار أن يسمح لأفراد قبيلته بالقصاص الذي صرخوا مطالبين به.

صار ناب أبيض مكروهًا من البشر ومن الكلاب على حد سواء. وأثناء تلك الفترة من نموه لم يعرف الإحساس بالأمان، ولو لدقيقة واحدة. أسنان الكلاب كانت تتربّص به، وكذلك أيادي الرجال. الحيوانات من نوعه تُحييه بالزمجرة، وآلهته تحييه باللعنات والأحجار. ولذا عاش حياة غارقة في القلق، يسيطر عليه التوتّر والتحفّز توقّعًا للهجوم، ويُضطر أن

يبقى في حالة حذرٍ واحتياط، فهو يتوقّع قذائف مفاجئة غير متوقّعة، وعليه أن يكون دائمًا في حالة استعداد للتصرّف بسرعة وبحكمة، فيثب مهاجمًا بأسنان حادة، أو يثب هاربًا بزمجرة مهددة.

وبالنسبة للزمجرة، فقد صار ناب أبيض قادرًا على إصدار زمجرة أكثر فظاعة من تلك التي يصدرها أي كلب آخر، صغيرًا كان أو كبيرًا، في المخيم، أما الغرض منها فهو التحذير أو التخويف، وهو الذي يقرّر متى عليه أن يستخدمها. وقد عرف ناب أبيض كيف يصدرها ومتى، وكانت زمجرته هذه تدمج في داخلها كل ما هو شرس وشرير مريع، وهي دومًا مصحوبة بأنف تبدو حوافّه حادّة كالمنشار، بسبب تقلصها المستمر، ووبرٍ منتفشٍ في موجاتٍ متتاليةٍ، ولسانٍ كثعبانٍ أحمر يضرب خارج فمه كالسوط ثم يعود بسرعة إلى الداخل، وأذنين متدليتين إلى أسفل، وعينين تلمعان بالكراهية، وشفتين متراجعتين للخلف كاشفتين عن أنياب حادّة. وكثيرًا ما دفعت هذه المظاهر أعداء ناب أبيض إلى التوقّف عن مهاجمته، وهو توقّف قصير يسمح له بوقت ثمين يفكّر فيه ويقرّر أي خطوة قادمة سيتّخذها، خصوصًا إذا لم يكن مستعدًّا. وكثيرًا ما تطول هذه اللحظات وتنتهي بتراجع تام عن الهجوم. وقد مكّنته زمجرته تلك عدّة مرات من التراجع المشرِّف أمام بعض الكلاب الأكبر منه والأوسع تجربةً.

نعم، صار ناب أبيض منبوذًا من قطيع الجراء، إلا أنّ أساليبه الدموية وكفاءته العالية، جعلت القطيع يدفع ثمن اضطهاده، فهو من ناحية غير مسموح له بالتجوّل مع بقية القطيع، ومن ناحية أخرى، فإنه نظرًا لحالة العداء المسيطرة لا يستطيع أيٌّ من أفراد القطيع أن يتجوّل وحده، فناب أبيض لم يكن ليتركه وشأنه. أما عن معرفته بالأدغال، وقدرته على نصب الكمائن، فهناك كثير مما يمكن قوله. كانت الكلاب الصغيرة السنّ تخشى التجوّل بمفردها، وباستثناء ليـپ ليـپ، كانت مضطرة للتجمع معًا للحماية المشتركة في مواجهة العدو الذي صنعته. إن وجود

كلب صغير بمفرده على ضفة النهر قد يعني هلاكه، أو فراره وقد تعالى صراخه، ما يجعل سكان المخيم يهبّون مذعورين، لنجدة الصغير الذي نجا من جرو الذئب المتربّص.

لم تتوقّف معارك ناب أبيض مع الكلاب، فهو، حتى بعد أن أدركت أن عليها التواجد معًا على الدوام، يهاجم أي كلب يراه منفردًا، وهي تهاجمه عندما تكون في جماعة. رؤيتها له فقط تكون كافية لإثارتها وانطلاقها في إثره، وعادة ما تُمكّنه سرعته العالية من الهرب إلى الأمان. والويل للكلب الذي يسبق رفاقه محاولًا اللحاق به قبلهم! إذ اعتاد ناب أبيض أن يلتفت فجأة فينقضّ على ذلك الكلب قبل أن يصل بقية القطيع. وما أكثر ما حدث ذلك الأمر، إذ إن الكلاب المطارِدة تستبدّ بها الحماسة، فتنسى نفسها، أما ناب أبيض فهو لا ينسى نفسه أبدًا، ويظلّ يسترق نظرات سريعة إلى الخلف وهو يجري، وفي الوقت المناسب يكون مستعدًّا، فيستدير بسرعة وينقضّ على ذلك الكلب الذي استخفته الحماسة فسبق زملاءه وأصبح وحيدًا في مواجهة ناب أبيض.

لا بد للكلاب الصغار من اللعب، ونظرًا للظروف المحيطة فقد جعلت الكلاب من مطاردة ناب أبيض لعبتها الأساسية، وهي لعبة قد تكون قاتلة، ولا شك أنها خطرة في كل الأحوال. أما هو فكان - بسبب سرعته الكبيرة في الجري - لا يخاف من الانطلاق مغامرًا في أي مكان. وخلال الفترة التي قضاها منتظرًا عودة أمّه من دون جدوى، اعتاد أن يقود قطيع الكلاب إلى مطاردة شرسة خلال الأدغال المجاورة، لكن كلاب القطيع في النهاية تفقد أثره، ومع أنه يعرف مكانها بسبب ضجّتها وصياحها، فقد كان يحلو له أن يجري وحيدًا، بقوائمه المُخمَلية، في صمت، كأنه طيف يتحرّك بين الأشجار، كما اعتاد أبوه وأمه من قبل أن يفعلا. وهو على كل حال أكثر ارتباطًا من الكلاب جميعًا بالبراري، ويعرف الكثير من حيلها وأسرارها. ومن حِيَله المفضّلة أن يضع قوائمه في الماء الجاري

ليمسح آثارها، ثم يرقد بهدوء تحت أجمة قريبة بينما صيحات الاندهاش تتصاعد من الكلاب التي تحوم حول مخبأه ولا تعرف مكانه.

كان ناب أبيض إذًا مكروهًا من فصيلته، ومن البشر، غير قابل للإخضاع، تُشن عليه الحرب، أو يشُن هو حربًا على الآخرين، هكذا بلا انقطاع، لذا كان نموه سريعًا، ومن جهة واحدة. لم تكن تلك تربة صالحة لازدهار مشاعر الحنو والشفقة على أي حال، وهي مشاعر لم يعرف ناب أبيض عنها ولو وميضًا خافتًا. القاعدة التي تعلّمها بسيطة: أن يُطيع القوي، ويضطهد الضعيف. السمّور الرمادي مثلًا بالنسبة له إله قوي، لذا عليه أن يطيعه، لكن الكلب الذي يصغره سنًّا أو حجمًا ضعيف، فلا مانع من القضاء عليه. ويمكن القول إن نموه كان في اتجاه القوة، فلكي يواجه مخاوفه المستمرّة من التعرّض للألم، أو حتى للهلاك، بالغ في تنمية إمكاناته الضارية وقدراته على حماية نفسه. لقد صار أسرع في حركته من الكلاب الأخرى، وأكثر رشاقة عند الجري، وأكثر براعة وبطشًا، كما أصبح يتمتّع بجسم مرن نحيف مع عضلات وأوتار في قوة الحديد، لذا فهو أكثر قدرة على الاحتمال، وهو الآن أكثر شراسة وذكاءً. نعم، كان لزامًا عليه أن يصبح ذلك كلّه، وإلا لما أمكن له أن يحافظ على نفسه وأن ينجو من البيئة العدائية التي وجد نفسه فيها.

مكتبة
t.me/t_pdf

4

طريق الآلهة

في خريف ذلك العام، عندما أصبحت الأيام أقصر وسرت في الهواء لسعة الصقيع، عثر ناب أبيض على فرصته للحرية. ساد جو من الصخب والبلبلة لعدة أيام في القرية. ها هو ذا المخيم الصيفي يُحلّ وأفراد القبيلة - مُحَمَّلين بأمتعتهم كلِّها - يستعدون للانطلاق لصيد الخريف. راقب ناب أبيض الأمر بعينين يقظتين، وعندما رأى الخِيام تُفكّك، والقوارب تُحمَلّ بالأمتعة على الضفة، أدرك ما يحدث. وكانت بعض القوارب قد أقلعت بالفعل، وبعضها اختفى في مجرى النهر.

قرّر ناب أبيض متعمدًا أن يتخلّف عنهم، فانتظر حتى سنحت الفرصة، وانسلّ من المخيم إلى الأدغال. وحيث يجري جدول الماء وقد بدأ الجليد في التراكم ويخفى آثار قوائمه، زحف إلى قلب أجمة كثيفة وانتظر هناك. مرّ عليه وقت طويل، ونام ناب أبيض نومًا متقطعًا لساعات، ثم أيقظه صوت السمّور الرمادي ينادي اسمه. وكانت هناك أصوات أخرى أيضًا، منها صوت زوجة السمّور الرمادي، التي شاركت في البحث، وكذلك صوت ابنه ميتساه.

ارتعد ناب أبيض خوفًا، وكاد يندفع خارجًا من مخبئه، لولا أنه قاوم اندفاعه. تلاشت الأصوات بعد قليل، فانتظر لمدّة ثم تسلّل خارجًا، ليستمتع بنجاح خطته. كان الليل يتقدّم، فأخذ يلعب لبعض الوقت بين الأشجار، مبتهجًا بحريته. ثم أدرك على نحو مفاجئ أنه وحيد، فجلس

يفكّر، وهو لا يسمع سوى صمت الغابة، الذي يضاعف من اضطرابه، فغياب أي حركة أو صوت من حوله بدا مثيرًا للتشاؤم. لقد شعر بخطر مترصّد، غير مرئي وغير قابل للتنبؤ به، وأخذت الشكوك تساوره وهو يرى تجمعات الأشجار تلوح في الفضاء وكذلك ظلال أخرى مختلفة، لعلها تُخفي أنواعًا لا حد لها من المخاطر.

ثم بدأ يشعر بالبرد، ولم يعد هناك خيام يمكنه أن يلتصق بإحداها طلبًا للدفء. وبدأ الصقيع يؤلم قوائمه، فأخذ يضرب بقائمتيه الأماميتين هربًا منه، ثم لف ذيله الكثيف حوله مُتَقَوِّسا ليغطيهما. وفي اللحظة نفسها رأى رؤيا. لم يكن فيها شيءٌ غريبٌ، فقد انعكست على بصره الباطني صور متتابعة من ذاكرته، فرأى المخيّم مرة ثانية، والخيام، والنيران المتوهّجة. وأيضًا سمع أصوات النساء الحادّة، وأصوات الرجال الخشنة الجهورية، وزمجرة الكلاب. وشعر كذلك بالجوع الشديد، فتذكّر قطع اللحم والأسماك التي كانت تُلقى إليه. أما الآن، فلا شيء، لا شيء سوى هدوء يهدد بالخطر، وليس فيه ما يصلح للأكل.

لقد أوهنته أيام الأسر، وأضعفه عدم تحمّل المسؤولية، فنسي كيف يرعى نفسه. وفغر الليل فاه من حوله، أما حواسّه التي اعتادت في ما مضى على طنين المخيم والضجّة الصاخبة فيه، وعلى التأثير المستمرّ للمشاهد والأصوات، فقد صارت الآن عاطلة عن العمل. ليس هناك ما يمكن عمله، فلا شيء يُرى أو يُسمع. لقد أُجهدت تلك الحواسّ في محاولة التقاط شيء يقطع الصمت والسكون اللذين يسودان الطبيعة، ثم رُوِّعَت باستمرار الجمود وبالإحساس أن شيئًا مريعًا على وشك الحدوث.

اصطفقت أوراق شجرة في سكون الليل فأثارت ضجة كبيرة. كانت تلك الشجرة فوق ناب أبيض مباشرة، فنبح مرتعبًا، وسيطر عليه خوف جعله يجري في اتجاه القرية، إذ تسيطر عليه الآن رغبة جامحة في الحصول على صحبة الإنسان وحمايته. يشمّ منخاراه رائحة دخان

المخيم، وتسمع أذناه الأصوات المعتادة فيه، ويرنّ الصراخ العالي لساكنيه. خرج ناب أبيض من الغابة إلى البراح الغارق في ضوء القمر، من دون ظلام ولا ظلال، لكنّ عينيه لم تسعدا برؤية القرية. فسكان القرية قد رحلوا عنها.

تناقصت فجأة سرعته في الركض، فلم يعد هناك ما يفرّ إليه. وأخذ يسير برفق خلال المخيّم المهجور يتشمّم أكوام النُفايات والمخلّفات الأخرى التي تركتها الآلهة. كم كان سيسعده آنذاك أن يسمع قعقعة الأحجار التي ترميها نساء المخيم الغاضبات وهي تتساقط حوله، أو يد السمّور الرمادي تنزل عليه في غضب، بل كان سيرّحب مبتهجًا بالكلب ليـپ ليـپ ومعه القطيع المزمجر كلّه.

تقدم ناب أبيض إلى حيث كانت خيمة السمّور الرمادي منصوبة. جلس في وسط المساحة التي كانت الخيمة تحتلّها، ورفع رأسه مشيرًا بأنفه في اتجاه القمر. كان حلقه يضطرم بانقباضات قاسية، ثم فتح فمه وخرجت منه صيحة قلب مكسور تمور بكل ما في نفسه من وحدة وخوف، ولوعة لفراق كيتش، وأحزان الماضي كلّها، وآلامه، وأيضًا هواجسه عما هو قادم في المستقبل من أخطار ومعاناة. ازدحم حلقه بصوت عواء طويل متفجّع، وكان ذلك أول عواء يصدر عنه.

بدّد ضوء النهار مخاوف ناب أبيض، لكنه زاد من إحساسه بالوحدة، كما ضاعفت من إحساسه العميق بالوحشة الأرض الجرداء التي كانت منذ وقت قصير مزدحمة بساكنيها. لم يستغرق الأمر منه وقتًا طويلًا لكي يتّخذ قراره، لقد قرر أن يقذف بنفسه إلى قلب الغابة، ثم ينطلق راكضًا على ضفة النهر مع اتجاه التيار. ظل يجري طوال اليوم من دون راحة، وكأنه سيجري إلى الأبد. تجاهل جسمه الحديدي الإجهاد، وعندما حل عليه التعب، فإن تراثه من القدرة على التحمّل أعانه على مزيد من المجاهدة، ومكّنَه من دفع جسمه المنهك إلى الأمام.

مضى ناب أبيض في طريقه بمحاذاة النهر، فإذا وجد الضفة جُروفًا عالية تسلّقها إلى الجانب الآخر. أما الأنهار الصغيرة والجداول التي اعترضت النهر الرئيسي فقد خاض فيها أو سَبح، وكثيرًا ما لجأ للحوافّ الثلجية التي تتكوّن، التي كادت تتحطّم تحته عدة مرات فكافح لكي يحافظ على حياته، في تيار من الماء المثلج. وهو في تلك الحالات كلها لا يكف عن تلمس آثار الآلهة، التي لعلّها تركت النهر واستكملت السير على اليابسة.

كان ذكاء ناب أبيض يفوق المتوسط بالنسبة لنوعه، غير أن رؤيته العقلية لم تكن من الاتساع بحيث تسمح له أن يأخذ في اعتباره الضفة الأخرى من النهر، لذا لم يخطر بباله على الإطلاق أن تكون آثار الآلهة تؤدّي إلى الجانب الآخر من ضفة النهر. سوف يسافر كثيرًا في القادم من الأيام ويزداد نضجًا وحكمة، ويصبح أكثر معرفة بالطرق والأنهار، عندئذٍ قد يستطيع فهم مثل ذلك الاحتمال واستيعابه. نعم، تلك هي القدرة العقلية التي لا تزال تنتظره في المستقبل، أما الآن فهو يجري بشكل عشوائي، ولا يدخل في حساباته سوى الجانب الذي يجري عليه من ضفة نهر ماكينزي.

ظل ناب أبيض يركض طوال الليل، وهو يتخبّط في الظلام، تعترضه عراقيل مختلفة ويتعرّض لحوادث مؤسفة، لعلها عطّلته لكنها لم تنل من عزيمته، وبحلول منتصف اليوم الثاني، كان قد ركض بالفعل لمدة ثلاثين ساعة. عندئذٍ بدأت القدرات الحديدية لجسمه تتداعى، على حين هيّأت له قدرات ذهنه أن يستمرّ في طريقه، رغم أنه كان في تلك اللحظة قد أمضى أربعين ساعة من دون أن يتناول طعامًا، وقد أنهكه الجوع غاية الإنهاك. وكذلك تأثّر جسمه من ناحية أخرى، كثيرًا بوقوعه المتكرّر في الماء المثلج، فتهدل فراؤه الجميل متّسخًا، وامتلأت خفاف قوائمه المفلطحة بالكدمات، وبدأت تنزف دمًا، وها هو الآن يعرج في سيره،

والعرج يتفاقم مع مرور الوقت. وقد زاد الأمر سوءًا بعد أن حُجب ضوء السماء، وبدأ سقوط الثلج. إنه ثلج من النوع الخشن الكبير الحجم المحمَّل بكميات كبيرة من الماء، وهو سريع الالتصاق بالأجسام، وزلق تحت الأقدام، وقد أخفى عنه تفاصيل الطبيعة من حوله، كما غطّى على الطبيعة غير المتساوية للأرض التي يركض عليها، مما جعل الأمر كلّه أكثر صعوبة وإيلامًا.

انتوى السمّور الرمادي إقامة المخيم في تلك الليلة على الضفة البعيدة من نهر ماكينزي، فذلك هو الاتجاه الذي يكثر فيه الصيد، غير أنه قبل نزول الليل بوقت قليل، قصد الضفة القريبة وعل ليشرب من ماء النهر، ولمحته كلوكوش، زوجة السمّور الرمادي. ولا شك أنه لو لم يأت الوعل ليشرب، ولو لم ينحرف ميتساه قليلًا عن الطريق بسبب الثلج، ولو لم تبصر كلوكوش الوعل، ولو لم يقتل السمّور الرمادي الوعل بطلقة رصاص ناجحة من بندقيته، فإن كل الحوادث التالية كانت ستحدث بطريقة مختلفة. لو لم يحدث كل ذلك لما أقام السمور الرمادي المخيّم على الضفة القريبة لنهر ماكينزي، ولَمَرّ ناب أبيض بهذه البقعة ثم استمر في طريقه، فإما أن يموت أو يجد طريقه إلى إخوته في البراري، ويصير واحدًا منهم، ذئبًا برّيًا، إلى آخر أيامه.

هبط الليل، وراح الثلج يهطل بكثافة أكبر، وناب أبيض يئنّ بصوت خافت، كأنما يحدّث نفسه، وهو لا يزال يتعثّر ويعرج على الطريق، حتى وقع على آثار حديثة على الثلج. كانت حديثة الى الحدِّ الذي جعله يتعرّف عليها على الفور، فشرع في تتبعها من النهر، ثم بين الأشجار وهو يتأوّه في لهفة. وصلت أصوات المخيم إلى أذنيه، ثم رأى لهب النار، وكلوكوش تطهو طعامًا والسمّور الرمادي يجلس القرفصاء وقد انشغل بمضغ كتلة من الدهن النيّء. إذًا هناك لحم طازج في المخيّم.

توقّع ناب أبيض أن يتعرّض للضرب، وعندما خطر الأمر بباله، جثم

على الأرض للحظات ثم قرّر أن يمضي مستمرًّا في سيره. حقًّا كان يشعر بالخوف من الضرب الذي توقّع أنه سيتلقّاه، لكنه كان يعلم ما هو أكثر من ذلك؛ أنه سيحصل على الراحة التي تبعثها النار في أوصاله، وعلى حماية الآلهة له، وعلى صحبة الكلاب. هي صحبة من الأعداء حقًّا، لكها صحبة على أي حال، وتُرضي احتياجه للحياة في جماعة.

تقدّم ناب أبيض يزحف متصاغرًا حتى وصل إلى محيط ضوء النار، فرآه السمّور الرمادي وتوقّف عن مضغ الدهن، فإذا بناب أبيض يواصل الزحف ببطء منبطحًا في خضوع وتذلّل، في اتجاه السمّور الرمادي، ومع كل بوصة إلى الأمام تزداد خطوته بطئًا وتصبح أكثر إيلامًا. رقد ناب أبيض تحت قدمي السَّيّد، وقد خضع لمشيئته، طائعًا، جسمًا وروحًا. نعم، أتى الآن باختياره، لكي يجلس بجوار النار التي يشعلها الإنسان، ويخضع لحُكمِه. ارتعش ناب أبيض منتظرًا العقوبة أن تسقط على ظهره، وكانت ثمة حركة ليدٍ فوقه، فانكمش - من دون إرادة منه - في انتظار الضرب المُتوقّع من السمّور الرمادي، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. عندئذٍ، اختلس ناب أبيض نظرة إلى أعلى، ورأى السمّور الأبيض يقسم قطعة الدهن إلى نصفين! ثم قدّم إليه إحداهما! تناول ناب أبيض الدهن بهدوء حذر، فتشمّمه أولًا ثم شرع في أكله. لاحظ السمّور الرمادي جوعه فأمر بإحضار مزيدٍ من اللحم له، فتناوله على حين قام السمور الأبيض بحمايته من الكلاب الأخرى في المخيّم. بعد ذلك تمدّد ناب أبيض، راضيًا ممتنًّا، بجوار قدمي السمّور الرمادي، يحدّق في النيران التي تبعث الدفء في أوصاله، ترمش عيناه أو تغفوان، وهو آمن مطمئن إلى أنه في الغد لن يتجوّل بائسًا في أرجاء الغابة الموحشة، بل سيكون في المخيم الذي أقامه البشر، مع الآلهة التي منحها نفسه، والتي سيكون معتمدًا عليها منذ هذه اللحظة.

5

العهد

خرج السمور الرمادي في رحلة على نهر ماكينزي، في منتصف شهر ديسمبر، واصطحب معه ابنه ميتساه وزوجته كلوكوش. كان معهم زلّاجتان، الأولى يقودها السمّور الرمادي، وتجرّها كلاب حصل عليها بالاستعارة أو المقايضة. وزلّجة أخرى أصغر حجمًا يقودها ميتساه، ويجرها فريق من الجراء. هذه الزلّاجة كانت أقرب إلى أن تكون لعبة من أي شيء آخر، ورغم ذلك كان الأمر مصدر بهجة للابن الذي شعر بأنه بذلك يبدأ مهمّات حياته كرجل، وكانت تلك التجربة هي أيضًا بداية ممارسته لقيادة الكلاب وتدريبها وهي مشدودة إلى الزلّاجة. وفوق ذلك كله، كانت الزلّاجة ذات فائدة كبيرة، إذ حُمِّلت بنحو مائتي رطل من المعدّات والطعام.

سبق لناب أبيض أن رأى كلاب المخيم وهي تكدح مربوطة بالزلّاجة، لذا لم يعترض كثيرًا عندما شُدّت عليه الألجمة للمرة الأولى. وُضع حول عنقه طوق محشوّ بالطحالب، يصله اثنان من سيور الجر بحزام يمر حول صدره وفوق ظهره. والحزام مربوط بالحبل الطويل الذي تُجَرّ به الزلّاجة.

يضم الفريق سبعة جراء، وكانت الكلاب الأخرى قد وُلدت مبكرًا في العام نفسه، وتبلغ من العمر تسعة شهور أو عشرة، على حين لم يتعدَ عمر ناب أبيض الثمانية شهور. كان كل واحد من الكلاب مشدودًا إلى الزلّاجة بحبل منفصل، وكل حبل بطول مختلف، مع ملاحظة أن الفرق

في الطول بين حبل وآخر يساوي على الأقل طول جسم الكلب. وكلّ حبل ينتهي من ناحية الزلّاجة مربوطًا في حلقة معدنية. أما الزلّاجة نفسها فهي من دون نعلين، أي إنها ذات سطح سفلي منبسط ملاصق للجليد، على حين تتّجه مقدمتها إلى أعلى قليلًا حتى لا تنغرز في الجليد. هذا التركيب للزلّاجة ساعد على توزيع وزنها وحمولتها على أكبر مساحة ممكنة من سطح الجليد الذي كان فائق النعومة كأنه بلّور مسحوق. ومراعاة لمبدأ التوزيع الواسع للوزن، انتشرت الكلاب في نهاية الحبال على شكل مروحة تمتد من مقدّمة الزلّاجة، بحيث لا يتعثّر كلب في خطوات كلب آخر.

كانت هناك فائدة إضافية لشكل المروحة، ألا وهي أن الأطوال المختلفة للحبال منعت كل كلب من مهاجمة الكلب الذي يجري أمامه، ولكي يهاجم كلب كلبًا آخر خلفه، فسيُضطر إلى الالتفات إلى الوراء، وعندئذٍ سيكون عليه مواجهة ليس فقط الكلب الآخر المربوط في حبل أقصر، وإنما أيضًا السوط الذي يمسكه سائق الزلّاجة في يده. أما أكثر ما يتميّز به شكل المروحة، فهو أن الكلب الذي يجاهد لكي يهاجم الآخر الذي يتقدّمه، يجد أنه من اللازم عليه أن يشدّ الزلّاجة بسرعة أكبر، بينما كلما انطلقت الزلّاجة بسرعة أكبر، استطاع الكلب الذي في المقدّمة الهرب من مطارده. إذًا أي كلب لا يستطيع مطلقًا اللحاق بالكلب الذي يسبقه، فكلما زادت سرعة الكلب الثاني في الترتيب، زادت بنفس القدر سرعة الكلب الأول، بل في الحقيقة زادت سرعة الكلاب كلّها. وهكذا ازدادت سرعة الزلّاجة تلقائيًا، بعد أن استغلّ الإنسان الدهاء الذي يتميّز به لكي يُحكم سيطرته على تلك الحيوانات الشرسة.

شابه ميتساه أباه السمّور الرمادي إلى حدٍّ كبيرٍ، وامتلك كثيرًا من حكمته. وما أكثر ما لاحظ ميتساه اضطهاد ليـپ ليـپ لناب أبيض، غير أن ليـپ ليـپ في ذلك الوقت كان ينتمي لمالك آخر، فلم يكن يجرؤ

ميتساه أن يعاقبه بأكثر من أن يلقي عليه حجرًا من حين لآخر. أما الآن فقد صار ملكًا له، ويحق له أن يُنزل به العقوبة التي يراها ماسبة، وهكذا وضعه في نهاية أطول حبل. صحيح أن ذلك جعل ليـپ ليـپ قائدًا، وهو موقع يبدو في الظاهر تشريفًا له، لكنه في حقيقة الأمر نزع عنه كل تشريف، وبدلًا من أن يكون هو السيد والمتنمّر في الفريق، إذا به يجد نفسه مكروهًا ومُضطهدًا من أفراد الفريق.

كان ليـپ ليـپ إذًا يجري في نهاية أطول حبل، لذا تراه الكلاب يجري أمامها، وكل ما تراه منه هو ذيله الكث وقائمتيه الخلفيتين تفرّان أمامها، وهو بالتأكيد مشهد أقل شراسة وتخويفًا من هالة الشعر المنتفشة حول رأسه وأنيابه اللامعة. ومن ناحية أخرى، فإنه بحسب الطريقة التي تعمل بها مداركها، فإن منظر ليـپ ليـپ وهو يجري مبتعدًا يبثّ فيها الرغبة في مطاردته، مع إحساس بأنه يفرّ منها.

انطلق أفراد الفريق جميعًا في أعقاب ليـپ ليـپ منذ اللحظة الأولى لحركة الزلّاجة، وظلّوا يطاردونه طوال اليوم. في البداية، خطر بباله أن يلتفت فيواجه مطارديه، غضبًا وغيرة لكرامته، لكن ميتساه كان يعاجله في وجهه بلسعات موجعة من سوطه، الذي يبلغ طوله ثلاثين قدمًا. اضطُرّ ليـپ ليـپ عندئذٍ إلى العودة إلى وضعه الأول والاستمرار في الركض، فهو قد يستطيع مواجهة القطيع لكن لا يُمكنه مواجهة ذلك السوط المصنوع من أمعاء الوعول. ولم يبقَ له ما يفعله بعد ذلك، سوى أن يحفظ الحبل الطويل مشدودًا، ويحتفظ بخاصرتيه في موضع متقدّم عن أسنان رفاقه.

يبدو أن ثمة بعض المكر الكامن في عقل ميتساه، ذلك الشاب ذي الأصل الهندي، الذي أراد ألا تنتهي مطاردة الكلاب للقائد، فكان يؤثر ليـپ ليـپ على رفاقه الكلاب في الطعام، مما أثار غيرتها وكراهيتها. على سبيل المثال اعتاد ميتساه أن يؤثر الكلب ليـپ ليـپ بقدر إضافي من اللحم، في حضور رفاقه، وكان ذلك يكاد يصيبها بالجنون، فتقف هائجة

من الغضب خارج مجال لسعات السوط في يد ميتساه، بينما يتناول ليـپ ليـپ اللحم في حمايته. وحتى عند غياب اللحم، يدفع ميتساه الكلاب إلى البقاء بعيدًا ويتظاهر بتقديم اللحم للقائد.

تقبّل ناب أبيض العمل برضا، فقد قطع شوطًا أكبر من الكلاب الأخرى إلى أن استسلم لحكم الآلهة، بعد أن علّمته التجربة عدم جدوى معارضة لإرادتهم. ويضاف إلى ذلك أن الاضطهاد الذي عانى منه من قِبَل القطيع جعله لا يهتم به كثيرًا، بالمقارنة بالاهتمام الذي يوليه للإنسان، وهو على كل حال قد أدرك أن عليه ألّا يعتمد على آخرين من نوعه للاستمتاع بالصحبة. وقد كاد ناب أبيض من ناحية أخرى ينسى كيتش، والمجال الرئيسي الآن للتعبير عن نفسه هو الولاء الذي يقدّمه للبشر بصفتهم السادة، بل الآلهة. تلك الأسباب مجتمعة جعلت ناب أبيض يجتهد في العمل، ويهتم بتعلّم قواعده، ويحرص على الطاعة، فكان يؤدّي المطلوب منه بإخلاص وعن طيب خاطر. تلك الصفات كانت ضرورية في الذئاب والكلاب البرّية عندما تُستأنس، وهي صفات توفّرت في ناب أبيض بقدر أكبر من المعتاد.

نعم، عرف ناب أبيض نوعًا من الصحبة مع الكلاب، لكنها صحبة القتال والعداوة، فهو لم يُجرّب مطلقًا أن يلعب معها، بل كان يعرف فقط كيف يحاربها، وهو ما بدأ يفعله، ليعيد لها أضعاف ما اعتاد أن يتلقّاه منها من عض ونهش عندما كان ليـپ ليـپ هو قائد القطيع. أما الآن فإن ليـپ ليـپ لم يعُد هو القائد سوى في الأوقات التي يفرّ أمام رفاقه مربوطًا في نهاية الحبل الطويل، والزلّاجة في إثرهم جميعًا. أما في المخيم، فهو حريص على البقاء بالقرب من ميتساه أو السمّور الرمادي أو كلوكوش، حيث لا يجرؤ على المجازفة بالابتعاد عن الآلهة، بعد أن صارت أنياب الكلاب كلّها تعاديه، وها هو ذا يتجرّع حتى الثمالة ما سبق أن سقاه لناب أبيض من اضطهاد.

كان من الممكن أن يصبح ناب أبيض قائدًا للقطيع، بعد سقوط ليـپ ليـپ، غير أن ما اتصف به من جهامة وانعزال لم يساعد على ذلك. هو يوسع رفاقه ضربًا، أو يتجاهلهم، وهم من الناحية الأخرى يبتعدون عن طريقه إذا مرّ بهم، ولا يجرؤ - حتى أكثرهم جرأة - على أن يسلبه طعامه. بل أكثر من ذلك كانت الكلاب الأخرى تلتهم نصيبها من الطعام على عجل، خوفًا من أن يسلبها إياه. أما ناب أبيض، فقد حفظ الدرس جيدًا: «عليه أن يضطهد الضعيف، ويطيع القويّ»، لذا فقد اعتاد أن يتناول نصيبه من اللحم بأقصى سرعة ممكنة، والويل بعد ذلك للكلب الذي لم يأتِ على طعامه! هي مجرّد زمجرة، تعقبها عضّة من ناب أبيض، ثم يشرع الكلب في النباح شاكيًا لنجوم السماء، التي لا تستطيع له شيئًا، من ناب أبيض الذي يقوم بالتهام طعامه.

وقد يشتعل غضب أحد الكلاب، من حين لآخر، فيثور ضد ناب أبيض، فيقوم الأخير على الفور بإخضاعه. وكان ذلك بمثابة تدريب له، إذ حرص ناب أبيض على العزلة التي يعيش فيها في قلب القطيع، بل حارب لكي يُبقي عليها. فعل ذلك من خلال معارك لا تستغرق سوى قليل من الوقت فهو في غاية السرعة مقارنةً بالكلاب الأخرى. وهكذا تجد الكلاب نفسها وقد نُهشت أجسامُها واندفع الدم منها قبل أن تعرف ماذا حدث، وإذا بها مثخنة بالجراح قبل أن تشرع في القتال!

كان النظام الذي فرضه ناب أبيض على الكلاب لا يقل صرامة عن النظام الذي تفرضه الآلهة أثناء سير الزلّاجتين! لم يسمح لها على الإطلاق بالتصرّف كما يحلو لها، بل ألزمها بإظهار احترامها له طوال الوقت، فلتفعل الكلاب ما تشاء في ما بينها، فليس هذا من شأنه، غير أنه لا يتهاون في ضرورة عدم التعرّض له، والابتعاد عن طريقه إذا ما اختار أن يخرج منها ويمشي بين الكلاب، وفي كل الأوقات عليها أن تعترف بسيادته عليها. أما إذا أظهر أحدها لمحة تدلّ على التحدّي، قوائم متصلّبة

مثلًا أو تكشير عن أنياب، أو شعر منتفش، فإن ناب أبيض ينقض عليه بقسوة وبلا رحمة، وسرعان ما يقتنع بالخطأ الذي وقع فيه.

صار ناب أبيض ظالما مستبدًا، وسيادته صارمة صلبة كالحديد، وهو لا يكف عن اضطهاد الضعيف، بروح انتقامية قاسية. ولا شك أنه تأثّر في ذلك بكفاحه القاسي في طفولته، عندما كان هو وأمه، وحدهما، ومن دون مساعدة أحد، يواجهان الحياة، إلى أن تغلّبا على البيئة القاسية في البراري. ولا بد أن ثمة حكمة في أن يتعلّم ناب أبيض أن يسير بخفة وهدوء عندما يكون الذين يفوقونه في القوّة موجودين في الجوار. نعم، لقد اضطهد الضعيف، واحترم القويّ، وفي غمار الرحلة الطويلة مع السمّور الرمادي، حرص على أن يسير بخفّة وهدوء بالفعل بين الكلاب المكتملة النمو، التي التقى بها في مخيمات الغرباء التي مروا بها في رحلتهم.

مرت الشهور متتابعة، ولا تزال رحلة السمور الرمادي مستمرّة. وأخذت قوة ناب أبيض تنمو وتزداد نتيجة لساعات العمل الطويلة على الطريق، والجهد الذي يبذله في الجر يومًا بعد يوم، كذلك بدا أن نمو عقله قد قارب الاكتمال. هو الآن يعرف العالم الذي يعيش فيه معرفة كافية، والحق أن رؤيته لذلك العالم كانت مادية تشاؤمية، فقد رآه مكانًا مليئًا بالشراسة والوحشية، خاليًا من المودة، لا مكان فيه للعاطفة الدافئة أو الروح العذبة اللطيفة.

ولم يحمل ناب أبيض أي محبة للسمور الرمادي. حقًا هو إله، لكنه إله شديد الشراسة، قبل ناب أبيض راضيًا سلطانه، المُستمدّ من تفوّقه في الذكاء، وفي القوّة الوحشية. ثمة شيء ما في التكوين الداخلي للناب الأبيض جعل ذلك السلطان مرغوبًا، وإلا لما ترك البراري وعاد إلى المخيم، وعبّر عن ولائه للسمور الرمادي. لا شك أن هناك أعماقًا بعيدة في طبيعة ناب أبيض لم تعبّر عن نفسها قط، ولعل كلمة حانية أو لمسة

ملاطفة من السمور الرمادي كانت تستطيع تحريك تلك الأعماق، لكن السمور الرمادي لا يداعب ولا يتفوه بكلمات حانية، فليس هذا أسلوبه. إن تفوّقه كان مرتبطًا بشراسته، وبها كان يحكم، فالعصا هي وسيلته لتطبيق العدل، والضرب المؤلم هو طريقته لمعاقبة أي تجاوز، أما مكافأة الإجادة، فهي ليست بالعطف أو الرفق، وإنما فقط بالامتناع عن الضرب.

لم يعرف ناب أبيض إذًا شيئًا عن النعيم الذي يمكن أن تحمله يد الإنسان له، بل لم تحمل نفسه أي ميل لأيادي البشر، إذ كان دائمًا يساوره الشك فيها. صحيح أنها تلقي باللحم أحيانًا، لكنها أيضًا تسبّب الأذى. يجب عليه إذًا أن يبتعد عنها قدر استطاعته، فهي تقذف الحجارة وترفع العصي والهراوات والسياط، وتُجيد الضرب والصفع، وعندما تلمسه تلك الأيادي فهي تنجح في إيلامه. ولقد اختبر أيادي عديد من الأطفال الذين التقى بهم في القرى الغريبة التي مرّ بها في سفره، وأدرك أنها قادرة على الإيذاء بقسوة، وكادت إحداها تفقأ إحدى عينيه، وهي يد طفل من أصل هندي يحبو في واحد من المخيمات التي مرّ بها. لقد علّمته تلك التجارب أن يكون حذرًا من الأطفال جميعًا. هو الآن لا يكاد يتحملهم، وما إن يرى أحدهم يقترب منه مادًّا يديه المنذرتين بالشر حتى ينبعث واقفًا على الفور.

كان ناب أبيض يواجه الشر المتمثّل في يد بشرية، في إحدى القرى المطلّة على بحيرة «جريت سليف»، عندما هيّأت له الظروف إضافة شيء من التعديل على القانون الذي تعلمه من السمّور الرمادي، وهو بالتحديد البند القائل إن الجريمة التي لا يمكن غفرانها هي القيام بعضّ أحد الآلهة. في هذه القرية، أخذ ناب أبيض، كما هي عادة كل الكلاب في كل القرى يلتمس طعامًا يأكله، فإذا به يرى صبيًا بيده بلطة يستخدمها في تقطيع لحم وعل متجمد إلى شرائح، وأخذت بعض رقائق من ذلك اللحم تتطاير وتسقط على الجليد، فتقدّم منزلقًا على الجليد، ثم شرع في

التهامها. لاحظ ناب أبيض أن الصبي وضع البلطة جانبًا، وأمسك بهراوة ضخمة، فوثب بخفة مبتعدًا، وبالكاد نجا من الضربة التي نزلت بها يد الصبي. طارده الصبي، وبصفته غريبًا عن المكان، فقد ركض ناب أبيض فارًا بين خيمتين، ثم وجد أمامه حاجزًا يسدّ عليه الطريق.

لم يكن ثمة مخرج للناب الأبيض، فالطريق الوحيد المفتوح أمامه، بين الخيمتين، يقف على رأسه الصبي وقد أخذ يقترب منه استعدادًا للانقضاض عليه بهراوته. استبد الغضب بناب أبيض، لإحساسه بالظلم، وواجه الصبي مزمجرًا وقد انتفش شعره؛ فهو يعرف قانون البحث عن الطعام. ينصّ القانون على أن قطع اللحم، مثل الرقائق المتجمدة المتطايرة، تصبح من حق الكلب الذي يجدها. هو لم يرتكب أي خطأ إذًا، ولم يخالف أي قانون، ومع ذلك يقف هذا الصبي متربّصًا به ليضربه. لا يكاد ناب أبيض يعرف ما حدث على وجه التحديد، فقد تمّ في نفثة غضب، وبسرعة كبيرة، حتى إن الصبي نفسه لم يفهم ما جرى أيضًا. لم يدرك الصبي سوى أنه بطريقة غامضة وجد نفسه وقد انقلب على الجليد، وأن يده التي كانت تحمل الهراوة قد أُصيبت بجرح غائر من أسنان ناب أبيض.

أدرك ناب أبيض أنه قد خرق قانون الآلهة، بعد أن انغرزت أسنانه في اللحم المقدّس لواحد منها، لذا لم يتوقّع شيئًا أقل من عقوبة فظيعة. هرب ناب أبيض مسرعًا إلى السمّور الرمادي، حيث جثم وراء ساقَيْه بحثًا عن الحماية، وعندما جاء الصبي المصاب وعائلته يطالبون بالانتقام، انصرفوا من دون تحقيقه. لقد دافع عنه السمّور الرمادي، وكذلك فعل ميتساه وكلوكوش، وعندما استمع ناب أبيض للحرب الكلامية التي جرت أمامه، وراقب الإيماءات الغاضبة أدرك أن فعلته كانت مُبَرّرة. وهكذا، تعلم ناب أبيض أن هناك نوعين من الآلهة: الآلهة التي ينتمي إليها، ثم آلهة أخرى، وثمة اختلاف بينهما. إن من واجبه أن يتقبّل كل

شيء من آلهته، سواء كان عدلًا أو ظلمًا، لكنه غير مضطر لقبول الظلم من الآلهة الأخرى، بل من حقّه أن يرفضه، ولو استخدم أسنانه. وهذا أيضًا هو أحد قوانين الآلهة.

وقبل نهاية اليوم، كان ناب أبيض قد تعلّم شيئًا آخر عن هذا القانون. خرج ميتساه بمفرده يجمع بعض الأخشاب للنار من الغابة، فالتقى بالصبي المصاب، وبصحبته صبية آخرون، وتطايرت الكلمات الحادة بين الطرفين، ثم هجم الصبية جميعًا على ميتساه. بدأ الأمر يزداد صعوبة على ميتساه، إذ أخذت الضربات تتوالى عليه من كل جانب. أما ناب أبيض فقد نظر إلى المشهد ورأى في البداية أن هذا شأن الآلهة، ولا يخصّه. ثم أدرك أن ذلك الذي يتعرّض لتلك المعاملة السيئة هو ميتساه، واحد من الآلهة التي ينتمي إليها، وإثر دافع بدا غير مفهوم، انطلق ناب أبيض يفعل ما فعله بعد ذلك. لقد أرسلته نوبة غضب جنونية، فانطلق يَثِب بين جماعة المتحاربين، وبعد خمس دقائق صارت صفحة الأرض مغطاة بالصبية الهاربين، وبعضهم كان ينزف دمًا على صفحة الجليد، بما يدلّ على أن أسنان ناب أبيض لم تتعطّل عن العمل في تلك الدقائق. وعندما قصّ ميتساه القصة في المخيم في ما بعد، أمر السمّور الرمادي بتقديم كمية كبيرة من اللحم لناب أبيض. وبينما رقد ناب أبيض متخمًا يكاد يغرق في النوم بجوار النار، تأكّد من صحة ذلك القانون.

وامتدادًا للتجارب التي تعلّم منها ناب أبيض، فقد تعلّم أيضًا قانون الملكية، وواجبه في الدفاع عن الملكية. لقد خطا خطوة جديدة، هي تلك الخطوة من الدفاع عن جسم الإله إلى الدفاع عن أملاك الإله، فالذي يخُصّ الإله يجب الدفاع عنه ضدّ العالم كلّه، حتى لو اقتضى ذلك عضّ الآلهة الأخرى. لم يكن ذلك الفعل فقط مدنِّسًا بطبيعته، بل كان أيضًا محفوفًا بالمخاطر. الآلهة البشرية ذات قوة باطشة، لا ترقى إليها قوة أي كلب، غير أن ناب أبيض تعلّم كيف يمكنه مواجهتها كمحاربٍ

شرسٍ، لا يعرف الخوف، فالواجب يعلو على الخوف، وهكذا تعلّم البشر اللصوص أن يبتعدوا عن ممتلكات السمور الرمادي.

وسرعان ما تعلّم ناب أبيض شيئًا إضافيًا في هذا السياق، وهو أن الإله السارق يتميّز عادة بالجُبن، ومن المتوقّع أن يفرّ هاربًا بمجرد سماع أي إنذار. وتعلّم كذلك أنه لا يمر سوى وقت قصير جدًّا بعد الإنذار، ثم يأتي السمّور الرمادي لمساعدته، وأدرك أن ما يرسل اللص بعيدًا ليس الخوف منه بل من سيّده. ولم يستخدم ناب أبيض النباح للتنبيه، فهو لا ينبح مطلقًا، وإنما طريقته هي أن يهاجم المتطفّل على الفور ويغرز أسنانه في جسمه إذا استطاع. ولا شكّ في أن ناب أبيض بما اتصف به من قسوة وميل إلى العزلة يجعله مختلفًا عن بقية الكلاب، كان هو الأنسب لتولّي مهمّة حماية ممتلكات سيده، وقد شجّعه السمور الرمادي على ذلك وحرص على تدريبه. ونتيجة لذلك كله صار ناب أبيض أكثر شراسة ومنعة، وأكثر عزلة أيضًا.

تتابعت الشهور، والعهد الذي يربط بين الإنسان والكلب يزداد قوة على قوة. إنه العهد القديم نفسه الذي التزم به مع الإنسان الذئب الأول الذي جاء من البراري، ومثل كل الذئاب والكلاب البرية التي فعلت ذلك في ما بعد، عمل ناب أبيض على الاستفادة من ذلك العهد. كانت البنود بسيطة: هو يقدّم حرّيته مقابل أن يكون له إله من لحم ودم، وذلك الإله يمنحه أشياء منها الطعام والدفء، والحماية والصحبة. أما هو فعليه أن يقوم بحراسة أملاك الإله، ويدافع عن جسمه ضد أي اعتداء، ويقوم بما يكلّفه به من أعمال، ويلتزم بطاعته.

من الواضح أن العهد مع ذلك الإله تطلّب من ناب أبيض القيام بعدّة خدمات. وقد قام بها جميعًا رهبة منه، واستجابة لنداء الواجب، وليس تعبيرًا عن الحب. نعم، لم يعرف ناب أبيض ما هو الحب، ولم تكن له خبرة سابقة عنه، حتى كيتش صارت مجرد ذكرى قديمة. يُضاف إلى ذلك

أنه لم ينبذ البراري وفصيلته كلّها عندما أعلن خضوعه للإنسان، بل إن شروط العهد كانت تقتضي أنه إذا التقى بأمّه كيتش مرة أخرى، فلن يكون مقبولًا منه أن يترك إلهه ويذهب معها. إن خضوعه للإنسان يبدو وكأنه بطريقة ما قانون يتعلّق بوجوده، ويتجاوز في الأهمية حبّه للحرية ولأقاربه وللنّوع الذي ينتمي إليه.

6

المجاعة

عندما أنهى السمور الرمادي رحلته الطويلة، كان فصل ربيع ذلك العام قد اقترب. جاء شهر إبريل، وقد أكمل ناب أبيض عامًا من عمره، عندما عادوا إلى القرية، وقام ميتساه بإطلاق سراحه من سيور الجرّ. ورغم أنه لا يزال بعيدًا عن مرحلة اكتمال النمو، فإن ناب أبيض كان التالي في الحجم للكلب ليـپ ليـپ في مجموعة الكلاب التي تعدّت عامًا من العمر في القرية. وقد ورث عن والده الذئب وعن أمّه كيتش القوّة والحجم، وكاد حجمه يساوي حجم أي كلب آخر مكتمل النمو، غير أن جسمه لم يتماسك بعدُ كما ينبغي، بل هو ضامر نحيل الأطراف، أما قوته فترجع إلى قوة عضلاته، وليس إلى ضخامة جسمه. تميز فراؤه بالشكل المعتاد لفراء الثعلب، وهو على كل حال من ناحية المظهر كان ذئبًا حقيقيًا. أما اللمحة من سلالة الكلاب التي ورثها من ناحية أمّه كيتش، فلم تترك عليه أثرًا ماديًا، رغم أنها لعبت دورًا في تكوينه العقلي.

تجوّل ناب أبيض في القرية، فرأى بعين أكثر حكمة ورضا عددًا من الآلهة التي سبق له رؤيتها قبل الرحلة الطويلة. رأى أيضًا عددًا من الكلاب، بعضها لا يزال في مرحلة النمو مثله، وأخرى مكتملة النمو، وإن بدت في عينيه أقل ضخامة وقوة من الصورة التي يحتفظ بها في ذاكرته، لذا وقف بينها وقد زال خوفه السابق منها، ومشى بينها باعتداد ولا مبالاة، وهي مشاعر لم تكن فقط جديدة بالنسبة له، وإنما ممتعة أيضًا.

باسيك كان واحدًا من تلك الكلاب. هو كلب عجوز جسمه مبرقش بلون رمادي، كان يكفيه في الماضي أن يُكشّر عن أنيابه للناب الأبيض فيتَصَاغر في خضوع، ثم ينصرف في الاتجاه الآخر. لقد أدرك ناب أبيض من خلال علاقتهما القديمة كم هو صغير وغير مؤثّر، وها هو ذا يدرك الآن، من خلال علاقته الجديدة به، على ما سنرى، كم نَمَت شخصيته وتطوّرت، إذ بينما ازداد باسيك ضعفًا مع التقدّم إلى الشيخوخة، ازداد ناب أبيض قوّة مع التقدم إلى الشباب.

كان ثمة وعل تَمّ اصطياده مؤخّرًا، وأثناء تقطيع اللحم وتقسيمه، حدث ما جعل ناب أبيض يُدرك أن علاقاته بعالم الكلاب قد تغيرت. لقد حصل من هذه الفريسة على أحد الحوافر وجزء من عظمة الساق، التي التصق بها كثير من اللحم، فانسحب ناب أبيض من زحام الكلاب الأخرى المتدافعة من غير نظام، بل في الحقيقة انزوى وراء أجمة منعزلة، حيث شرع في التهام نصيبه، وإذا بالكلب باسيك يقتحم المكان. وقبل أن يعي ما يفعل، كان ناب أبيض قد انقض على الكلب المتطفل ونهشه مرتين ثم عاد إلى مكانه. أما باسيك فقد فوجئ بسرعة الهجوم وما ينطوي عليه من جرأة، فوقف يحملق في غباء في ناب أبيض ونصيب اللحم الطازج ممدد بينهما.

لقد تقدّم العمر بالكلب باسيك، وهو بالفعل يعرف الجرأة التي تميز الكلاب الآن وقد تميز بها من قبل عندما كان هو الطرف المتنمّر. أما الآن، فإن مثل هذه التجارب المريرة عليه مواجهتها بحكمة حتى يُمكنه تجاوزها. لو حدث ذلك الموقف في الماضي لانقضّ على ناب أبيض في سورة غضب مبررة، أما الآن فإن قواه المتداعية لا تسمح له بمثل هذا السلوك. وهكذا اكتفى بنفش شعره بشراسة وإرسال نظرة مُهدّدة إلى ناب أبيض الواقف على الجانب الآخر من نصيب اللحم. أما ناب أبيض فقد انبعث في نفسه فجأة شيء من الهيبة القديمة للكلب العجوز، جعله

ينكمش على نفسه حتى بدا أصغر حجمًا، على حين أخذ يفتش في عقله عن طريقة للتراجع بكرامة.

ارتكب باسيك خطأً فادحًا في تلك اللحظة، فلو اكتفى بتلك النظرة الشرسة المهددة، لمرّ الأمر بسلام، فناب أبيض كان على وشك التراجع عن المواجهة، وترك نصيبه من اللحم. ما حدث هو أن باسيك لم ينتظر، إذ بدا له أن اللحم قد صار من نصيبه فتقدّم في اتجاهه. وبينما انحنى بلا مبالاة ليشمّ اللحم، انتفش شعر ناب أبيض قليلًا. وحتى تلك اللحظة، لم يكن الوقت قد تأخّر لكي يستعيد باسيك سيطرته على الموقف، ولو اكتفى حينئذٍ بالوقوف أعلى اللحم، شامخًا برأسه ومتجهّمًا، لكان ناب أبيض في نهاية الأمر انسل مبتعدًا، لكن رائحة اللحم الطازجة تسلّلت إلى منخاري باسيك، فدفعه الطمع إلى أن يحصل على قضمة.

كان ذلك أكبر من قدرة ناب أبيض على الاحتمال. لم يكن من المقبول بعد شهور من السيطرة على فريق الكلاب الذي شاركه في جر الزلّاجة أن يقف هكذا ساكنًا، بينما يلتهم كلب آخر طعامًا يخصّه. نعم، كان الأمر كلّه أكبر من قدرته على التحكّم في نفسه. انقض ناب أبيض على غريمه من دون إنذار، كما هي عادته، وفي الهجمة الأولى تهتّكت الأذن اليمنى لباسيك. ذهل الكلب العجوز من المفاجأة، غير أن مفاجآت أخرى أكثر فظاعة كانت في الطريق، وبنفس الشكل المفاجئ. لقد أُفقد باسيك توازنه، وهجم ناب أبيض قاصدًا عض رقبته، وبينما كان يجاهد لاستعادة توازنه غرز ناب أبيض أسنانه مرتين في كتفه. تحيّر باسيك من تلك السرعة التي حدثت بها الأمور، وحاول أن ينال من ناب أبيض، لكن المحاولة كانت غير مجدية إذ انطبق فكّاه على الهواء في انقضاضة غاضبة. وفي اللحظة التالية، نُهِشَ أنفه بعنف، فإذا به يترنّح مبتعدًا عن اللحم.

انعكس الموقف الآن، فناب أبيض يقف متوعّدًا بجوار عظمة ساق

الوعل، وقد انتفش شعره، على حين وقف باسيك على مبعدة، يتهيأ للانسحاب. لم يجرؤ باسيك أن يجازف بمحاربة الذئب الذي تنزل ضرباته بسرعة البرق.وقد أدرك، والمرارة تملأ نفسه، الضعف الذي لا بد أنه قد حلّ بجسمه مع التقدّم في العمر. حاول الكلب العجوز الحفاظ على كرامته، وبجهد بطولي، التفت موليًا ظهره للكلب الشاب ونصيبه من اللحم، وكأنهما خارج دائرة ملاحظته أو لا يستحقان اهتمامه، ثم ابتعد متشامخًا مُتعاليًا. ولم يتوقّف باسيك ليلعق جراحه النازفة إلا بعد أن ابتعد تمامًا عن دائرة رؤية غريمه.

ساعدت تلك الحادثة ناب أبيض على تزايد إيمانه بقدراته، واعتزازه بنفسه. صار يسير بثقة هادئة بين شباب الكلاب، كما أصبح أقل ميلًا لإظهار التوافق معهم. لم يسعَ على الإطلاق لإثارة أي مشكلات، بل كان فقط حريصًا على أن يكون ممن يُحسب لهم حساب، فلا شك في أنه يحقّ له أن يمضي في طريقه من دون أن يتعرّض لأي مضايقات، أو يُضطر لإفساح الطريق لكلب آخر. نعم، كل ما يسعى إليه هو أن يؤخذ مأخذ الجد، فلم يعد يقبل أن يكون منبوذًا أو متجاهَلًا، كما كان يحدث مع رفاقه من الكلاب، التي عليها أن تفسح الطريق للكلاب الأكبر سنًا، وتُضطر للتنازل لها عن طعامها أيضًا. أما ناب أبيض المحب للعزلة، حتى إنه لا يكاد يصحب أحدًا، ويندر أن يلتفت يمينًا أو يسارًا أثناء سيره، ذو الطلعة المهيبة المتجهّمة المنفرة، البعيد المتباعد عن الجميع، فهو وحده الذي قَبلت الكلاب الأكبر سنًا - بغير قليل من الاستغراب - أن يكون مساويًا لها. وسرعان ما تعوّدت الكلاب أن تتركه وشأنه، فلا تغامر تجاهه لا بسلوك عدائي ولا بمحاولات التودّد. «لا شأن لها به ولا شأن له بها»، هي الحالة التي وجدت الكلاب، بعد عدة مواجهات، أنها الأنسب في علاقتها به.

تعرّض ناب أبيض لتجربة جديدة في منتصف الصيف. كان يسير بخفة

مستطلعًا خيمة جديدة نُصبت على حافة القرية أثناء غيابه في رحلة لصيد الوعول، فإذا به فجأة يجد نفسه في مواجهة كيتش. لقد توقّف للحظة، ثم نظر إليها فتذكّرها بشكل غامض، لكنه تذكّرها على أي حال، أما بالنسبة لها فقد كان الأمر على العكس من ذلك تمامًا. لقد كشّرت عن أنيابها، وصدرت عنها الزمجرة القديمة المتوعدة، عندئذٍ لم تعد الذكرى مبهمة، إذ اندفعت في نفسه على الفور ذكريات طفولته التي كادت تُنسى، وكل ما كان مرتبطًا بتلك الزمجرة المعتادة. كانت كيتش هي مركز الكون بالنسبة له قبل أن يتعرف على الآلهة، والآن انبثقت في داخله كل المشاعر التي اعتملت في نفسه في تلك الفترة البعيدة، فهرول ناحيتها مبتهجًا لكنها قابلته بأنياب حادّة نهشت بها خده، فتسببت في إصابته بجرح عميق. لم يفهم ناب أبيض ماذا حدث، فتراجع متحيّرًا مرتبكًا.

لم تكن كيتش هي المخطئة، فالذئبة الأم ليس من طبيعتها أن تتذكّر صغارها بعد سنة من ولادتهم، لذا لم تتذكّر ناب أبيض، وهو بالنسبة لها الآن حيوان متطفّل، ومن واجبها أن تحمي صغارها حديثي الولادة من تطفّله واقتحامه لحياتهم.

وتمدّد أحد الجراء متطلّعًا إلى ناب أبيض، وكانا أخوين غير أشقّاء، وإن لم يُدركا ذلك. أخذ ناب أبيض يتشمّم أخيه بفضول، وفي الحال انقضت عليه كيتش فنهشت وجهه للمرة الثانية. تراجع ناب أبيض مبتعدًا، وقد ماتت بداخله كل الذكريات والصلات القديمة، وعادت إلى قبرها الذي بُعِثَت منه منذ قليل. ثم نظر إلى كيتش وهي تلعق جروحها وتتوقّف من حين لآخر لتزوم في وجهه، وقد أدرك أنها لم تعد ذات قيمة بالنسبة له، بعد أن تعّلم أن يمضي في الحياة من دونها. وهكذا صارت كيتش بلا أي معنى في حياته، بل لم يعد لها أي دور في أيامه المقبلة، تمامًا كما أنه لم يعد يمثّل لها أي شيء.

ظلّ ناب أبيض واقفًا لبعض الوقت، وقد سيطرت عليه الحيرة،

وغابت عنه الذكريات، وهو يتعجّب في بلاهة مما يجري، فإذا بكيتش تعاجله بالهجمة الثالثة التي تهدف بها إلى دفعه إلى خارج المنطقة تمامًا. وقد تركها ناب أبيض تدفعه بعيدًا، فهي أنثى من فصيلته، ومن قوانين الفصيلة أن الذكور لا يصح أن تتعارك مع الإناث. لم يعرف ناب أبيض شيئًا عن هذا القانون فهو لم يدركه بقدرة داخلية، ولم يهتدِ إليه من خبرته في العالم من حوله، بل عرفه كإلهام خفيّ، أو دافع غريزي، الغريزة نفسها التي تجعله ينبح ليلًا متوجّهًا إلى القمر والنجوم، كما تجعله يخاف من الموت ومن المجهول.

توالت الشهور، وناب أبيض ينمو ويزداد قوة ويكتسب المزيد من الوزن، ويصير جسمه أكثر اكتنازًا، بينما تنمو شخصيته على غرار ما تقتضيه الصفات الوراثية من ناحية والبيئة المحيطة به من ناحية أخرى. الوراثة تعطي مادة الحياة الشبيهة بالطين في قابليتها للتشكيل بطرق مختلفة لتعدّد إمكاناتها. أما البيئة فهي التي تقوم بتشكيل الطين، وإعطائه هيئته المتفرّدة الخاصّة. يمكن القول إذًا أنه لو لم يصحب ناب أبيض الإنسان، ويعيش في الدفء الذي تبعثه نار المخيمات، لشكّلته البراري على هيئة ذئب حقيقي. أما وقد أعطته الآلهة البشرية بيئة مختلفة، فقد أُعطي هيئة الكلب، مع بعض طباع الذئاب، فهو في حقيقة الأمر كلب وليس ذئبًا.

وهكذا لم يكن ثمة مفرٌّ من أن تشكّل شخصيته الخاصة تبعًا للمادة الأساسية الطبيعية مضافًا إليها الضغوط التي فرضتها الظروف المحيطة به. ها هو ذا يصبح أكثر تّجَهّمًا وانعزالية ونفورًا من الصحبة، وأكثر شراسة أيضًا، على حين تضاعف يقين الكلاب أنه من الأفضل أن تكون في سلام معه، على أن تكون في حرب. أما السمّور الرمادي فستزداد مكافآته له مع مرور الأيام.

ورغم كل ما اتّصف به ناب أبيض من صفات تدلّ على القوة، فقد كان

يعاني من نقطة ضعف تسبب له إزعاجًا شديدًا، وهي أنه لم يكن يحتمل أن يسخر منه أحد. كان ضحك البشر بالنسبة له شيئًا بغيضًا، فإذا كانوا يضحكون في ما بينهم لسبب يخصهم، فلا شأن له بذلك. أما إذا أصبح هو موضوعًا للضحك، فإن الغضب يجتاحه على الفور، وتتحوّل رصانته وجهامته واعتزازه بنفسه إلى هياج أحمق. كان الأمر يضايقه ويزعجه حقًا، حتى إنه قد يظل يتصرّف كشيطان صغير لساعات متتالية، والويل للكلب الذي يعترض طريقه أو يشتبك معه في تلك اللحظة. وناب أبيض يعرف القانون جيدًا، فلا يعبّر عن غضبه في مواجهة السمور الرمادي، الذي لديه رأس إله وفي يده هراوة. أما الكلاب فليس لديها إلا الأرض الخالية تفر إليها عندما يطاردها ناب أبيض وقد اعتراه الغضب.

كان ناب أبيض قد بلغ العام الثالث من عمره، حين حلّت مجاعة قاسية بالسكان الأصليين، ذوي الأصول الهندية، المقيمين حول نهر ماكينزي. كانت الأسماك شحيحة في الصيف، وفي الشتاء هجرت حيوانات الرنة مسارها المعهود، وصارت الوعول نادرة الوجود، أما الأرانب فكادت تختفي تمامًا. وكادت الحيوانات المفترسة تندثر، وذلك لأنها حُرِمت من نصيبها المعتاد من الطعام، وصارت أكثر ضعفًا بسبب الجوع، فأخذت تلتهم بعضها بعضًا، وبطبيعة الحال لم ينجُ إلا الأقوياء. كانت آلهة ناب أبيض مثل غيرهم من البشر يصطادون الحيوانات، وقد مات العجائز منها والضعفاء بسبب الجوع، وكثر العويل في القرية، حيث يتنازل الأطفال والنساء عن طعامهم القليل، لكي يعطوه للرجال ذوي الأجساد الضامرة والعيون الغائرة، الذين يجوبون الغابة بحثًا عن اللحم، من دون فائدة.

بلغ الأمر حدًا من السوء جعل البشر الآلهة يأكلون جلد أحذيتهم، وكذلك قفازاتهم التي تقيهم من البرد، على حين أكلت الكلاب السيور الجلدية المربوطة على ظهورها، وألسنة السياط المصنوعة من الجلد أيضًا. والاسوأ من ذلك أن الكلاب بدأت تأكل بعضها، بل إن البشر

الآلهة اِضطُروا إلى أكل الكلاب. بالطبع، التُهمت الكلاب الأكثر ضعفًا والأقل فائدة في البداية، أما الكلاب التي بقيت على قيد الحياة، فقد تطلّعت حولها وفهمت ما يحدث. وقررت بعض هذه الكلاب، الأكثر جرأة والأكثر ذكاءً على وجه التحديد، نبذ نيران الآلهة ومخيمها، الذي صار مثالًا للفوضى، والفرار إلى قلب الغابة، حيث انتهى الأمر ببعضهم إلى الموت جوعًا، على حين أكلت الذئاب الآخرين.

في تلك الأيام البائسة، تسلّل ناب أبيض أيضًا خارجًا إلى الأدغال، وقد كان أكثر ملاءمة لتلك الحياة من الكلاب الأخرى، فقد تلقّى في طفولته المبكرة، بعض التدريب الذي سيكون بلا شكّ مرشدًا له. وساعدته خبرته القديمة في النجاح في اقتفاء أثر الكائنات الحية الصغيرة. وقد يرقد مختبئًا لساعات، متتبعًا سنجابًا شديد الحذر في كل تحركاته، منتظرًا في صبر بالغ، لا يساويه إلا مقدار الجوع الذي يعانيه، إلى أن يغامر السنجاب بالنزول إلى الأرض. وفي تلك الحالة، لا يتعجّل ناب أبيض المكسب، بل ينتظر إلى أن يصبح واثقًا من إمكانية الانقضاض على السنجاب قبل أن يتمكّن من اللجوء إلى مخبئه في الشجرة. عندئذٍ، وعندئذٍ فقط، ينقضّ ناب أبيض منطلقًا من مكمنه، كقذيفة رمادية اللون، سريعة إلى حد لا يُصَدّق، ولا تخطئ الهدف أبدًا، وهو في هذه الحالة سنجاب هارب لم يهرب بالسرعة الكافية.

ورغم نجاحه في صيد السناجب، كانت هناك صعوبة واحدة منعت ناب أبيض من الاعتماد عليها في غذائه، واكتساب مزيد من الوزن، وهي ببساطة عدم وجود ما يكفي من السناجب، لذا صار لزامًا عليه أن يجد شيئًا آخر يتغذى عليه ولو كان أصغر حجمًا. ولقد بلغ به حدة الجوع في بعض الأحيان حدًّا جعله لا يتوانى عن نبش الأرض لاستخراج فئران الحقول من جحورها تحت الأرض، ولم يستنكف أن يقاتل حيونًا جائعًا مثله، وإن فاقه في الشراسة.

وقد تسلل في بعض الأيام التي بلغت فيها المجاعة حدًّا بالغ السوء إلى نيران الآلهة، لكنه لم يجلس بجوارها، بل ظل كامنًا في الغابة، متخفّيًا عن العيون، يرقب الشراك التي نصبها الإنسان ويستولي على الصيد القليل الذي يقع أحيانًا فيها. وقد استولى في واحدة من هذه المرّات على أرنب من الشرك الذي نصبه السمور الرمادي، بينما كان الأخير يجوب الغابة مترنّحًا حتى يكاد يتداعى، بحثًا عن الصيد، ولا يملك نفسه من الجلوس بين الحين والآخر ليستريح بسبب ضعفه وانقطاع أنفاسه.

التقى ناب أبيض في أحد الأيام بذئب صغير نحيل أعجف ضعفت مفاصله بسبب المجاعة. ولو لم يكن ناب أبيض جائعًا آنذاك لصحبه إلى قلب الغابة، حيث ينضم إلى القطيع الذي يضم إخوانه من الذئاب في البراري، لكنه كان في غاية الجوع، لذا هاجم ذلك الذئب وقتله، ثم أكله.

والحق أن الحظ حالف ناب أبيض، فهو دائمًا يجد ما يفترسه، مهما ساءت الأمور. ومن حسن حظّه أيضًا أنه في لحظات ضعفه لم يقع في براثن حيوانات مفترسة أكبر منه حجمًا. وهكذا؛ عندما طارده قطيع من الذئاب الجائعة، استطاع أن يسبقه، لأن ناب أبيض، الذي عاش وحده، كان قد تمتّع بوجبات مشبعة على عكس حالة قطيع من الذئاب. وهو لم ينجح في أن يسبق تلك الذئاب فحسب، بل أيضًا مضي يجري بشكل دائري حتى عاد إلى الطريق نفسه، وهاجم آخر أفراد القطيع الذي عطّله الإجهاد عن اللحاق برفاقه.

غادر ناب أبيض هذه المنطقة بعد تلك الحوادث، ورحل إلى الوادي الذي وُلدَ فيه. وهناك، في العرين القديم، التقى بكيتش، التي كانت، كعادتها القديمة قد هربت من نار الآلهة التي خَبَت، وعادت إلى مخبئها القديم، لكي تضع صغارها، الذين لم يبقَ منهم سوى واحد، عند وصول ناب أبيض. ولم يكن مُقدَّرًا لذلك الجرو الأخير أن يعيش طويلًا بعد ذلك، فأجسام الصغار ليس لديها إلا فرصة ضئيلة للنجاة من مثل تلك المجاعة.

كانت تحية كيتش لجروها الشاب أبعد ما تكون عن المودّة، لكن ناب أبيض لم يهتم، فهو الآن يفوقها حجمًا ويماثلها نضجًا. وهكذا أولاها ظهره برصانة، ومضى يهرول بمحاذاة جدول الماء. وعندما تفرّع الجدول في اتجاهين مضى ناب أبيض في اتجاه اليسار حتى وجد عرين أنثى الوشق التي سبق له منذ زمن طويل أن قاتلها مع أمه. وهناك، في ذلك العرين المهجور استقر لمدة يوم طلبًا للراحة.

التقى ناب أبيض في بداية الصيف، وبعد أن انقضت فترة المجاعة، بالكلب ليـپ ليـپ، الذي فر إلى الأدغال كما فعل ناب أبيض، وهناك عانى أشد المعاناة، وعاش حياة بائسة. حدث ذلك من دون أي توقّع، إذ كان الاثنان يهرولان في اتجاهين متقابلين حول قاعدة جرف مرتفع، وبينما كلاهما يدوران حول صخرة، إذا بهما يتقابلان فجأة وجهًا لوجه. توقف الاثنان على الفور في هلع، وتبادلا نظرات متوجّسة.

كان ناب أبيض في حالة رائعة، إذ كان في الأسبوع السابق تناول طعامًا ملأ معدته، حتى إنه كان يشعر ببعض التخمة. وما إن نظر ناب أبيض إلى ليـپ ليـپ حتى ارتفع شعره منتصبًا على امتداد جسمه في حركة لا إرادية، وهي الحالة الجسمانية التي طالما صحبت الحالة العقلية التي سبّبها له ليـپ ليـپ بما مارسه من تنمرٍّ ضده. وهكذا حدث في تلك اللحظة ما اعتاد أن يحدث في الماضي. نعم، زمجر ناب أبيض وانتفش شعره، ولم يُضع أي وقت، بل أنجز المهمة في سرعة وكفاءة. حاول ليـپ ليـپ التراجع لكن ناب أبيض عاجله بضربة قوية، كتفًا إلى كتف، فانقلب على ظهره على الأرض. عندئذٍ انقض ناب أبيض على العنق الهزيل. أخذ ليـپ ليـپ يصارع الموت، بينما ناب أبيض يسير في المنطقة حوله وقد تصلّبت قوائمه وهو لا يكفّ عن النظر إليه مترقّبًا. ثم استأنف الأخير سيره مهرولًا بمحاذاة قاعدة الجرف.

في أحد الأيام، بعد فترة بسيطة من الحوادث السابقة، وصل ناب

أبيض في سيره إلى حافة الغابة، حيث يوجد شريط ضيق من الأرض يمتد منحدرًا إلى نهر ماكينزي. لقد سبق له أن جاء إلى هذه المنطقة وكانت عندئذٍ خالية من كل شيء، أما الآن فثمة قرية تستقر فيها. توقف ناب أبيض يرقب الموقف وهو لا يزال مختبئًا بين الأشجار. بدت المشاهد والأصوات والروائح مألوفة، نعم، إنها القرية القديمة وقد انتقلت إلى هذا المكان، غير أن مشاهدها وأصواتها وروائحها تختلف كثيرًا عن تلك التي سادت القرية عند هروبه منها. حقًّا، لم يعد هناك أنين أو عويل، بل أصوات راضية سعيدة حيّت أذنيه. وعندما سمع صوتًا غاضبًا لامرأة، أدرك أنها صيحة غضب تصدر عن معدة ممتلئة، كذلك انتشرت في الجو رائحة أسماك، مما يعني أن هناك طعامًا في القرية. لا بد أن المجاعة قد انتهت. خرج ناب أبيض من مكمنه، وهرول بجرأة إلى المخيّم، متوجّهًا مباشرة إلى خيمة السمّور الرمادي. لم يجده في الخيمة، لكن كلوكوش استقبلته بصيحات الترحيب، وسمكة كاملة طازجة. تناول ناب أبيض طعامه، ثم رقد في انتظار السمّور الرمادي.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الرابع

الآلهة العظمى

1

عدو نوعه

لو كان في طبيعة ناب أبيض أي إمكانية - ولو ضئيلة - لأن يتآخىَ مع أبناء نوعه، فإن تلك الإمكانية قد تحطّمت إلى غير رجعة عندما عُيِّن قائدًا لفريق جرّ الزلّاجة، فالكلاب جميعًا تكرهه الآن. تكرهه بسبب كمية اللحم المضاعفة التي يغدق بها عليه ميتساه، وتكرهه لكل المزايا الإضافية التي ينالها، سواءً نالها بالفعل، أو توهّمت الكلاب ذلك. وصار مكروهًا أيضًا لأنه كان يركض أمامها بصفته قائد الفريق، وذيله كفرشاة تلوح في وجوهها، وقد يتقهقر جسمه من حين لآخر، فيسبب مشهد نصفه الخلفي لعيونها استفزازًا يكاد يصل بها إلى الجنون.

وبادلهم ناب أبيض كراهية بكراهية أشدّ. لم يكن تعيينه قائدًا لفريق جرّ الزلّاجة مرضيًا على الإطلاق، فاضطراره للجري أمام فريق يطارده بالصراخ، كان شيئًا فوق احتماله، خصوصًا وقد سبق له أن سيطر على كل واحد من أعضاء الفريق ولم يتوانَ عن مهاجمته في السنوات الثلاث السابقة. الحقيقة هي أن تحمّله للأمر لم يكن اختيارًا بل ضرورة واجبة، لا بديل لها سوى الهلاك، غير أن طاقة الحياة في داخله لا تزال متقدة. وهكذا، في اللحظة التي يعطي فيها ميتساه الأمر للفريق ببدء التحرك، تنطلق الكلاب خلف ناب أبيض وقد تعالت صيحاتها بحماسة وشراسة.

لم يكن من وسيلة لناب أبيض للدفاع عن نفسه، فهو لو استدار

لمواجهتهم، لقذفه ميتساه في وجهه بالسّوط الجلدي الحادّ. ولا يمكنه من ناحية أخرى أن يواجه بذيله وقوائمه الخلفية ذلك الحشد الذي يعوي خلفه، فهي بالتأكيد أسلحة لا تستطيع الصمود أمام تلك الأنياب. وهكذا ظل ناب أبيض يركض، مخالفًا مع كل وثبة يقوم بها طبيعته الأصلية، واعتداده بكرامته. وما أكثر ما يثب طوال اليوم!

لا يستطيع المرء أن يخالف الدوافع التي تصدر عن طبيعته من دون أن ترتدّ تلك الطبيعة على نفسها، مثل ذلك الذي قد يحدث لشعرة في الجسم، إذ تنمو للداخل بدلًا من أن تنمو في اتجاهها الطبيعي إلى الخارج، فتسبّب التهابًا وتقيّحًا مؤلمًا. وهكذا كان الحال مع ناب أبيض، فطبيعته تحثّه على الانقضاض على القطيع الذي يصرخ في إثره، لكن إرادة الآلهة غير ذلك، وتلك الإرادة يتابع تنفيذها سوط قاسٍ يصل طوله إلى ثلاثين قدمًا، مصنوع من أمعاء حيوان الرنّة. لا مفر إذًا أن يفري الغيظ قلب ناب أبيض المليء بالمرارة، وينمو حقده وكراهيته بقدر يتناسب مع تمكُّن تلك الطبيعة منه وقوّتها في نفسه.

إذا صح أن كائنًا ما يمكن أن يكون عدوًا لنوعه، فإن هذا المخلوق هو ناب أبيض. هو لا يرحم أحدًا، ولا يستجدي الرحمة من أحد. لقد تعرّض جسمه بشكل مستمرٍّ للإصابات والتشوّهات التي تسببت فيها كلاب القطيع، وهو من جانب آخر لم يتوقّف عن ترك علامات أسنانه على أجسامها. وكانت عادة قائدي الكلاب أن يسرعوا عندما تُحَلّ سيورهم ويُنصب المخيّم، فيربضون عند أقدام الآلهة طلبًا لحمايتها، أما ناب أبيض فهو يسير في أرجاء المخيم مُحاولًا إنزال العقوبة في الليل تعويضًا عما عانى منه بالنهار. لقد اختلفت الأمور الآن عما كانت عليه قبل أن يُعيَّن قائدًا لفريق الجرّ، إذ كان رفاقه آنذاك قد تعلّموا أن يبتعدوا عن طريقه. أما الآن فالكلاب لا تستطيع أن تحمل نفسها على إفساح الطريق له، خصوصًا

وقد غلبتها الإثارة بعد قضاء يوم كامل في مطاردته، وانطبعت صورته وهو يفرّ منها في وعيها الداخلي، وهيمن عليها الإحساس بالاستمتاع بمطاردته طوال اليوم. لذلك كلّه صار ظهوره وسطهم يؤذن دومًا ببدء المشاحنات، وسيره بينهم تصحبه دمدمة ونهش وزمجرة، أي إن الهواء الذي يتنفّسه أصبح مثقلًا بالكراهية والضغينة، ولم يكن تأثير ذلك سوى أن زادت بداخله في المقابل مشاعر الكراهية والضغينة.

عندما يصيح ميتساه آمرًا الفريق بالتوقّف عن الجرّ، يسرع ناب أبيض بالاستجابة للأمر، وقد سبب ذلك في البداية بعض المتاعب للكلاب الأخرى، إذ كانت ما إنيحدث ذلك حتى تنقضّ عليه، عندئذٍ تنقلب عليهم الطاولة إذ يلقي ميتساه بسَوطه هادرًا في الهواء. فهمت الكلاب إذًا أنه عندما يقف الفريق استجابة للأوامر، فعليها أن تترك ناب أبيض وشأنه، أما إذا توقّف ناب أبيض بلا أوامر، فمن المسموح به أن تنقضَّ عليه الكلاب، بل أن تحطّمه إذا استطاعت. وبعد عدة تجارب تعلّم ناب أبيض ألا يتوقّف من دون أوامر. نعم، هو يتعلّم بسرعة، ولا شك أن ذلك من المتطلّبات الضرورية لمواجهة الظروف البالغة القسوة التي أحاطته بها الحياة.

أما الكلاب، فإنها لم تتعلّم أبدًا الدرس وتتركه وشأنه في المخيم، بل إنها تطارده كل يوم وتصرخ في وجهه بعداء، وكأنما مُسح من أذهانها درس الليلة الفائتة، وعليها في الليلة التالية أن تتعلّم الدرس من جديد، ليُنسى بالسرعة نفسها. يضاف إلى ذلك وجود توافقٍ قويٍّ بين الكلاب في كراهية ناب أبيض، فهي جميعًا تشعر بوجود اختلاف في النوع بينها وبينه، وهو سبب كافٍ للعداء بين الطرفين. هي ذئاب مستأنَسة مثله، لكن استئناسها مضت عليه قرون، لذا كادت البراري تغيب عن أذهانها، ولم يبقَ منها سوى المجهول المخيف، الذي لا ينفك يهاجمها أو يتوعدها

بالهجوم. أما بالنسبة له، فهو لا يزال مرتبطًا بالبراري في مظهره وأفعاله وبواعثه. ناب أبيض في واقع الأمر هو رمز للبراري وتجسيد لها في نفوس الكلاب، فهي عندما تكشر عن أنيابها له، فكأنها تدافع عن نفسها في مواجهة قوى الهلاك التي تتربّص بها تحت ظلال أشجار الغابة، وفي الظلام المنتشر وراء نار المخيم.

ثمّة درس تعلّمته الكلاب، وهو أن تكون دائمًا معًا، فناب أبيض أكثر فظاعة من أن يستطيع أحدها مواجهته بمفرده، لذلك اعتادت الكلاب أن تلتقي به في جماعة، ولولا ذلك لتمكّن من قتلها جميعًا واحدًا بعد الآخر في الليلة نفسها. أما والحال هكذا، فلم تسنح له أي فرصة لقتلها، قد ينجح في أن يُفقد أحد الكلاب توازنه فيقلبه على ظهره، ثم سرعان ما تتكاتف عليه الكلاب الأخرى قبل أن يتمكّن من متابعة الهجوم ونهش عنق الضحية. وقد اعتاد أفراد الفريق عند أول بادرة خلاف مع ناب أبيض أن يتضاموا في مواجهته. وقد تختلف الكلاب في ما بينها بطبيعة الحال، لكنّها تنسى الخلافات كلّها إذا بدأت مواجهاتها معه.

ومن ناحية أخرى، لم تستطع الكلاب أن تقتل ناب أبيض رغم محاولاتها، فهو فائق السرعة والقوّة، وشديد الحكمة. لقد اعتاد أن يتجنّب الأماكن الضيّقة، ودائمًا ينسحب منها عندما تبدو مكانًا مناسبًا لمحاصرته. ولم يكن هناك كلب يستطيع أن يفقده توازنه، ويقلبه على ظهره، إذ تتشبث أقدامه بالأرض بقوة تشبثه هو بالحياة. وفي سياق حالة الحرب التي لا تنتهي مع القطيع، فإن استقرار ناب أبيض واقفًا على قوائمه هو الوجه الآخر لاستمراره في الحياة، وكان هو على ثقة من ذلك.

وهكذا أصبح ناب أبيض عدوًا للنوع الذي ينتمي إليه، أي الكلاب التي استؤنست فصارت أقل شراسة ببقائها بجوار نار مخيّمات البشر، وأكثر ضعفًا في ظل الحماية التي يسبغها عليها الإنسان القويّ. أما ناب

أبيض فهو غارق في المرارة والحقد، فهكذا تشكّلت شخصيته. لقد أعلن العداء لكل الكلاب، وهو لا يكف عن التعبير عن هذا العداء، حتى السمّور الرمادي الذي يتّصف بالشراسة يعلن اندهاشه من شراسة ناب أبيض، ويقسم أنه لم يرَ مثيلًا لهذا الحيوان، والشيء نفسه يراه سكان القرى الأخرى، ذوو الأصول الهندية، عندما يقصّون الحكايات عن ضحاياه من كلابهم.

لمّا بلغ ناب أبيض الخامسة من عمره، أخذه السمّور الرمادي في رحلة طويلة للمرة الثانية، وقد ألحق دمارًا، سيذكره الناس لفترة طويلة قادمة، بين كلاب القرى التي مرّا بها بمحاذاة نهر ماكينزي، عبر جبال «روكي»، ثم من خلال نهر «پـوركوپـاين» إلى نهر «يوكون». وكم انتشى ناب أبيض بأن يصبّ غضبه على النوع الذي ينتمي إليه! كانت تلك كلاب عادية، لا سبب يدعوها للشعور بالريبة تجاهه، وبالتأكيد غير مستعدّة لهجومه السريع المباشر من دون أي إنذار. لم تعرف تلك الكلاب سرعته الخاطفة التي تشبه سرعة البرق في العقر، فكانت تواجهه متحدّية فتنفش شعرها، وتصلّب أرجلها، على حين لا يضيع هو وقته في مقدّمات تفصيلية، بل ينطلق إلى نحورها كأنه زنبرك من الصلب، ويرتدّ قبل أن تفيق الكلاب من أثر الألم الصاعق المفاجئ وتدرك ما حدث.

بلغ ناب أبيض درجة عالية من المهارة في القتال، وتميز أسلوبه بالاقتصاد في الوقت والمجهود، فهو لا يضيّع وقته في الاشتباك مع الآخرين، بل يهاجم بقوة وبشكل مفاجئ سريع، وإذا أخطأ الهدف مرة فهو يتراجع بالسرعة نفسها. أما طبع الذئاب المتمثّل في كراهية الاحتكاك بالآخر فقد تمثّل إلى درجة تزيد على الدرجة العادية في ناب أبيض، فهو لا يتحمّل التلامس الطويل الأمد مع أجسام أخرى، لأنه يُنذر بالخطر، ويهيّج أعصابه. لهذا السبب تمسّك بأن يكون حرًّا متباعدًا، مستقرًّا على

قوائمه الأربع، من دون أن يلمس جسمًا آخر. إنها صفات البراري لا تزال ملتصقة به، تؤكد وجودها من خلاله، ولعل حياة المنبوذ التي عاشها منذ طفولته أظهرت تلك الصفات وجعلتها أكثر وضوحًا. لقد تعلّم أن الخطر يكمن في الاحتكاك بالآخر، ذلك هو الفخ، دائمًا وأبدًا، والخوف منه مندسّ بداخله، كأنه جزء من نسيجه العميق.

ترتب على كل ما سبق أن الكلاب الغريبة عن القرية، التي التقى بها في طريقه لم تكن تمتلك أي فرصة للتغلّب عليه، إذ كان يتهرّب من أنيابها فلا تتمكّن من إصابته، سواء نجح في النيل منها أو اضطُرَّ أن يتراجع حين تجتمع عليه. حدث عدة مرات أن تكالبت عليه عدة كلاب، وتمكّنت من إيقاع بعض الإصابات به قبل أن يتمكّن من الفرار، وفي مرات قليلة أخرى حدث أن ترك كلب مهاجم علامات أنيابه على جسمه، لكن تلك الحوادث كانت مجرّد استثناءات، أما في غالب الأحيان فهو ينجح في الفرار سليمًا.

تميز ناب أبيض أيضًا بقدرة عالية على حُسن تقدير الوقت والمسافة. لم يكن يفعل ذلك عن وعي وفهم، فهو لا يستطيع حساب مثل هذه الأشياء، وإنما تحدث بشكلٍ تلقائي. عيناه تريان بوضوح، ثم يحمل العصب البصري الصورة صحيحة إلى المخّ. لقد كانت أعضاء جسمه بشكل عام أكثر تكيّفًا من تلك التي لدى الكلب العادي، كما كانت تعمل بتوافق وثبات. وبشكل عام تميز بأن لديه تناسقًا عضليًا وعقليًا وعصبيًا أفضل بكثير من الكلاب الأخرى. وعندما تنقل عيناه إلى عقله الصورة المتحركة لفعل ما، فإن مخّه لا يحتاج إلى جهد واعٍ ليدرك المسافة التي يجب أن يكون الفعل في إطارها، والوقت الذي يحتاجه للانتهاء منه. لذلك كلّه كان يستطيع أن يتجنّب وثبة كلب متربّص به، أو اندفاعة ناب موجّه إليه، وفي الوقت نفسه أن يقتنص ولو جزءًا فائق الصغر من الوقت

للقيام بالهجوم الذي يخطّط له. لا شكّ أن التناسق بين عضلاته ومخه كان أكثر اكتمالًا من غيره، وهو شيء لا يرجع إلى قدرات خاصة تجعله يستحق الثناء، وإنما فقط كرم اختصّته به الطبيعة، هذا كل ما في الأمر.

كان الوقت صيفًا عندما وصل ناب أبيض إلى حصن «يوكن». عَبَر السمّور الرمادي الحاجز العظيم بين نهري «ماكينزي» و«يوكن» قرب نهاية الشتاء، وقضى الربيع في الصيد وسط الحدود الغربية الناتئة لجبال «روكي». ثم صنع قاربًا خشبيًا وأبحر مع التيار بعد ذوبان جليد نهر «پوركوباين» إلى أن وصل إلى نقطة التقائه بنهر «يوكن»، وذلك بالكاد قبل الدائرة القطبية الشمالية، حيث تقع المحطة التجارية القديمة لشركة خليج هدسون. هناك رأى ناب أبيض كثيرًا من السكان الأصليين ذوي الأصول الهندية، ولاحظ وفرة الطعام، وجوًا من الإثارة لم يعرفه من قبل. كان ذلك في صيف العام 1898، حين توجّه الآلاف من الباحثين عن الذهب بمحاذاة نهر «يوكن» إلى مدينة «داوسون» ومنطقة «كلوندايك». ورغم أن هؤلاء جميعًا يبعدون عن هدفهم بمئات الأميال، فإن بعضهم قد قضى على الطريق ما يقرب من عام كي يصل إلى تلك النقطة، وكانت أقل مسافة قطعها أيّ من هؤلاء هي خمسة آلاف ميل، وقد أتى بعضهم من الطرف الآخر من العالم.

توقّف السمّور الرمادي في هذه المنطقة، بعد أن همس أحدهم في أذنه بكلام عن تدفّق الباحثين عن الذهب إليها، وكان قد اصطحب معه عدة بالات من الفراء، وبالة من قفازات وأحذية الجليد المصنوعة من أمعاء الحيوانات. ولم يكن السمّور الرمادي ليجازف بمثل هذه الرحلة الطويلة لو لم يتوقّع مكاسب ضخمة منها، إلا أن ما توقّعه كان في الحقيقة لا شيء بالمقارنة بما حقّقه بالفعل. إن أقصى أمنياته لم تتجاوز الحصول على ربح بنسبة مائة في المائة، لكنه حصل على مكسب يقدر بنسبة ألف

في المائة. وكما هو جدير برجل من أصل هندي استقرّ السمّور الأبيض هناك لكي يمارس مزيدًا من التجارة بحرص وأناة. حتى لو استغرق الأمر الصيف كلّه وبقية الشتاء ليتمكّن من بيع البضائع كلّها.

وفي مدينة «فورت يوكن» رأى ناب أبيض الإنسان الأبيض البشرة للمرة الأولى، فبدا لعينيه - مقارنةً بذوي الأصول الهندية - وكأنه سلالة أخرى من الكائنات، سلالة من الآلهة الفائقة العظمة. نعم، لقد رأى أن هذه الآلهة لديها قدرات خارقة تضفي عليها صفة الألوهية. لم يخلص ناب أبيض إلى ذلك المفهوم بإمكاناته العقلية، ولم يستنتج تلك الفكرة القاطعة بتفوق الآلهة البيضاء البشرة، بل كان ذلك مجرّد إحساس لا أكثر، لكنه إحساس في غاية العمق. عندما رأى ناب أبيض البيوت الكبيرة، ومبنى محطّة التجارة المهيب، وما فيه من أخشاب مُخَزَّنة، شعر بقوة الآلهة البيضاء، تمامًا كما حدث في طفولته، عندما أبصر تجمعات الخِيَم المثلثة الشكل التي صنعها الإنسان، ورأى فيها تجسيدًا للقوّة. هذه الآلهة البيضاء البشرة شديدة القوة إذًا، ولديها قدرة أكبر للسيطرة على الأمور، من الآلهة الأخرى التي عرفها من قبل، وأقواها في تجربته هو السمور الرمادي، الذي يبدو له الآن كأنه إله طفل بين تلك الآلهة البيضاء البشرة.

ولا يُستغرب أن يعتمد ناب أبيض على غرائزه، وليس إدراكه، فهكذا هو حال الحيوانات بشكل عام، وكل فعل يؤديه ناب أبيض الآن ينبع من شعوره بأن الرجال ذوي البشرة البيضاء هم الآلهة المتفوّقة. في البداية ملأته الريبة من ناحيتهم، فلا سبيل لمعرفة ما يمكنهم القيام به من أعمال مُخيفة، ومقدار الضرر الذي يمكنهم أن يلحقوه بالآخرين. وقد جعله الفضول يتشوّق إلى مراقبتهم، وفي الساعات الأولى التي تَلَت رؤيته لهم اكتفى بأن يتجوّل حولهم ويرقبهم من مسافة آمنة، ولما لاحظ أن الكلاب الأخرى التي اقتربت منهم لم يُصبها أي ضرر جعل يقترب منهم.

ومن الناحية الأخرى بدا ناب أبيض مثيرًا لفضولهم إلى أقصى حد، فقد لفت نظرهم منظره الشبيه بالذئاب منذ النظرة الأولى، وتبادلوا الإشارات وهم ينظرون إليه، وما إن لاحظ هو تلك الإشارات حتى أدرك ضرورة الحذر منهم، وعندما حاولوا الاقتراب منه كشّر عن أسنانه وتراجع مبتعدًا. ولم يسمح لأيٍّ منهم أن يبسط يده على ظهره.

وسرعان ما عرف ناب أبيض أن عددًا قليلًا من تلك الآلهة، لا يتعدّى دزّينة واحدة يُقيم في ذلك المكان، وكل يومين أو ثلاثة تصل إلى ضفة النهر سفينة بخارية كبيرة يخرج من قلبها عدد من الرجال ذوو البشرة البيضاء، ثم يغادرون على متنها بعد عدة ساعات. كانت تلك السفن في وعي ناب أبيض تجلّيًا إضافيًا شديد الضخامة للقوة المرتبطة بالآلهة الجديدة، التي رأى منها في اليوم الأول أكثر مما رأى في حياته كلّها من ذوي الأصول الهندية، ولا شك أن ثمة عددًا كبيرًا منهم هناك، من حيث أتى هؤلاء. ومع مرور الأيام تزايد عدد القادمين منهم عبر النهر، وهم يتوقّفون لبعض الوقت ثم يغادرون كما أتوا وتغيب السفينة عن الأنظار.

ورغم أن الآلهة البيضاء البشرة تتميّز بقدرتها الفائقة، فإن كلابها لم ترقَ للمستوى نفسه من القوة، هذا ما اكتشفه ناب أبيض بعد وقت قليل، عندما اختلط مع الكلاب التي نزلت إلى ضفة النهر مع سادتها. كانت تلك الكلاب ذات أشكال وأحجام غير متشابهة، فبعضها ذات قوائم بالغة القصر، وأخرى قوائمها بالغة الطول. وكانت مغطاة بالوبر بدلًا من الفراء، وتميّز بعضها بندرة الوبر، ولم يعرف أي كلب منها كيف يقاتل.

لا شك أن القتال بينها وبين ناب أبيض بات متوقَّعًا، خصوصًا بصفته عدوًا لنوعه، وقد انخرط في ذلك بالفعل، وسرعان ما جللهم بعار الهزيمة. تميّزت تلك الكلاب بالضعف وقلّة الحيلة، وهي تصدر كثيرًا من الضجة، وتتميّز حركاتها بالاضطراب والخرق، إذ تحاول بقوتها

الأولية أن تُحقّق ما يُنجزه ناب أبيض بمهارته ودهائه. كانت الكلاب تندفع لتنقض عليه وهي تجأر، فيتنحى هو جانبًا، وقبل أن يدرك الكلب المهاجِم ما يحدث، يُفاجأ بناب أبيض وقد انقض على كتفه، وقلبه على ظهره، ثم عقره في عنقه.

في بعض الأحيان تكون الهجمة ناجحة وعندئذٍ يتقلب الكلب الضحية على الأرض الموحلة حيث تهجم عليه الكلاب القادمة من القرى الهندية، وتمزّقه إربًا. كان ناب أبيض حكيمًا، فقد تعلّم منذ زمن طويل أن الآلهة تغضب أشد الغضب عندما تُقتل كلابها، وليس ثمة سبب لأن يكون البشر ذوو البشرة البيضاء استثناءً من ذلك، لذلك كان ناب أبيض يكتفي بمهاجمة أحد الكلاب وإصابته في حلقه، ثم يتراجع ويَدَع باقي أفراد القطيع يتقدّمون ويُكملون تلك المهمة الوحشية. ويندفع آنئذٍ أصحاب الكلاب ويصبّون جام غضبهم على أفراد القطيع، من دون أن يمسوا ناب أبيض. أما هو فيقف على مسافة قريبة يشهد الأحجار والهراوات والبلطات، وكل أنواع الأسلحة وهي تُلقى على رفاقه!

تعلّمت الكلاب الأخرى بعض الحكمة أيضًا بطريقتها، وتعلّم ناب أبيض معها. لقد أدركوا جميعًا أنه عند بداية رسو السفينة وربطها إلى الضفة يكون هو الوقت المناسب للحصول على بعض التسلية، وذلك حين ينزل من على ظهر السفينة كلبان أو ثلاثة، وتهاجمها الكلاب على ضفة النهر، فينتبه باقي ركاب السفينة من ذوي البشرة البيضاء ويسارعون إلى حماية كلابهم ومنعها من النزول إلى اليابسة، قبل أن يصبّوا غضبهم على الكلاب المهاجمة، للثأر منها. حدث ذات مرة أنّ واحدًا من ذوي البشرة البيضاء القادمين على ظهر السفينة شاهد كلبه من فصيلة «ساطر»، والكلاب تمزّق جسمه، فما كان منه إلّا أن سحب مسدسه، وأطلق بسرعة ست طلقات، وعلى الفور سقط ستة من أعضاء الفريق، فمنهم من نفق

فورًا ومنهم من استغرق بعض الوقت، وكان ذلك بلا شك تجلّيًا إضافيًا للقوة الكامنة في هؤلاء البشر، لم يفُت ناب أبيض أن يلاحظه ويعيه.

استمتع ناب أبيض بالأمر كلّه، فهو كما نعلم لا يحبّ النوع الذي ينتمي إليه، كما أنه من الدهاء بحيث يمكنه أن يتجنّب التعرض لأي أضرار. كان قتل الكلاب التي يملكها ذوو البشرة البيضاء ضربًا من التسلية، ثم أصبح بمرور الوقت بمثابة حرفة له، إذ لم يكن ثمة عمل مطلوب منه، خصوصًا والسمّور الرمادي مشغول بالتجارة والمكسب. وهكذا صار ناب أبيض يتجوّل في المنطقة مع عصابة «كلاب مخيم الهنود» السيئة السمعة، في انتظار وصول السفن البخارية. وعندما ترسو إحداها يبدأ اللهو، الذي لا يستمر إلا لدقائق قليلة حين يتغلب القادمون على مفاجأة الدقائق الأولى، عندئذٍ تتفرّق العصابة وينتهي اللهو إلى أن تصل سفينة أخرى.

ولا شك أن اعتبار ناب أبيض عضوًا في عصابة الكلاب فيه شيء من التجاوز، فهو لم يختلط بها، بل ظلّ إلى حد كبير مُتحفظًا، كما هي طبيعته، وكانت الكلاب لا تزال على خشيتها منه. صحيح هو كان يعمل معها، غير أن مهمّته انحصرت في استفزاز الكلب الغريب حتى ينخرط في القتال، بينما أفراد العصابة ينتظرون، وما إن يتمكن ناب أبيض من قلب الكلب الغريب على ظهره حتى تتدخل الكلاب الأخرى للقضاء عليه. وصحيح أيضًا أن ناب أبيض ينسحب عندئذٍ تاركًا الكلاب الأخرى تتلقّى العقاب وحدها من الآلهة الغاضبة.

لم يتطلّب الأمر مجهودًا كبيرًا لاستدراج الكلاب الغريبة إلى المشاجرات، فكلّ ما كان على ناب أبيض فعله عندما يهبط كلب غريب إلى الشاطئ هو أن يتعمّد الظهور أمامه، فما إن يراه الغريب حتى يندفع إليه مهاجمًا، لا لسبب سوى أن الغريزة الموجودة بداخله تدعوه إلى ذلك. ناب أبيض بالنسبة له هو البراري، هو المجهول المخيف المتوعِد دائمًا.

إنه ذلك الشيء الذي يجوس في الظلام حول النار في المجتمع البدائي، على حين تجثم الكلاب بالقرب من الوهج، تعيد تشكيل غرائزها، فتتعلّم الخوف من البراري التي أتت منها والآن تهجرها وتتخلّى عنها. وهكذا صار الخوف من البراري مطبوعًا في نفوسها، على امتداد الأجيال، جيلًا وراء جيل، وباتت البراري قرينًا للرعب والهلاك، وعلى امتداد ذلك الوقت كله أُعطيت الكلاب رخصة مفتوحة من سادتها لقتل كل ما ينتمي للبراري. وهي تفعل ذلك حماية لنفسها وللآلهة التي تعيش بصحبتها.

تجيء الكلاب مباشرة إذًا من عالم الجنوب المرفّه، فتتهادى على المعبر الخشبي إلى أن تضع قوائمها على ضفة نهر «يوكن»، حيث ترى ناب أبيض فتغزوها تلك الرغبة الملحة التي لا تقاوم لمهاجمته وتحطيمه، ورغم أن هذه الكلاب قد نشأت في المدينة، فلا يزال بداخلها خوف غريزي من البراري. هي إذًا عندما ترى ذلك الكائن الشبيه بالذئب، الذي يقف أمامها في ضوء النهار، لا تراه بعيونها فقط بل أيضًا بعيون أسلافها، كما أنها بذاكرتها الموروثة اعتبرته ذئبًا، وتذكّرت الخصومة القديمة.

صارت أيام ناب أبيض حافلة بالمتعة، نتيجة لكل ما سبق. وإذا كان منظره يدفع الكلاب الغريبة عن المكان لمهاجمته، فإن ذلك يكون في العادة من حسن حظّه، ومن سوء حظّها. هم يرون فيه فريسة مُستحقة، وهو يرى فيهم الشي نفسه.

لا بد أنه لهدف ما رأى ناب أبيض ضوء النهار لأول مرة في عرين موحش، واشترك في أول معاركه مع الترمجان وابن عرس وأنثى الوشق. ولا بد أن ثمة حكمة في أن تكون طفولته مليئة بالمرارة بسبب اضطهاد الكلب ليـپ ليـپ، بل وقطيع الكلاب كلّه. كان من الممكن أن تختلف ظروف حياته، وبالتالي تختلف شخصيته، فلو لم يتنمر عليه الكلب ليـپ ليـپ، لقضى ناب أبيض طفولته مع الجراء الأخرى، وتدرّج به العمر

ليصير شبيهًا بالكلاب، ويحمل قلبه بعض الحب للكلاب. لو أن السمّور الرمادي امتلك بعض الحب والعطف في أعماقه، لتمكّن من أن يمسّ شيئًا من تلك المشاعر في أعماق ناب أبيض، وأن يُخرج منها إلى السطح بعض صفات الشفقة والرفق. ما حدث في الواقع هو عكس ذلك تمامًا، فصار تكوين ناب أبيض على ما هو عليه الآن، وحيدًا منعزلًا، وشرسًا لا يعرف الحب، وعدوًا لكن من ينتمي لفصيلته.

2

الإله المجنون

استقرّ عدد قليل من ذوي البشرة البيضاء في مدينة «فورت يوكن»، وقد سمّوا أنفسهم «العجينة اللاذعة»، من دون أن يخفوا فخرهم بذلك الاسم، أما شعورهم ناحية القادمين الجدد فلم يكن سوى الازدراء. هؤلاء القادمون الجدد الذين يصلون على ظهر السفن البخارية، يفتقرون إلى الخبرة في العمل بالمناجم ويُطلق عليهم اسم لا يخفون ضيقهم به هو «الشيشاكو»، وهم يصنعون خبزهم باستخدام مسحوق الخبيز. وتلك هي نقطة الاختلاف بينهم وبين رجال «العجينة اللاذعة» الذين يصنعون طعامهم في واقع الأمر باستخدام الخميرة، لأنه ليس لديهم مسحوق خبيز.

رجال فورت يوكن يضيقون بالقادمين الجدد، ويستمتعون برؤيتهم غارقين في الضيق، ويُرضيهم على وجه الخصوص الدمار الذي يحلّ بكلاب القادمين الجدد بسبب ناب أبيض وعصابته السيئة السمعة. وعندما تصل سفينة بخارية، يهتم الرجال المقيمون بالذهاب إلى ضفة النهر ومراقبة العرض، الذين يترقّبونه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام كلاب مخيمات السكان الأصليين من الهنود، وسرعان ما أدرك السكّان الدور المحنّك البالغ الشراسة، الذي يشارك به ناب أبيض في ذلك العرض.

كان ثمّة رجل من بين هؤلاء المشاهدين، يستمتع بذلك العرض بشكل خاص. يأتي ذلك الرجل جريًا عند أول سماع صوت صفّارة

السفينة البخارية، وعندما تنتهي المعارك وتتفرّق الكلاب وزعيمها ناب أبيض، يعود ذلك الرجل بخطوة بطيئة إلى المدينة وقد ارتسم الأسف على وجهه. أحيانًا، يسقط كلب مرفّه قادم من الجنوب، وهو يطلق صرخته الأخيرة قبل أن يلقى الموت متأثّرًا بجراحه التي سببتها أنياب القطيع، عندئذٍ لا يستطيع ذلك الرجل أن يتمالك نفسه، فيثب في الهواء ويصرخ في ابتهاج. وهو دائمًا يُلقي نظرة حادّة جشعة على ناب أبيض.

أطلق السكان على ذلك الرجل اسم «الجميل»، ورغم أن أحدًا لم يعرف اسمه الأول، فقد ناداه الناس في المنطقة باسم سميث الجميل، على حين كان شكله أبعد ما يكون عن الجمال. نعم، لم يكن له من اسمه نصيب، بل كان اسمه على النقيض تمامًا من صفته. لقد بخلت عليه الطبيعة بالجمال؛ فهو رجل صغير الحجم إلى حد مُبالغ فيه، وفوق جسمه الضئيل يستقر - لافتًا للنظر - رأس أكثر ضآلةفي الحقيقة، كان الرجل في طفولته - قبل أن يُطلق عليه رفاقه «الجميل» - يُسمى «رأس الدبوس».

تنحدر تلك النقطة في قمة رأس الرجل من الخلف إلى عنق رفيع، ومن الأمام تنحدر بحدة إلى جبهة واطئة عريضة بشكل ملفت للنظر. وقد أسرفت الطبيعة في بسط ملامحها، ابتداءً من هذه النقطة، وكأنها تتراجع عن تقتيرها في ما سبق، فعيناه كبيرتا الحجم، وبينهما مسافة تكفي عينين إضافيتين، أما وجهه فهو يُعدُّ بالمقارنة بجسمه ضخمًا. ويبدو أن الطبيعة ودّت أن توضح الجزء الأساسي في وجهه، فَحَبَته بفكٍّ كبير الحجم، عريضٍ ثقيلٍ، وبارزٍ إلى الأمام وإلى أسفل، حتى بدا وكأنه مستقرٌ على صدره، ولعلّ ذلك المظهر يعود إلى الإجهاد الذي تعانيه رقبته النحيفة لكي تحمل مثل هذا الحِمل الثقيل.

ذلك الفكّ أعطى انطباعًا بقوة العزيمة إلى حدِّ الشراسة، لكن شيئًا ما كان ناقصًا لكي يدل على ذلك المعنى، ولعل المبالغة في حجم الفكِّ

هي التي أوحت بذلك. على كل حال لم يكن ذلك الانطباع صادقًا، فلقد عُرف سميث الجميل على نطاق واسع بأنه خائر العزم ضعيف الإرادة، وهو جبان شَكّاء. ولكي نستكمل وصف الرجل نقول إن أسنانه كانت كبيرة الحجم صفراء اللون، وكان ناباه العلويان أكبر من نظيريهما السفليين، ويبدوان من تحت شفتيه كأنهما نابا حيوان. أما عيناه فتميّزتا باللون الأصفر العَكر، وكأنما عانت الطبيعة من نقص في خلايا اللون، فكدّست بقايا ما احتوته عبوات الألوان كلّها! وكان الأمر هو نفسه مع شعره، إذ اتّصف بالخفة وعدم الانتظام في النمو، وباللون الأصفر العكر المتّسخ، هكذا يبدو الشعر في خصلات متناثرة أعلى رأسه، وهكذا ينبثق من وجهه، في تجمّعات متناثرة من دون نظام، حتى إن الشعر يبدو وكأنه كومة من الحبوب الجافّة التي ذرتها الريح.

كان سميث الجميل، باختصار، نموذجًا للقبح البالغ، ولم يكن هو الملوم على كل حال، فهكذا صُنِع. وهو يعمل في محطة «فورت يوكن» التجارية التي بُنيت حولها المدينة التي تحمل الاسم نفسه. وكانت مهمّاته في المحطة هي طهو الطعام للرجال، وغسل الصحون، وغير ذلك من الأعمال المنزلية. ولم يعامله الرجال في المحطة بازدراء، بل على العكس تقبّلوه بصدر رحب، وتسامحوا معه تسامحًا إنسانيًا عامًّا، كما يتسامح المرء مع كائن أُبتلي بسوء الخِلقة. والحق أنهم كانوا يخافونه أيضًا، يخافون أن تظهر طبيعته الجبانة إذا اختار أن يُعبّر عن غضبه الجامح في طلقة رصاص في ظهر أحدهم أو سمٍّ يضعه في القهوة. يضاف إلى ذلك كلِّه أنهم في حاجة ضرورية لمن يطهو الطعام، وسميث الجميل رغم عيوبه الأخرى كان يجيد الطهو.

كان ذلك إذًا هو الرجل الذي اعتاد أن يطيل النظر إلى ناب أبيض، ويبتهج بمراقبة شراسته ومهارته، ويأمل في امتلاكه. وقد حاول التقرّب إليه منذ البداية، فكان رد فعل ناب أبيض أول الأمر هو تجاهله، وعندما

أصبح الرجل أكثر إلحاحًا لجأ ناب أبيض إلى نفش شعره والتكشير عن أنيابه، ثم التراجع مبتعدًا. نعم، فهو لم يُحب ذلك الرجل، ولم يشعر بالارتياح له، بل أحسّ بأن ثمة شرًّا بداخله، لذلك خاف من يده الممتدّة إليه، ومحاولات التحدّث إليه بنعومة، وسرت في نفسه مشاعر الكراهية تجاه سميث الجميل.

تدرك مثل تلك المخلوقات البسيطة مفاهيم مثل الخير والشر بشكل بسيط غريزيّ. الخير يعني كل ما يجلب الراحة والرضا ويمنع الألم، لذلك نحب الخير. أما الشر فهو على العكس يضم الألم وكل ما يبعث على عدم الارتياح، ويحفل بالوعيد ويهدّد بإيقاع الضرر، لذلك لا بد أن نكرهه. وكانت مشاعر ناب أبيض تجاه سميث الجميل كلّها سيئة، فقد صدر عن جسمه المشوّه وعقله المنحرف انبعاثات خفيّة تدل على الشرِّ الذي بداخله، تمامًا كما يدلّ الهواء الفاسد الملاصق لمستنقعات الملاريا على وجود المرض كامنًا بداخلها[1]. لم يُدرك ناب أبيض ذلك بعقله، ولا لحواسّه وحدها، ولكن بحواسَّ أخرى عميقة وغير معروفة امتلأت نفسه بإحساس قوي أن ذلك الرجل ينذر بالأذى، وهو مُحَمّل بالشرور، لذلك فهو سيئ ومن الحكمة أن يكرهه.

كان ناب أبيض في مخيم السمّور الرمادي عندما زاره سميث الجميل للمرة الأولى. وقد أحسّ بخطوات أقدامه الخافتة، وهو لم يزل بعيدًا، وقبل حتى أن يراه، عرف من القادم، فبدأ شعره في الانتفاش على الفور. ورغم أنه كان مستلقيًا في استرخاء على الأرض، فقد نهض مسرعًا، وانسلّ مبتعدًا، في مشية ذئب حقيقي، إلى أطراف المخيم. وقد رأى ناب أبيض الرجلين يتحدثان، لكنه لم يعرف مضمون ما تبادلاه من حديث،

---

(1) قبل اكتشاف دور البعوض في نقل مرض الملاريا، كان الاعتقاد السائد هو أن هذا المرض ينتقل عن طريق الهواء الملاصق لمياه المستنقعات.

وقد أشار سميث الجميل بيده إلى ناب أبيض، فأخذ يزوم وكأن تلك اليد قد نزلت على ظهره، وليست على بعد خمسين قدمًا منه، كما هو الحال في الواقع. ضحك سميث الجميل عندما رأى ردّة فعله، أما ناب أبيض فقد سار بخفّة إلى ملجئه في الأدغال، ولم يفُته أن يلتفت عدّة مرّات ليرقب ما يحدث، بينما هو ينزلق بنعومة على الطريق.

رفض السمور الرمادي أن يبيع الكلب. لقد صار غنيًّا من أرباح تجارته، ولم يعد في حاجة إلى المال، ويضاف إلى ذلك أن ناب أبيض حيوان ثمين، فهو أقوى كلب لجرّ الزلّاجة امتلكه طوال حياته كلّها، وهو أفضل من يقود الكلاب في مهمّة الجرّ. وهو من ناحية أخرى لا يماثله أي كلب آخر على نهر «ماكينزي» أو نهر «يوكن»، في قدرته على القتال، فهو يستطيع القضاء على الكلاب الأخرى بالسهولة نفسها التي يقضي بها البشر على البعوض. (لمعت عينا سميث الجميل عند سماعه هذه الجملة، ولعق شفتيه الرفيعتين بلسان مُتلهّف). لا، ناب أبيض ليس معروضًا للبيع.

كان سميث الجميل يعرف جيدًا كيفية التصرّف مع السكان الأصليين ذوي الأصل الهندي، وهكذا بدأ يزور السمّور الرمادي في مخيمه بشكل منتظم، وقد أخفى تحت معطفه زجاجة سوداء، أو أكثر. ومن المعروف أن إحدى إمكانات الويسكي هي أنه يولّد العطش إليه، وقد عرف السمّور الرمادي ذلك العطش، وبدأت أغشيته المحمومة ومعدته المتّقدة تضجان في طلب مزيد من السائل الحارق، أما عقله فقد جرفه التعطش إلى تلك المادة المثيرة إلى حدِّ فعل أي شيء للحصول عليها. وهكذا أخذ الرجل يفقد بالتدريج المال الذي حصل عليه مقابل الفراء والقفازات وأحذية الجليد، ثم بدأت الأموال تتناقص بسرعة متزايدة، وكلما خفّ جراب النقود زادت أعصابه توتّرًا.

ثم انتهى الأمر بالسمّور الرمادي إلى أن فقد كل شيء: المال والبضاعة

وأعصابه، على حين لم يبقَ له سوى العطش الذي لا يرتوي. استحوذ عليه ذلك العطش الهائل، وزادت سيطرته عليه مع كل شهيقٍ خالٍ من الخمر يدخل جسمه. ثم جاء سميث الجميل مرة أخرى ليتحدّث معه عن بيع ناب أبيض، وفي هذه المرة كان الثمن المقترح من زجاجات الخمر وليس الدولارات، وذلك ما كان السمّور الرمادي متشوقًا لسماعه، وكان ردّه النهائي:

- «الكلب لك، عليك أن تمسك به، ثم هو لك».

سُلِّمت الزجاجات إلى السمّور الرمادي، ولكن بعد يومين، قيلت الكلمات التالية على لسان سميث الجميل، مُوجّهة إلى السمّور الرمادي:

- «عليك أنت أن تُمسك به».

ذات مساء تسلل ناب أبيض إلى المخيم، ثم استقر على الأرض وهو يزفر في رضا، فالإله الأبيض المخيف لم يعد هناك، ففي الأيام الأخيرة تجلّت رغبة ذلك الإله في بسط يديه عليه وزاد إصراره على ذلك، مما اضطُره إلى الابتعاد عن المخيم. صحيح أنه لم يعرف بالتحديد الضرر الذي تهدّد به هاتان اليدان، لكنه كان موقنًا أنهما تهدّدان بضرر من نوع ما، ولذلك من الأفضل له أن يظلّ بعيدًا عنهما.

وما كاد ناب أبيض يستقرّ على الأرض حتى قام السمّور الرمادي إليه مترنّحًا، وربط سيرًا جلديًا حول رقبته، ثم جلس بجواره، وهو يحمل طرف السير الجلدي في يده. وحمل السمور الرمادي في يده الأخرى زجاجة كانت، من حين لآخر، تُرفع إلى أعلى رأسه حيث توضع في وضع مقلوب، ويصحب ذلك صوت بقبقة.

مرّت ساعة على ذلك المشهد، ثم انبعثت اهتزازات نتجت عن احتكاك أقدام بالأرض مؤذّنة باقتراب أحدهم. كان ناب أبيض أول من سمع تلك الأصوات، فانبعثت في جسمه قشعريرة نفشت شعره، إذ

تعرّف على صاحب القدمين. كان السمّور الرمادي لا يزال مُنكّسًا رأسه ببلاهة، عندما حاول ناب أبيض أن يشدّ السير الجلدي بخفّة من يد سيده، غير أن الأصابع المسترخية انقبضت فجأة ونهض السمّور الرمادي قائمًا.

هرول سميث الجميل إلى داخل المخيم، ثم وقف على رأس ناب أبيض، الذي بدأ يدمدم بصوت خافت دلالة على الخوف، بينما يرقب باهتمام سلوك يديّ الرجل القادم. إحدى اليدين امتدت إلى الأمام ثم بدأت في النزول إلى رأسه، عندئذٍ صار الصوت الخافت أكثر حدة وخشونة، على حين استمرّت اليد في النزول ببطء، وجثم ناب أبيض تحتها وهو ينظر إليها في عداء. تلاحقت أنفاس ناب أبيض، فصارت الدمدمة متقطّعة قصيرة، بينما اليد تقترب من الوصول إلى مبتغاها. وفجأة انقضّ ناب أبيض ليقضم بأنيابه مثل الحيّة، لكن اليد تراجعت في هزة قوية، فاصطكت الأسنان على الفراغ، مصدرة صوتًا حادًا. شعر سميث الجميل بالغضب والخوف، أما السمّور الرمادي فقد لطم ناب أبيض لطمة قوية على رأسه، حتى إنه تصاغر حتى اقترب من الأرض في طاعة واحترام.

ظلّت عينا ناب أبيض تراقبان كل حركة في توجّس. رأى سميث الجميل يذهب ويعود بهراوة ضخمة، ثم يتناول من السمّور الرمادي نهاية السَيْر المربوط في رقبته، وبعد ذلك يبدأ في السير مبتعدًا. بدأ السير الجلدي يضيق على رقبة ناب أبيض، الذي كان يرفض التحرك، فلطمه السمور الرمادي على جانبيه الأيمن والأيسر ليدفعه إلى النهوض والسير خلف الرجل. أطاع ناب أبيض، غير أنه اندفع كأنما يقذف نفسه على الغريب الذي يجرّه بعيدًا. لم يثب سميث الجميل مبتعدًا، إذ كان في انتظار تلك اللحظة، وإنما أدار الهراوة بحركة ماهرة فأجهض بها اندفاعة الكلب، وضربه ضربة عنيفة فسقط مُتكوِّمًا على الأرض. ضحك السمّور الرمادي، وأومأ برأسه مؤيّدًا، وشدّ سميث الجميل السَير الجلدي مرة

أخرى، على حين شرع ناب أبيض في الزحف مترنّحًا وراءه وهو يحاول أن ينتصب على قوائمه.

لم يُجازف ناب أبيض بالاندفاع مرة أخرى، فضربة واحدة من الهراوة كانت كافية لإقناعه بأن الإله الأبيض يعرف كيف يُدير الأمور، وهو على كل حال أكثر حكمة من أن يحاول مجابهة ما لا مفرّ منه. وهكذا قام يتبع سميث الجميل، وقد استغرقته الكآبة، وذيله متدلٍ بين قائمتيه، وإن كان لا يزال يزوم بصوت خافت. أما سميث الجميل فهو يرقبه بعين حذرة والهراوة جاهزة للضرب في أي لحظة.

عندما وصلا إلى المحطة التجارية، قام سميث الجميل بربط ناب أبيض ربطًا محكمًا، ثم ذهب إلى فراشه. انتظر ناب أبيض لمدة ساعة، ثم أعمل أسنانه في السير الجلدي، فتحرّر منه في ما لا يزيد على عشر ثوانٍ. لم يهدر وقته في زمجرة أو دمدمة بل قامت أسنانه بالعمل كلّه، وقطعت السير الجلدي قطعًا منتظمًا كأنه قُطع بسكّين. نظر ناب أبيض إلى المبنى، وهو يزمجر وقد انتفش شعره، ثم استدار وهرول في طريقه إلى مخيّم السمّور الرمادي، فهو لا يدين بالولاء لذلك الإله الغريب الفظيع. لقد منح نفسه للسمور الرمادي من قبل، وهو لا ينتمي إلا إليه.

تكرّر الذي حدث من قبل مرة ثانية، مع فارق بسيط. لقد ربط السمّور الرمادي ناب أبيض بسير جلدي، وأعاده في الصباح إلى سميث الجميل، وهنا حدث الشيء المختلف. لقد عاقبه سميث الجميل بالضرب ضربًا مبرّحًا، بعد أن ربطه بإحكام، ولم يستطع ناب أبيض سوى أن يهتاج هياجًا شديدًا - من دون أي جدوى - ويتحمّل العقاب. لقد استُخدم السوط والهراوة في أيقاع ذلك العقاب، الذي كان الأسوأ في حياته كلّها. حتى الضرب القاسي الذي تلقّاه في طفولته من السمّور الرمادي كان أخف وطأة مما تعرّض له في هذا اليوم.

أما سميث الجميل فقد استمتع بتلك المهمّة. نعم، ابتهج بضرب ضحيته، ولمعت عيناه البليدتان في شماتة، وهو يهز العصا أو السوط ويستمع إلى صيحات الألم، وإلى خوار ناب أبيض البائس وزمجرته. لقد تميز سميث الجميل بما يمكن تسميته قسوة الجبناء، فهو يتذلّل ويتباكى في مواجهة كلمات غاضبة أو سلوك عنيف من آدمي مثله، ثم ينتقم لنفسه عند مواجهة كائنات أخرى أكثر ضعفًا. إن الأحياء جميعًا يحبّون القوة، وليس سميث الجميل استثناءً من ذلك، أما وقد حُرم من التعبير عن تلك القوة بين أقرانه فهو يلتفت إلى المخلوقات الضعيفة ليفرغ طاقة الحياة التي بداخله. وليس لأحد أن يلوم سميث الجميل على ذلك، فهو بالتأكيد لم يخلق نفسه، فقد جاء إلى العالم بجسم مشوّه وذكاء شرير، ثم لم تترفّق الحياة بتلك العجينة الأساسية وتُحسّن تشكيلها.

فهم ناب أبيض بوضوح لماذا تعرّض للضرب. لقد ربطه السمور الرمادي بالسير الجلدي حول رقبته وسلّمه لسميث الجميل، عندئذٍ علم ناب أبيض أن إلهه يريده أن يذهب مع ذلك الرجل، وعندما تركه سميث الجميل مربوطًا خارج المحطّة التجارية أدرك أنها إرادة ذلك الرجل أن يظلّ هناك؛ إذًا لقد تمرّد على إرادة الإلهين، لذا حق عليه أن يتلقّى العقوبة المترتبة على ذلك. لقد شهد من قبل كلابًا تنتقل ملكيتها من شخص لآخر، ورأى من يهرب من الكلاب يُضرب كما حدث له. هو يتميّز بالحكمة بالفعل، غير أن في طبيعته قِوى أخرى تتجاوز الحكمة، وإحدى هذه القوى هي الولاء. هو بالفعل لم يحبّ السمّور الرمادي، ورغم ذلك لم يواجه تعنّته وغضبه إلا بالإخلاص له، وهو شيء لا يستطيع إلا أن يفعله، فهذا الإخلاص هو صفة من صفات الطينة التي خلق منها. إنها صفة يتميّز بها على وجه الخصوص النوع الذي ينتمي إليه، وتجعله مختلفًا عن أي نوع آخر، وهي نفسها التي مكنت الذئب والكلب البري من القدوم من البراري ومصاحبة الإنسان.

بعد انتهاء الضرب، اقتيد ناب أبيض إلى محطة التجارة مرة أخرى، وفي هذه المرة تركه سميث الجميل مربوطًا إلى قضيب من الخيزران. بالطبع، لا يتخلّى المرء عن إلهه بسهولة، وهكذا كان الحال مع ناب أبيض، فالسمّور الرمادي هو إلهه الخاصّ، وهو لا يزال مرتبطًا به، ولن يتخلّى عنه. حقًّا، لقد نبذه الرجل وخذله، لكن ذلك في ما يبدو لم يكن له أي تأثير عليه. لقد منح نفسه جسمًا وروحًا للسمّور الرمادي، ولا بد أن في ذلك الأمر حكمة ما، ومن ناحية ناب أبيض لا توجد أي تحفظات، فالرابطة بينهما لن تنفصم بمثل هذه السهولة.

لم يكن غريبًا إذًا أن يقوم ناب أبيض في الليل، بينما الرجال نائمون، بتوجيه أسنانه إلى الخيزرانة التي رُبط بها. كان الخشب التي صُنعت منه جافًا حسن التجهيز، كما كان مشدودًا إلى الحدِّ الذي جعل الوصول إليه بأسنانه في غاية الصعوبة، فاحتاج إلى بذل مجهود عضلي كبير وإلى ليّ رقبته بشكل مؤلم كالقوس حتى تمكّن من الإمساك بالكاد بالخيزرانة بين أسنانه. ثم احتاج الأمر منه إلى كثير من الصبر لكي يتمكّن، بعد عدة ساعات من قضمها. لم يكن ذلك الفعل مما هو مُفترض حدوثه من الكلاب، بل كان غير مسبوق. لقد فعله ناب أبيض، وها هو ذا يسير في الطريق في الصباح الباكر، خارجًا من محطة التجارة، ونهاية الخيزرانة مُعَلّقة إلى رقبته.

كان ناب أبيض حكيمًا، ولو كان حكيمًا فقط لما عاد مرة أخرى إلى السمّور الرمادي، الذي خذله بالفعل مرتين من قبل، لكنه كان مخلصًا أيضًا، لذلك عاد إليه، ليخذله للمرة الثالثة. ومرة أخرى استسلم ناب أبيض ليديّ السمّور الرمادي لكي يربط سيرًا جلديًا آخر حول عنقه، ومرة ثالثة جاء سميث الجميل ليسترجعه. وفي تلك المرة كان الضرب أكثر قسوة من كل ما سبق.

وقف السمور الرمادي ينظر في بلادة، بينما الرجل الأبيض البشرة

ينزل بالسوط على جسم ناب أبيض. لم يمنحه أي حماية، فهو لم يعد كلبه. وعندما انتهى الضرب، سقط ناب أبيض مريضًا، ولو كان كلبًا جنوبيًا مرفّهًا هو الذي تلقى ذلك الضرب لسقط نافقًا، أما ناب أبيض، فلا. إن خبرته في الحياة أكثر قسوة بما لا يُقاس، وهو بالتأكيد أصلب عودًا. صحيح أنه بطبيعته يضج بالحيوية، ومتشبّث بالحياة، غير أنه في تلك اللحظة كان مريضًا جدًا، حتى إنه لم يستطع أن يشدّ نفسه ليقف على قوائمه الأربع، واضطُر سميث الجميل للانتظار لمدة نصف ساعة. بعد ذلك قام ناب أبيض يترنّح كالسكير خلف مالكه، وهو لا يكاد يرى الطريق أمامه.

ها هو ذا الآن مربوط بسلسلة تتحدّى أسنانه، التي حاول جاهدًا، من دون أي جدوى، استخدامها لكي يخلع السلسلة من العارضة الخشبية التي ثُبِّتت فيها. وقد أفاق السمّور الرمادي من السُكر بعد عدة أيام، ليجد نفسه مفلّسًا، ويبدأ رحلته الطويلة عبر نهر «پـوركوپـاين» في طريقه إلى نهر «ماكينزي». أما ناب أبيض فقد بقي في «يوكن»، مملوكًا لرجل متوحّش شبه مجنون. ولكن ماذا يا تُرى يمكن لكلب أن يستوعب عن الجنون؟ سميث الجميل بالنسبة له هو إلهه الفعلي، وإن كان رهيبًا. وهو إله مجنون في أحسن الأحوال، لكن ناب أبيض لا يعرف شيئًا عن ذلك، بل لا يعرف سوى أن عليه أن يستسلم لإرادة ذلك السيّد الجديد، وأن يطيع رغباته، بل نزواته كلّها.

مكتبة
t.me/t_pdf

3

حكم الكراهية

تحوّل ناب أبيض إلى شيطان تحت ولاية الإله المجنون، الذي حبسه في حظيرة في الفناء الخلفي لمحطة التجارة، ولم يدّخر جهدًا في إغاظته وإثارة توتره بكل الوسائل الممكنة حتى يستبد به الغضب. لقد اكتشف الرجل منذ فترة حساسية ناب أبيض للسخرية منه، فصار يتعمّد أن يخدعه ثم يضحك بصوت عالٍ ساخرًا، بينما يشير إليه بإصبعه في استهانة. عندئذٍ يفقد ناب أبيض صوابه تمامًا، ويبدو في تعبيره عن الغضب أكثر جنونًا من سميث الجميل نفسه.

كان ناب أبيض في الماضي عدوًا شرسًا لنوعه، أما الآن فهو عدو لكل شيء، وبالتأكيد أكثر شراسة من أي وقت مضى. ولقد بلغ به الوجع حدًا جعله يمارس الكراهية بشكل عشوائي، من دون ذرة تفكير أو مراجعة للنفس. هو يكره السلسلة التي تربطه، ويكره الرجال الذين يتلصّصون عليه من بين الألواح الخشبية التي تحيط بالحظيرة، ويكره الكلاب التي يحضرها هؤلاء الرجال معهم، والتي اعتادت أن تزمجر بخبث من وراء الألواح بينما هو بائس يائس في الداخل. ويكره كل قطعة خشب صُنعت منها الحظيرة التي حُبس فيها.

ويكره أولًا وأخيرًا، وأكثر من أي شيء، سميث الجميل.

وبطبيعة الحال، كان ثمة غرض يهدف سميث الجميل إلى تحقيقه من خلال ما فعله مع ناب أبيض. وذات يوم تجمّع عدد من الرجال حول

الحظيرة، ثم دخل سميث الجميل، يحمل هراوة في يده، وفك السلسلة التي تحيط برقبة ناب أبيض. ولمّا خرج السيد، ووجد نفسه حرًّا طليقًا أخذ يجري مصطدمًا بسور الحظيرة، في محاولة لمهاجمة الرجال بالخارج. كان ناب أبيض في حالة رائعة ومروعة في آن معًا. طوله خمس أقدام كاملة، وارتفاعه حتى الكتف يصل إلى قدمين ونصف، ووزنه يفوق بكثير وزن ذئب في الحجم نفسه، إذ ورث عن أمه الحجم الكبير الذي يميّز الكلاب. لقد بلغ وزنه، من دون أي دهون ومن دون أي أوقية زائدة من اللحم، أكثر من تسعين رطلًا، كلّها عضلات وعظام وأوتار. نعم، تسعون رطلًا في حال ممتازة للقتال.

فُتح باب الحظيرة مرة أخرى، فتوقّف ناب أبيض مترقّبًا، وبدا أن ثمة شيئًا غير معتاد سيحدث. انتظر قليلًا، فإذا بالباب يُفتح مرة أخرى فتحة أكبر، يُدفع منها كلب ضخم، ثم يُعاد إغلاقه في سرعة وعنف. لم يرَ ناب أبيض من قبل مثل هذا الكلب الذي كان من فصيلة «الماستيف»، لكن حجم الكلب الدخيل وشكله الشرس لم يثنياه عن مهاجمته. ها هو ذا أخيرًا يجد أشياء غير الخشب والحديد يمكنه أن يصب عليها كراهيته وغضبه. وهكذا وثب ناب أبيض وانقض بأنيابه على الكلب الغريب فعقره في جانب رقبته. هز كلب الماستيف رأسه، ودمدم بصوت خشن، واندفع في اتجاه غريمه، غير أن ناب أبيض كان هنا وهناك وفي كل مكان، في الوقت نفسه، متهرّبًا مراوغًا، أو مهاجمًا شرسًا يصيب عدوه بأنيابه ثم يثب مبتعدًا بسرعة، هاربًا من العقوبة.

أخذ الرجال في الخارج يتصايحون ويهتفون، بينما سميث الجميل يحدّق في ابتهاج ونشوة في التمزيق والتشويه الذي أنزله ناب أبيض بخصمه. الحقّ أن الكلب الآخر لم تكن فرصته كبيرة منذ البداية، إذ اتّصف ببطء الحركة بالإضافة إلى حجمه الكبير، وهكذا انتهت الواقعة بسميث الجميل وهو يدفع ناب أبيض بهراوته بعيدًا عن غريمه الذي جرّه

صاحبه إلى خارج الحظيرة. ثم بدأت مبالغ الرهان تُدفع خارج الحظيرة، والنقود تصدر خشخشة في يديّ سميث الجميل.

بات ناب أبيض - منذ ذلك الحين - يتطلّع متشوقًا لتجمع الرجال حول حظيرته، فذلك يعني معركة جديدة، وتلك هي الطريقة الوحيدة المتاحة له الآن للتعبير عن طاقة الحياة التي بداخله. إنه مُعذّب بالحبس وراء الجدران، ومدفوع إلى الكراهية، لا يجد وسيلة لإفراغ طاقة الكراهية تلك سوى في الأوقات التي يراها سيّده مناسبة لكي يشتبك في قتال مع كلب آخر. وقد أحسن سميث الجميل تقدير قوة ناب أبيض الذي كان ينتصر دائمًا على خصومه، ففي أحد الأيام أدخل إليه ثلاثة كلاب على التوالي، وفي يوم آخر دُفِع من باب الحظيرة بذئب اصطيد مؤخّرًا من البراري، وفي مرة ثالثة أُدخل كلبان لكي يقاتلهما في الوقت نفسه. كانت تلك أقسى معركة يشارك فيها، ورغم أنه تمكّن من قتل الكلبين في النهاية، فقد كاد يفقد حياته هو أيضًا.

في خريف ذلك العام، عندما بدأ الثلج يسقط، وقطع الجليد الهشّة تجري مع مياه النهر، أخذ سميث الجميل كلبه في رحلة على سفينة بخارية عبر نهر «يوكن» إلى مدينة «داوسون». كان ناب أبيض قد اكتسب شهرة واسعة في المنطقة حتى صار يُعرف باسم «الذئب المقاتل»، لذلك كان القفص الذي يجلس بداخله على سطح السفينة عادة ما يحاط برجال استبدَّ بهم الفضول. أما هو فيواجه فضولهم بالغضب والزمجرة، أو يرقد بهدوء وهو يتفحّصهم بكراهية باردة. ولماذا لا يحمل لهم إلا الكراهية؟ لم يسأل نفسه قطّ هذا السؤال، فهو لا يعرف سوى الكراهية، التي استغرقته تمامًا، فصارت الحياة له جحيمًا لا يُحتمل، وهو لم يُخلق لذلك الحبس الذي تتحمله بعض حيوانات البراري على يد الإنسان. ورغم ذلك فإن هذه بالتحديد هي الطريقة التي يُعامَل بها، فالرجال يحملقون فيه، وينغزونه بعصيّ يُدخلونها من بين قضبان القفص ليجعلوه يزمجر، ثم يضحكون عليه.

إن تلك البيئة القاسية التي تحيط بناب أبيض تؤثّر فيه بلا شك، وتجعله أكثر شراسة مما تقتضي طبيعته. على كل حال، لقد منحته الطبيعة قدرة عالية على التشكُّل، ولعل حيوانات أخرى لو تعرضت لما تعرض له لماتت أو انكسرت روحها، أما هو فقد تمكّن من التكيّف مع ظروفه، والاستمرار في الحياة، من دون خسارة في الروح. ولعل سميث الجميل بطبعه الشيطاني الخبيث ومحبّته للإيذاء، كان قادرًا على كسر روح ناب أبيض، إلا أنه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك ما يشير إلى نجاحه في ذلك.

لو أن سميث الجميل يحمل بين جوانحه شيطانًا، فإن ناب أبيض يحمل شيطانًا آخر، والاثنان في صراع دائم. كان ناب أبيض في الماضي يمتلك الحكمة التي تجعله يتصاغر ويستسلم أمام أي إنسان يحمل هراوة في يده، أما الآن فلقد فارقته تلك الحكمة. إن مجرّد رؤيته لسميث الجميل كانت كفيلة بجعله يدخل في نوبة غضب عارم، تُعرّضه لضرب قاسٍ بهراوة سميث الجميل، ويكون ردّه عليها مزيد من الزمجرة والتكشير عن أنيابه. وهو لا يتراجع أبدًا عن أن تكون له الكلمة الأخيرة، فمهما كان الضرب قاسيًا، لا بد أن تتبعه زمجرة غاضبة من ناب أبيض. قد يتوقّف سميث الجميل عن الضرب وينسحب، فتتبعه الزمجرة المُتحدّية، أو ينقض ناب أبيض على قضبان القفص ليبثه كراهيته من خلالها.

عندما وصلت السفينة البخارية إلى «داوسون»، أُنزل ناب أبيض إلى الشاطئ، لكن ظلّ لحياته الطابع العلني نفسه، فهو في قفص، محاط برجال فضوليين، يدفع كل منهم ما قيمته خمسين سنتًا من غبار الذهب لكي يراه. وليس مسموحًا له بالراحة، فإذا رقد لينام جاء من ينغزه بعصا حادة، حتى ينهض ويرى الناس منه ما يوازي النقود التي دفعوها، ولكي يتّصف العرض بالتشويق كان من اللازم إثارة غضبه معظم الوقت. أما الشيء الأسوأ على الإطلاق فهو المناخ الذي أحاط به، فهو يُعامَل باعتباره أكثر وحوش البراري إثارة للخوف، وكان ذلك المعنى يصل

إليه من خلال قضبان القفص ويستقر في نفسه. كل كلمة، وكل تصرّف حَذِر يقوم به الرجال في الخارج يؤكّد على شراسته، وكان ذلك بمثابة الوقود الذي يزيد تلك الشراسة اشتعالًا. والنتيجة الطبيعية لذلك كلّه هو أن ضراوته يتولّد عنها مزيدٌ من الضراوة، وهذه لحظة أخرى اتضحت فيها طبيعته القابلة للتشكُّل، تبعًا لتأثيرات البيئة المحيطة به.

وبالإضافة إلى تلك الحياة العلنية، صار ناب أبيض مقاتلًا محترفًا، ومن حين لآخر، عندما يمكن ترتيب جولة قتال جديدة، يؤخذ من قفصه إلى الأدغال على بعد عدة أميال من المدينة. ويحدث ذلك عادة أثناء الليل حتى لا يتعرّض لهم رجال الشرطة الكندية. تمضي ساعات في الانتظار، ومع ظهور ضوء النهار يصل المتفرجون والكلب المقاتل الآخر. وقد قاتل ناب أبيض من خلال هذه الترتيبات كل أنواع الكلاب، وبالأحجام كلّها. كانت الهمجية هي طابع المكان والبشر، وكانت العادة أن يستمر القتال حتى الموت.

وما دام ناب أبيض لا يزال يحارب، فإن ذلك يعني بطبيعة الحال أن الكلاب الأخرى هي التي تموت في نهاية جولات القتال، أما ناب أبيض فلم يعرف الهزيمة. ومما لا شك فيه، أن التدريب المبكّر الذي تلقّاه في مواجهاته مع الكلب ليـپ ليـپ وبقية فريق الكلاب كان ذا فائدة كبيرة، وكذلك قدرته على التشبث بالأرض وإصراره على ذلك، حتى إنه ما من كلب استطاع أن يُفقده توازنه. وقد كانت محاولة إفقاده توازنه هي الحيلة المفضّلة للذئاب التي تواجهه، فكان الذئب يندفع إليه، مباشرة أو في تحوّل مفاجئ، على أمل أن يصطدم بكتفه ويُفقده توازنه، ولكن من دون فائدة. وقد حاولت أنواع الكلاب المختلفة التي واجهته ذلك أيضًا: كلاب صيد «ماكينزي»، وكلاب «الإسكيمو»، و«الهاسكي» و«الملموت» و«اللابرادور»، كلها حاولت وفشلت. وهكذا عُرف عنه أنه لا يُمكن لأحد منها أن يُفقده توازنه ويقلبه على الأرض، وقد تبادل الرجال هذه المعلومة،

وأخذوا يترقّبون في كل جولة أن ينجح أحد الحيوانات المقاتلة في ذلك، لكن النّاب الأبيض كان يخذلهم في كل مرة.

تميّز ناب أبيض في القتال بالخفّة والسرعة، مما أعطاه ميزة على منافسيه، ورغم اختلافهم في خبراتهم في القتال، فلم يسبق لأيٍّ منهم أن التقى بكلب يتحرّك بمثل سرعته. ولوحظ أيضًا على ناب أبيض أسلوبه المباشر في القتال، فالكلب العادي معتاد على بعض المقدّمات مثل الزمجرة ونفش الشعر، ومثل ذلك الكلب العادي كان يفقد توازنه ويُقضى عليه - في مواجهة ناب أبيض - قبل حتى أن يبدأ القتال، بل قبل أن يُفيق من المفاجأة الأولى. وقد تكرّر ذلك الأمر مرات كثيرة حتى صارت العادة أن يُحتجز ناب أبيض إلى أن ينتهي غريمه من تلك المقدمات، ويصبح جاهزًا لبدء القتال، بل ويُترك له البدء بالهجمة الأولى.

أما أعظم الميزات التي تمتّع بها ناب أبيض فهي خبرته الطويلة في القتال، التي جعلته يعرف عنه أكثر مما يعرف أيًّا من خصومه. لقد انخرط في جولات قتال أكثر من أي واحد منهم، وتعلم حِيَلًا ووسائل أكثر منهم جميعًا، بل كانت له حِيَل خاصّة به، أما وسائله في القتال فيصعُب القول إنها كانت تحتمل أي تطوير أو تحسين!

وصارت جولات القتال تتناقص بمرور الوقت، إذ فقد الرجال الأمل في أن يجدوا مقاتلًا مساويًا في إمكاناته لناب أبيض، مما اضطر سميث الجميل إلى أن ينظم جولات قتال بينه وبين الذئاب، التي قام بصيدها لذلك الغرض السكان الأصليون من ذوي الأصل الهندي. وقد جذبت مثل هذه الجولات زحامًا كبيرًا من المتفرّجين. وذات مرة جاء الصائدون بأنثى مكتملة النمو من حيوان الوشق لتقاتل ناب أبيض، الذي كان عليه يومئذٍ أن يقاتل من أجل حياته. تساوى الغريمان تقريبًا في السرعة والشراسة، غير أنه كان لا يملك سوى أنيابه للهجوم، أما غريمته فكانت تقاتل بمخالبها الحادة بالإضافة لأنيابها.

بعد المعركة مع الوشق أخذت فرص القتال تندر، فلم يعد ثمة

حيوانات لتقاتله، على الأقل لم يوجد أي حيوان يعتبر مستحقًا للمنافسة مع ناب أبيض، لذلك ظل معروضًا للمشاهدة العامة حتى جاء فصل الربيع. عندئذٍ وصل إلى المنطقة المقامر تيم كينان، ومعه أول كلب من فصيلة «البولدوغ» يدخل إلى «كلوندايك». وكان حتميًا أن يلتقي ناب أبيض بذلك الكلب في جولة قتالية، وقد ظلّ الحديث عن ذلك القتال المرتقب، لمدة أسبوع تقريبًا، يمثل الموضوع الرئيسي لأحاديث الناس في عدة مناطق من المدينة.

4

بين فكّي الموت

فكّ سميث الجميل السلسلة التي حول رقبته ثم تراجع إلى الوراء.

للمرّة الأولى في مواجهاته كلّها لم يقم ناب أبيض بالهجوم الفوري على غريمه. لقد وقف ساكنًا، منتبهًا في فضول، وأذناه منتصبتان إلى الأمام، يتفحّص الحيوان الغريب الذي في مواجهته، فهو لم يرَ مثله من قبل. دفع كينان كلبه البولدوغ إلى منتصف الدائرة، وهو يغمغم: «هيا إليه». مشى الكلب متمايلًا في اتجاه وسط الدائرة: قصيرًا، بدينًا، غليظًا. توقّف البولدوغ بعد قليل ورمش بعينيه في اتجاه ناب أبيض.

انبعثت صيحات من ناحية الجمهور «اهجم عليه يا شيروكي»، و«انقض عليه يا شيروكي»، و«هيا التهمه»!

شيروكي من ناحيته بدا غير متحمّس للقتال. لقد أدار رأسه ورمشت عيناه في مواجهة صيحات الرجال، بينما يهتزّ ذيله القصير في طيبة. لم يكن الكلب خائفًا، بل كسولٌ فحسب. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن متأكّدًا أن المطلوب منه هو أن يقاتل هذا الكلب الذي يقف أمامه، فلم يكن معتادًا على مواجهة ذلك النوع من الكلاب، فهو في انتظار أن يُحضروا الكلب المقاتل.

خطا تيم كينان إلى داخل الدائرة، ثم انحنى على شيروكي، وأخذ يداعبه على جانبي كتفيه، وذلك بتدليك الجسم عكس اتجاه الشعر، مما أدى إلى حركة خافتة، حافلة بالاحتمالات، في اتجاه الأمام. ولا شك

أن ذلك أدى إلى إثارة توتر شيروكي إذ بدأت دمدمة شديدة الخفوت تتصاعد من أعماق حلقه، ولوحظ أن ثمة توافقًا في الإيقاع بين الدمدمة وحركة يدي الرجل، فالدمدمة ترتفع في الحلق مع وصول كل حركة أمامية إلى ذروتها، ثم تنحسر مع الحركة المتجهة إلى الوراء إلى أن تنتهي بشكل مفاجئ، ثم تعود لتبدأ من جديد مع هزة حركة جديدة إلى الأمام.

وكان لذلك تأثيره على ناب أبيض أيضًا، فقد بدأ الشعر ينتصب على ظهره وعبر كتفيه. أعطى تيم كينان دفعة أخيرة لكلبه، ثم خطا عدة خطوات إلى الخلف. تلاشت بعد لحظات قوة الدفع التي نتجت عن التشجيع، فإذا بالكلب شيروكي يعود إلى طبيعته ويواصل تقدّمه بحركة هادئة غير متوازنة. وفجأة هجم ناب أبيض على غريمه، فصدرت عن الجمهور صيحة إعجاب ممزوجة بالدهشة. لقد وثب على خصمة في خفّة القط فأصابه بأنيابه ثم عاد بالخفّة نفسها إلى مكانه من دون أن يُمَسّ.

بدأ البولدوغ ينزف من خلف إحدى أذنيه، بسبب جُرح في رقبته السميكة، غير أنه لم يُظهر أي رد فعل، ولا حتى دمدمة، إلا أنه استدار وأخذ يتبع ناب أبيض. ثارت حماسة المتفرّجين نتيجة غرابة العرض الذي يشاهدونه: الخفّة والسرعة في ناحية والثبات والتؤدة في الناحية الأخرى، وقدّم المتفرّجون مراهنات جديدة، كما تزايدت قيمة المراهنات القديمة. ثم هجم ناب أبيض مرة أخرى، فنهش غريمه، قبل أن يرتدّ من دون إصابة. ولم يغير هذا من أسلوب الآخر، بل ظل يتبعه، من دون استعجال، وإن لم يكن ببطء، وإنما فقط يتحرّك في تعمد وتصميم، وبأسلوب عملي. لا بد أنه كان يهدف إلى غرض ما، غرض لن يحيد عنه، ولن يستطيع أحد أن يدفعه إلى ذلك.

كان ذلك الهدف غير المعلوم يسيطر على كل أفعاله وردود أفعاله، مما أثار حيرة ناب أبيض. هو بالتأكيد لم يصادف مثل هذا الغريم من قبل، فهو كلب ناعم الجلد، لا غطاء من الشعر يحمي جلده، لذا فهو ينزف دمًا

بسهولة. وليس ثمة رداء كثيف من الفراء يحول بينه وبين أسنان غريمه، كما هو الحال مع الكلاب الأخرى من فصيلة ناب أبيض. وهكذا، كلما نهشته أسنان غريمه، غاصت بسهولة في اللحم اللين، على حين بدا صاحبه غير قادر على الدفاع عن نفسه. ومما أثار ارتباك ناب أبيض وقلقه أيضًا أن شيروكي لم يصدر عنه أي سلوك يدل على الاحتجاج، كما اعتاد ناب أبيض أن يرى عند قتاله الكلاب الأخرى. نعم، أخذ الكلب البولدوغ عقابه بهدوء، في ما عدا بعض الدمدمة والنخير. ولم يؤثّر ذلك على كل حال في إصراره على تتبّع ناب أبيض.

لم يكن شيروكي بطيئًا، فهو يستطيع أن يدور ويلتفت بسرعة كافية، لكنه لسبب ما لا يستطيع أن يمسك بناب أبيض. شعر شيروكي من ناحيته أيضًا بكثير من الحيرة، فهو لم يقاتل من قبل مع كلب لا يستطيع أن يطبق فكيه عليه، ولا يبادله الرغبة نفسها في إطباق فكّيه على الغريم! وها هو ذا يواجه كلبًا يحرص على إبقاء مسافة بينهما، بل يرقص ويتملّص منه هنا وهناك، وعندما نجح في غرز أسنانه في جسمه سرعان ما انطلق متراجعًا كالسهم، بدلًا من التشبّث به!

لم يتمكّن ناب أبيض من الوصول إلى الجانب الداخلي اللين من عنق البولدوغ الذي يتميّز بالقِصر الشديد، بالإضافة إلى فكّيه القويين اللذين يمثّلان مزيدًا من الحماية. لا يزال ناب أبيض يرشق أنيابه في جسم غريمه ويرتد سليمًا معافى، على حين تتزايد جراح شيروكي وتنزف دماؤه بغزارة من جانبي رقبته ورأسه، حيث نهشه غريمه. ورغم تلك الدماء الغزيرة لا تبدو عليه علامات التوتّر أو الارتباك فهو مستمر في التتبع المتثاقل لناب أبيض، فيما عدا لحظات قليلة توقّف فيها عن الحركة وألقى نظرة على المتفرّجين، بينما أخذ ذيله القصير يتأرجح يمينًا ويسارًا تعبيرًا عن استعداده للاستمرار في القتال.

وثب ناب أبيض فوق غريمه في اللحظة نفسها، ثم ارتدّ إلى الخلف

وقد مزّق الجزء الباقي من أذنه، مما جعل شيئًا من الغضب يظهر على وجه شيروكي ويدفعه إلى محاولة السيطرة على سير الأمور، فيجري في داخل الدائرة التي كان ناب أبيض يرسمها بحركته، وهو يجاهد لكي يقبض عليه بفكّيه القويين. أخطأ شيروكي هدفه بمقدار لا يتجاوز الشعرة، فارتفعت صيحات الاستحسان من الجماهير، على حين قفز ناب أبيض فجأة إلى الناحية الأخرى، مبتعدًا عن الخطر.

أخذ الوقت يمضي وناب أبيض لا يزال يتراقص ويتملّص من خصمه من دون أن يكف عن إصابته. ومن ناحيته لا يزال كلب البولدوغ يجاهد لملاحقته، وهو على يقين بالغ الصرامة من قدرته في نهاية الأمر على تحقيق هدفه، وإحكام فكّيه عليه، مما يعني فوزه في المعركة. وهو في سبيل تحقيق ذلك الهدف لا يمانع في تحمّل جراحه كلّها، فقد تحوّلت أذناه إلى شرائح، أما رقبته وكتفاه فقد تعرضت للنهش في غير موضع، كذلك بدأ الدم يسيل من جراح شفتيه، وذلك كلّه بسبب انقضاض غريمه عليه في سرعة البرق، بما يفوق قدرته على التنبؤ أو الدفاع.

حاول ناب أبيض لعدة مرات أن يُفقد شيروكي توازنه، لكن التفاوت في ارتفاعيهما كان كبيرًا، إذ إن شيروكي كان مدكوك الجسم، قليل الارتفاع عن الأرض. وقد حاول ناب أبيض أن يخدعه بالأسلوب القديم نفسه، فاستغل واحدة من ارتداداته بعد نهش غريمه، الذي كان يجري في عكس اتجاه جريه. وجد ناب أبيض خصمه، وقد التفت برأسه في تلك اللحظة، فانكشفت رقبته، عندئذٍ هجم ناب أبيض. كان كتفه عاليًا وقوة الدفع أيضًا عالية فإذا بجسمه يطير في الهواء أعلى جسم غريمه ويعبر إلى الناحية الأخرى، ولأول مرة في تاريخه القتالي يرى الناس ناب أبيض وهو يفقد توازنه. لقد اندفع في نصف شقلبة في الهواء، وكاد يسقط على ظهره لولا أنه انعطف بخفة كالقط وهو لا يزال في الهواء محاولًا النزول بقوائمه على الأرض، ولكنه ارتطم بالأرض بأحد جانبي جسمه، وفي

اللحظة التالية كان منتصبًا على قوائمه. وفي تلك اللحظة نفسها انطبقت أسنان شيروكي على عنقه.

لم يكن انطباق الفكّين قويًّا، وذلك بسبب موضعه المنخفض قرب الصدر، إلا أن شيروكي ظلّ متشبثًا بعنق غريمه. أما ناب أبيض، فقد أخذ يتواثب في كل اتجاه محاولًا أن يفكّ تشبّث غريمه به ويلقيه بعيدًا عنه. إن ذلك الوزن المتشبّث به، ولا يكفّ عن جرّه، يجعله هائجًا إلى أقصى حد، فهو يعرقل حركته ويحدّ من حرّيته، مثله مثل المصيدة التي تضيق بها غريزته وتثور عليها. وهو الآن في ثورة هائلة، ولعدة دقائق سيطر عليه الجنون، بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ، وصارت طاقة الحياة المحتدّة بداخله هي التي تسيطر عليه، وقد انبثقت إلى الخارج على شكل رغبة حارقة في الاستمرار حيًّا. نعم، هو في تلك اللحظة تحت سيطرة رغبة غريزية في أن يحيا. ذهب العقل والذكاء والدهاء، ولم يبقَ سوى توق عارم للجسد إلى أن يظل حيًّا يتحرّك، مهما كانت المخاطر، فالحركة هي التعبير الحقيقي عن الوجود.

استمر ناب أبيض في الحركة: يدور ويلتفت ويغيِّر اتجاهه، بل يعكسه، وكل ذلك في محاولة لهز تلك الأرطال الخمسين التي تتشبّث بعنقه وتتحرّك معه، ومن ثم إلقائها بعيدًا عنه. أما البولدوغ فهو لا يفعل شيئًا سوى الحفاظ على فكّيه منطبقين على ناب أبيض، وأحيانًا، بل نادرًا، تستطيع قوائمه أن تصل إلى الأرض فيحاول تحقيق شيء من التوازن في مواجهة ناب أبيض، لكن سرعان ما يجد نفسه وهو يُجرّ في حركة مجنونة أخرى من حركات غريمه. الحقّ أن شيروكي أيضًا كان منساقًا لغريزته، التي تقول له إن ما يفعله هو الصواب، ومرّت به بعض لحظات من النشوة الغامرة والرضا، يغلق فيها عينيه ويترك جسمه يُقذف في كل اتجاه بشكل عشوائي، غير مبالٍ بأي إصابة قد تلحق به، فذلك لا يهم. المهم هو أن يظلّ متشبثًا بعنق غريمه، وقد نجح في ذلك.

لم يتوقّف ناب أبيض عن الحركة إلا عندما أُجهد إجهادًا تامًّا، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر الآن، وهو أيضًا غير قادر على فهم ما يجري. لم يسبق أبدًا في كل المعارك التي خاضها أن حدث ذلك، ولم يقاتله كلب مطلقًا بهذه الطريقة، بل كان الأسلوب المعتاد هو الانقضاض ثم التراجع، ومزيد من الانقضاض ثم التراجع. وهكذا رقد ناب أبيض جزئيًا على أحد جانبيه وهو يلهث، على حين أخذ شيروكي، وهو لا يزال متشبّثًا به، يدفعه محاولًا وضعه بشكل كامل على جانبه. ناب أبيض من ناحيته لا يزال يقاوم، وهو يشعر بالفكّين المنطبقين يحاولان إحكام إمساكهما بعنقه عبر حركات خافتة تشبه المضغ، كل حركة منها تجعل غريمه أكثر قربًا من حلقه. طريقة الكلب البولدوغ تلخّصت في الاستمرار في إطباق فكّيه على غريمه، وعندما تسنح الفرصة، العمل على مزيد من التحكّم في رقبته، وقد سنحت الفرصة الآن عندما رقد ناب أبيض ساكنًا، أما عند اندفاعه هائجًا، فقد كان على شيروكي أن يكتفي بالتشبّث بها.

لم يكن ناب أبيض في وضعه ذاك قادرًا على الوصول إلى أي جزء من جسم غريمه سوى خلفية عنقه المنتفخ، فأنشب أسنانه فيها بقرب التقائها بالكتفين، غير أنه لم يعرف أسلوب المضغ عند القتال، بل لم يكن فكاه مُهيأين له أصلًا. لقد أخذ ينهش ويمزق بأنيابه بشكل متشنّج، غير أن تغيرًا حدث في وضعه اضطره للانصراف عن ذلك، فقد تمكّن البولدوغ من قَلبِه على ظهره تمامًا، ثم اعتلائه، على حين ظل متشبّثًا برقبته. عندئذٍ، ضم ناب أبيض قائمتيه الخلفيتين إلى صدره وراح يدفع بهما في بطن غريمه، وكان يمكن لبراثنه أن تمزق أحشاء شيروكي لولا أن الأخير قام بسرعة بتغيير محور ارتكازه، بحيث أصبح جسمه في زاوية قائمة مع ناب أبيض وليس موازيًا له، وذلك من دون أن يخفّف انطباق فكّيه على عنق غريمه.

لم يكن ثمة مهرب من هذين الفكين، كأنهما فكا القدر الذي لا فكاك

منه، وببطء تحرك الفكّان إلى أعلى بمحاذاة الوريد الرئيسي. ولم ينقذ ناب أبيض من الموت في تلك الظروف سوى جلد عنقه الرخو والفراء الكثيف الذي يُغطيه، إذ تكوّن من الاثنين معًا ما يشبه لفافة تملأ فم شيروكي. لا شك أن الفراء قام بدور مهم في التصدي لأسنان البولدوغ الحادّة، غير أن ناب أبيض كان يختنق ببطء، إذ بدأ يجد صعوبة في التنفّس، تتزايد مع مرور كل دقيقة.

يبدو الآن أن المعركة صارت على وشك الانتهاء، وقد بلغ الابتهاج بمؤيِّدي شيروكي مبلغًا كبيرًا، حتى إنهم بدأوا يعرضون توقّعات غريبة في الرهان، أما مُشجعو ناب أبيض، على الجانب الآخر، فقد سرت مشاعر الكآبة بينهم، ورفضوا مراهنات بمقدار عشرة إلى واحد بل عشرين إلى واحد، رغم أنه كان ثمة رجل متسرّع بما يكفي لإغلاق مراهنة بمبلغ خمسين إلى واحد، وهذا الرجل كان سميث الجميل، الذي تقدّم بعد ذلك إلى قلب حلقة القتال، ثم أشار بإصبعه إلى ناب أبيض، وشرع في الضحك بسخرية واستهزاء. أتى ذلك السلوك بالنتيجة المرجوة، إذ وثب الذئب المقاتل في غضب وحشيّ، واستدعى من أعماقه ما بقي مخزونًا فيها من قوة، فانتصب واقفًا على قوائمه. أخذ ناب أبيض يدور في حلبة القتال، في حين تدلّى من عنقه خمسون رطلًا، هي وزن غريمه المتشبث به. تحوّل الغضب إلى فزع، وعادت الرغبة الدفينة في الحياة تسيطر عليه وقد أزاحت من طريقها أي ذكاء أو محاولة للتفكير؛ وهكذا أخذ يدور ويدور ويُعيد الدوران في الاتجاه الآخر، فيتعثّر ويقع ثم يعاود النهوض، بل وصل به إلى الأمر إلى الوقوف على ساقيه الخلفيتين رافعًا قدمي خصمه تمامًا من على الأرض، ومحاولًا هزّه بعنف للتخلّص من ذلك الموت الذي ينشب أنيابه في عنقه، من دون أي جدوى.

سقط ناب أبيض في نهاية الأمر، تعثّر وسقط على الأرض وقد غلبه الإجهاد، أما الكلب البولدوغ فقد شرع على الفور يلوك مزيدًا من لحم

العنق وفرائه، مقتربًا أكثر وأكثر من خنق ناب أبيض تمامًا. وتصاعد آنذاك الهتاف للمنتصر، وتعالت الصيحات «شيروكي شيروكي». استجاب البولدوغ لتلك الصيحات بهز ذيله القصير بحماسة، لكن ذلك الصخب لم يشدّ انتباهه، أو يصرفه عن مهمته، وبدا واضحًا أنه ليس ثمة تجاوب بين ذيله وفكّيه الضخمين، فالذيل قد يتأرجح طربًا، أما الفكّان فلا يزالان منطبقين بالقوة نفسها على عنق ناب أبيض.

حدث في تلك اللحظة شيء صرف انتباه جماعة المتفرجين، إذ كان ثمة صلصلة أجراس، كما سُمعت صيحات لقائد زلّاقة يوجّه الكلاب. نظر الجميع، في ما عدا سميث الجميل، يستطلعون الأمر في توجّس، خوفًا من ظهور رجال الشرطة، إلا أنهم رأوا رجلين قادمين من بعيد على الطريق، ومعهما زلّاقات تجرها الكلاب، وكان واضحًا أن الركب قادم من رحلة تنقيب عن الذهب. لقد رأى الرجلان الزحام، فأوقفا الكلاب وجاءا يستطلعان الأمر. كان قائد الكلاب ذا شارب كثيف، أما الآخر، الأطول والأصغر سنًا، فهو حليق الوجه، وقد توردّت بشرته بسبب تدفق الدماء فيها وهو يجري في الجو البارد.

توقّف ناب أبيض عن المقاومة، أو كاد، إذ لم يبقَ سوى بضع تشنجات - من دون هدف - من حين لآخر. هو الآن لا يستطيع أن يحصل إلا على القليل من الهواء، الذي يزداد تناقصًا تحت ضغط الفكّين اللذين لا يرحمان. إن المرة الأولى التي التقم فيها البولدوغ عنق ناب أبيض كانت في موضع أقرب للصدر منه للعنق، ولولا ذلك لكان الوريد قد انفجر منذ مدة، رغم درع الفراء الذي يحتمي به. نعم، لقد استغرق شيروكي كثيرًا من الوقت لكي ينتقل بفكّيه إلى أعلى، وأدّى ذلك من ناحية أخرى إلى تكدّس طيّات اللحم والفراء داخل الفكّين.

عندئذٍ، استيقظ الوحش المُريع الكامن في سميث الجميل، وجعل يتحكّم في القليل من الغريزة التي لا تزال لديه، لذا عندما رأى الذئب

المقاتل قد زاغت عيناه، وأيقن أنه خسر المعركة، انطلق ذلك الوحش، فأخذ سميث الجميل يركل ناب أبيض بشراسة، وتصاعدت بعض صيحات الاستنكار والصفير من المتفرّجين، لكن أحدًا لم يتحرّك. وحدث شيء من الاضطراب في زحام المشاهدين بينما سميث الجميل مستمرٌّ في ركله الوحشي لناب أبيض، وإذا بالشاب الغريب الطويل يشقّ طريقه بين الناس وقد اصطدم بالأكتاف عن يمينه وعن يساره، من دون مراعاة للكياسة والتلطّف. وصل الشاب إلى حلقة القتال واقتحمها، بينما كان سميث الجميل يستعد لتسديد ركلة جديدة إلى ناب أبيض. وقف سميث الجميل، مرتكزًا بوزنه كله تقريبًا على ساق واحدة، وبقية جسمه في حالة من عدم التوازن، وفجأة اندفعت قبضة الشاب الغريب وارتطمت بوجه سميث الجميل في ضربة قوية، فارتفعت ساقه عن الأرض وطار جسمه كلّه في الهواء، ثم سقط على ظهره مرتطمًا بالجليد. والتفت الشاب الغريب إلى الناس وهو يصيح:

- «أيها الجبناء، أيها الوحوش!».

كان هو أيضًا في شدّة الغضب، لكنه غضب لم يفقده غريزته. وبدت عيناه الرماديتان لامعتين وفي صلابة الفولاذ، إذ تومضان وهو يطلّ على الرجال المحتشدين. أما سميث الجميل فقد استعاد توازنه، وتقدّم شاكيًا مُتَباكيًا في اتجاه الشاب، غير أن الأخير لم يعرف كم هو جبان متذلّل، وظنّ أنه قادم للقتال، فناوله لكمة أخرى في وجهه وهو يصيح: «يا لك من وحش». سقط سميث الجميل على الأرض للمرة الثانية، غير أنه لم يحاول النهوض هذه المرة، إذ بدا له أن الجليد هو أكثر المواضع أمنًا بالنسبة له. أما القادم الغريب فقد خاطب رفيقه الذي تبعه إلى حلبة القتال،:

- «هيا يا مات، اَعطني يدك».

انحنى الرجلان فوق الكلبين، وأمسك مات بناب أبيض استعدادًا لجذبه عندما ينفك الفكّان المطبقان، وقد حاول الشاب الغريب أن يقوم بتلك المهمة، عن طريق القبض بقوة على فكّي الكلب البولدوغ بين يديه، ومحاولة فصلهما عن بعضهما، غير أنه لم يفلح. وبينما هو يقبض بيديه ويشدّ، أخذ يعلّق مع كل شهيق: «وحوش!».

أخذ شيء من الاضطراب يسري بين جماعة النظّارة، وشرع بعض الرجال في التعبير عن احتجاجهم على إفساد جولة القتال، غير أن الجميع سكتوا عندما رفع الشاب الغريب رأسه للحظة وانفجر فيهم جميعًا قائلًا: «يا لكم من وحوش»، ثم عاد يستكمل أداء مهمته.

قال مات بعد فترة من الوقت:

- «لا فائدة يا سيد سكوت، لن تستطيع أن تفصل بينهما بهذه الطريقة».

وتوقّف الرجلان للحظات وأخذا يتفحّصان الكلبين المشتبكين، ثم قال مات:

«إنه لا ينزف بغزارة، وهو لم يَنفق بعد».

فأجابه سكوت:

- «لكن ذلك يمكن أن يحدث في أي لحظة». ثم أضاف بسرعة:

«انظر يا مات، إنه يحرّك فكّيه ليزيد انطباقهما على عنق الكلب الآخر».

أخذ اهتمام الشاب الغريب بناب أبيض وتلهفه على مساعدته يتزايدان، حتى إنه قام بضرب شيروكي عدة مرات على رأسه بعنف، لكن ذلك لم يخفِّف من انطباق فكّيه. وهز الكلب البولدوغ ذيله القصير، وكأنه يُعلن أنه فهم معنى تلك الضربات، لكنه متأكّد أنه يفعل الصواب، ويقوم بواجبه في التشبّث برقبة غريمه.

وصاح سكوت يائسًا في المتفرجين:

- «ألن يأتي أحدكم لمساعدتي؟».

لم يعرض أحد مساعدته، وبدلًا من ذلك بدأ الرجال في التهكّم عليه، وأمطروه بكثير من النصائح الساخرة.

ثم قال مات ناصحًا:

- «عليك أن تستخدم شيئًا لفتح فكّي الكلب».

عندئذٍ، أسرع الشاب بمدّ يده إلى الجراب المعلق أعلى فخذه وسحب مسدسه، ثم شرع في دفع فُوَّهة المسدس بين فكّي الكلب البولدوغ، وأخذ يحشُر أكثر وأكثر حتى أصبح صرير احتكاك الحديد بأسنان الكلب يُسمع بوضوح. كان كلٌّ من الرجلين مستندًا إلى ركبتيه، منحيًا فوق الكلبين، وإذا برجل ثالث يسرع الخطى إلى داخل حلبة القتال، هو المقامر تيم كينان، ثم يقف بجوار سكوت ويمسّ كتفه، ويقول بلهجة منذرة بالشر:

- «لا تكسر أسنانه، أيها الغريب».

- «إذًا سأكسر رقبته». هكذا جاء الرد سريعًا من الغريب، وهو مستمر في محاولته لحشر فوهة المسدس والفصل بين الفكّين.

تكلم تيم كينان مرة أخرى، فقال بلهجة أكثر حدة:

- «قلت لك لا تكسر أسنانه».

لو كان هذا القول بغرض التخويف، فهو لم يؤتِ ثماره، إذ إن سكوت لم يتوقّف عما يفعل، وإنما فقط تطلع إليه بهدوء وسأله:

- «أهذا كلبك؟».

فأجاب الرجل بصوت كالنخير أن نعم.

- «إذًا اِجلس وساعدني في فكّ هذا الشيء».

فأجاب تيم كينان بصوت ممطوط مستفزّ:

- «أيها الغريب، لا أعرف كيف أقوم بهذه المهمة».

وجاء الرد سريعًا:

- «إذًا تنحَ جانبًا، ولا تزعجني، فأنا مشغول».

وقف تيم كينان جانبا ينظر إليهما، غير أن سكوت لم يُعطِ أي أهمية لوجوده. وقد تمكّن من إدخال فوَّهة المسدس بين الفكّين من إحدى الناحيتين، ثم بدأ يحاول إخراجها من الناحية الأخرى. ولما أتمّ هذه المهمّة بدأت يداه بخفّة وحرص تنسلّان لفكّ انطباق الفكّين خطوة خطوة، بينما مات من الجهة الأخرى يخلّص عنق ناب أبيض المهصور بين الفكّين، في خطوات موازية.

قال سكوت بلهجة آمرة لمالك شيروكي:

- «استعد لتلقّي كلبك».

انحنى الرجل ومد يده فأحكم قبضته على شيروكي. عندها نبّهه سكوتوهو في الخطوة الأخيرة:

«الآن».

جُذب الكلبان، كلٌّ في اتجاه، والكلب البولدوغ يقاوم بشراسة. وتوجّه سكوت إلى الرجل بلهجة صارمة:

«خذه بعيدًا»، فأطاع تيم كينان الأمر وقام بجرّ الكلاب وسط الزحام.

قام ناب أبيض بعدة محاولات فاشلة للنهوض من مكانه. ثم نجح مرةً في الوقوف، غير أن قوائمه كانت في غاية الضعف فلم تستطع حمله، وتهاوى ببطء مرة أخرى على الجليد. كانت عيناه نصف مغمضتين، تبدوان وكأنما انسحبت منهما الحياة. أما فكّاه فقد انفرجا، وقد برز من بينهما لسانه، متّسخًا مرتخيًا. باختصار، كان من يراه لا يشك أنه كلب قد نفق خنقًا. فحصه مات ثم قال:

- «هو مجهَد ومنهَك، لكنه لا يزال يتنفس».

نهض سميث الجميل من على الجليد، وجاء يستطلع أحوال ناب أبيض. أما سكوت فقد التفت إلى مات وسأله:

- «كم يكلّف كلب الزلّاجة الجيّد؟».

كان مدرّب الكلاب لا يزال جاثيًا على ركبتيه، منحيًا على ناب أبيض، فكّر للحظات ثم قال:

- «ثلاثمائة دولار».

فسأل سكوت وهو يلكز ناب أبيض بقدمه:

«وكم يساوي كلب قد كاد يُقضى عليه مثل هذا؟».

وجاءت الإجابة سريعًا:

- «نصف هذا المبلغ».

التفت سكوت إلى سميث الجميل قائلًا:

- «أسمعت يا سيد «وحش»؟ سوف آخذ كلبك هذا منك، وأعطيك مائة وخمسين دولارًا في المقابل».

ثم فتح سكوت حافظة نقوده وبدأ في عدّ النقود. أما سميث الجميل فقد شبك يديه خلف ظهره، رافضًا أن يلمس المبلغ المعروض، ثم قال:

- «لن أبيع».

فأجاب الآخر مؤكّدًا:

- «بل سوف تبيع، لأنني سأشتري. ها هي ذي النقود، والكلب صار ملكي».

تراجع سميث الجميل إلى الخلف، وذراعاه لا تزالان مشبوكتين خلف ظهره، أما سكوت فقد اندفع في اتجاهه، وسحب قبضة يده ليستعد للكمة جديدة، فتراجع سميث الجميل مرة أخرى متصاغرًا، في توقّع للضربة القادمة، ثم قال في صوت يشبه الأنين:

- «لا تزال لديّ حقوقي».

وسرعان ما جاء التعقيب على الردّ:

- «لقد خسرت كل حقوقك في هذا الكلب»، ثم أضاف:

- «ألن تأخذ هذه النقود، أم عليَّ أن أضربك مرة أخرى؟».

أجاب سميث الجميل بلهفة لا تخلو من خوف:

- «حسنًا، سآخذها، لكنني أسجّل احتجاجي»، ثم أضاف:

«الكلب مصدر دخل لي، ولن يسلبني إياه أحد، ولكل إنسان حقوق».

أجاب سكوت وهو يسلّمه النقود:

- «نعم، لكل إنسان حقوق، لكنك لست إنسانًا. أنت وحش».

عندئذٍ قال سميث الجميل بلهجة تهديد:

- «انتظر حتى أصل إلى داوسون. سوف أرفع الأمر للقضاء».

- «إذا فتحت فمك بعد عودتك إلى داوسون، فسوف أجعلك تغادر المدينة. أفهمت؟».

لم يرد سميث الجميل إلا بإصدار بعض الدمدمة.

فانطلق الآخر يقول في شراسة مفاجئة، كالبرق في سرعتها:

«أفهمت؟».

فأصدر سميث الجميل الصوت نفسه مرة أخرى وهو يتراجع منكمشًا:

- «نعم».

- «نعم ماذا؟».

فقال سميث الجميل وهو يزوم:

- «نعم، يا سيدي».

وفجأة صاح أحد المتفرّجين:

- «احترس سوف يعضك»، وتصاعدت الضحكات العالية.

التف سكوت بعيدًا عن الرجل وعاد ليساعد مُدرّب الكلاب، الذي كان لا يزال يحاول مساعدة ناب أبيض.

شرع بعض الرجال في مغادرة المكان، بينما وقف آخرون في مجموعات، يرقبون ما يجري ويتبادلون الحديث. انضمّ تيم كينان إلى واحدة من هذه المجموعات، ثم سأل الرجال:

- « من ذلك الغريب؟».

فأجاب أحدهم:

- «ويدون سكوت».

وتساءل المقامر:

- «ومن هو ويدون سكوت».

- «هو واحد من خبراء التنقيب المشهورين، وهو على معرفة وثيقة بكبار القوم هنا، لذا ابتعد عنه تمامًا إذا أردت ألّا تتعرّض لأي مشكلات. هذا رأيي. وهو أيضًا من أصدقاء كبار المسؤولين، ومفتش الشرطة المسؤول عن التنقيب عن الذهب صديق شخصي له». عندئذٍ، قال المقامر:

- «شعرت بذلك، لذلك تجنّبت الاشتباك معه منذ البداية».

5

الذي لا يُقهر

- «لا فائدة». هكذا قال ويدون سكوت بلهجة تدلّ على الاستسلام.

جلس الرجل على إحدى درجات السلم المؤدّي إلى الكوخ الخاص به، وأخذ يحدّق في مدرب الكلاب الذي هزّ كتفه بما يعني شعوره هو أيضًا باليأس.

نظر الاثنان معًا إلى ناب أبيض، حيث كان واقفًا وقد شدّ السلسلة التي رُبط بها إلى أقصى امتداد لها، وأخذ يزوم بشراسة وقد انتفش شعره، وهو يجاهد لكي يصل إلى كلاب الزلّاجة. وكانت الكلاب قد تعلّمت دروسًا عدّة من مدرّبها مات، الذي لم يتوانَ عن استخدام الهراوة لتثبيت هذه الدروس في نفوسها، وكان مما تعلّمته الكلاب أن تترك ناب أبيض وشأنه، وأن ترقد بعيدًا عنه من دون أن تبالي به. وفجأة قال ويدون سكوت بلهجة تقريرية:

- «إنه ذئب، ولا فائدة من محاولة ترويضه».

قال مات معترضًا:

«لست متأكّدًا من هذا يا سيدي». ثم أضاف

«لعلّك لا ترى أكثر من أن فيه من الكلاب جزءًا كبيرًا، لكنْ، ثمة شيءٌ آخر أنا على ثقة منه، ولا يمكن إنكاره». قال الرجل ذلك ثم أومأ برأسه بثقة في اتجاه جبل «موسهايد».

انتظر سكوت وقتًا مناسبًا حتى يكمل مدرب الكلاب كلامه، لكنه لم يفعل، فقال بحدّة:

- «لا تبخل بما تعرف. هات ما عندك».

أشار مدرب الكلاب بإبهامه، إلى حيث يجلس ناب أبيض خلفهم، وقال:

- «كلب أو ذئب، لا يهم، فلقد روَّضه أحدهم بالفعل».

- «لا!». قالها بتعجّب.

- « بل، نعم. أؤكّد لك. وقد تمنطق بلجامٍ من قبل. وكشف عن صدره وأضاف: هل رأيت العلامات على صدره؟».

- «أنت على حق يا مات. لقد كان كلب زلّاجة قبل أن يحصل عليه سميث الجميل».

- «وليس هناك ما يمنع أن يجر زلّاجة مرة أخرى».

تساءل سكوت بحماسة:

«ما رأيك يا مات؟». ثم بدا وكأن أمله أخذ يتلاشى، وهو يقول، بينما يهزّ رأسه:

«هو معنا الآن منذ أسبوعين، وإذا كان ثمة تغيير، فهو إلى الأسوأ. لقد أصبح في هذه اللحظة أكثر وحشية من أي وقت مضى».

قال مات ناصحًا:

- «اَعطه فرصة. لم لا تُطلق سراحه لبعض الوقت؟».

نظر إليه رفيقه في ارتياب، فمضى يقول:

«أعلم أنك حاولت أن تفعل، لكنك لم تستخدم هراوة».

- «فلتحاول أنت إذًا».

أتى مدرّب الكلاب بهراوة ثم ذهب إلى حيث رُبط ناب أبيض، الذي أخذ يرقب الهراوة كما يراقب أسد محبوس سوطًا في يدِ مروّضه. قال مات:

- «أترى كيف يتابع بعينيه الهراوة في يدي؟ هذه علامة طيبة، فهو ليس بأحمق. كما يدرك أنه يجدر به ألا يهاجمني ما دامت هذه الهراوة في يدي، فهو بالتأكيد ليس مجنونًا جنونًا مطبقًا.

أخذ ناب أبيض يزوم وينفش وبره وينكمش في مكانه مقتربًا من الأرض، بينما يد الرجل تقترب من عنقه، وهو يرقب تلك اليد التي تقترب منه، حريصًا أيضًا على تتبّع اليد الأخرى التي تحمل تلك الهراوة المعلّقة فوق رأسه مهدّدة بإيقاع الأذى به. قام مات بحلّ السلسلة من الطوق الذي يحيط برقبته، ثم تراجع مسرعًا.

لم يكد ناب أبيض يصدق أنه قد تحرّر بالفعل من قيوده، فقد مضت شهور طويلة عليه بعد أن انتقل إلى ملكية سميث الجميل. ومنذ ذلك الحين، لم ينعم بلحظة من الحرية، في ما عدا الأوقات التي كان يُطلق فيها سراحه حتى يقاتل كلابًا أخرى. وقد كان يعود إلى الأسر دائمًا فور انتهاء تلك الجولات القتالية.

إذًا، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ لعلّ ثمة خطة أخرى شريرة تستعد الآلهة لتنفيذها ضده. ليس أمامه إذًا سوى أن يسير ببطء وبحرص، مستعدًا لاحتمال أي هجوم في أي وقت. نعم، هو بالفعل لا يدري ماذا عليه أن يفعل في تلك اللحظة، فكل شيء يبدو وكأنه جديد تمامًا. لقد اتخذ الاحتياطات الممكنة حتى يتمكّن من الفرار من هذين الإلهين المراقبين له، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ثم سار بحرص إلى ناصية الكوخ، فلم يحدث شيء. اكتنفته حيرة واضحة، ثم عاد مرّة يقترب منهما، وتوقّف على بعد نحوالي عشر أقدام، وهو يُمعن النظر فيهما.

وتساءل المالك الجديد:

- «ألن يحاول الهرب؟».

هزّ مات كتفيه وقال:

- «لا مفرّ من المخاطرة. الوسيلة الوحيدة لكي نعرف هي أن نُجرّب».

تمتم سكوت بلهجة متعاطفة:

- «يا للشيطان المسكين. إن كل ما يحتاجه هو إظهار بعض العطف الإنساني». ثم التفت وتوجّه إلى داخل الكوخ.

خرج سكوت من الكوخ وفي يده قطعة من اللحم، ألقى بها إلى ناب أبيض، الذي وثب مبتعدًا عنها، ثم عاد يفحصها بعينيه متوجّسًا من بعيد.

وفجأة صرخ مات محذرًا، وإن كان متأخّرًا:

- «اِحذر يا ميـچور».

لقد انقضّ الكلب ميـچور على قطعة اللحم، وفي اللحظة نفسها التي انطبق فيها فكّاه عليها، انقضّ عليه ناب أبيض. أُطيح بالكلب ميـچور، واندفع مات محاولًا التدخّل، غير أن ناب أبيض كان أسرع منه. قام ميـچور يترنّح، إلا أن الدم المنبثق من حلقه صبغ الجليد باللون الأحمر على شكل بقعة كبيرة آخذة في الاتساع.

علّق سكوت على هذا المشهد:

- «إصابة قاسية، لكنه يستحقّها».

كانت قدم مات قد تحرّكت بالفعل لتركل ناب أبيض، وإذا بوثبة مفاجئة، وأنياب لامعة تومض، وصيحة حادة عالية. أخذ ناب أبيض يزمجر بشراسة وهو يتراجع إلى الخلف متعثّرًا، حتى ابتعد عن الرجلين لمسافة عدة ياردات، على حين انحنى مات يفحص ساقه، ثم أشار إلى ملابسه الممزقة وبقعة الدم الحمراء، وهو يقول:

- «لقد أصابني بالفعل».

- «ألم أقل لك إن لا أمل منه؟».

هكذا قال سكوت في لهجة تدل على الإحباط، ثم أضاف:

- «لقد فكّرت في ذلك الأمر عدّة مرات، والآن أرى أنه الشيء الذي يجب أن نفعله، رغم أنني كنت أتمنّى ألا أفعله»، وبينما كان سكوت يتكلّم، قام على مضض بسحب مسدسه، ثم فتح اسطوانته بعنف، وتأكّد من محتوياتها.

جاء ردّ مات معترضًا على الفور، حيث قال:

- «انتظر يا سيد سكوت. لقد عاش هذا الكلب في الجحيم، فلا تتوقّع أن يخرج منها ملاكًا طيّبًا. اَعطه بعض الوقت».

ردّ الآخر بسرعة:

- «بل انظر أنت إلى ميـچور».

نظر مدرب الكلاب إلى الكلب المصاب متفحِّصًا، كان وسط دائرة من دمائه، يكاد يغوص في الجليد، وأيقن الرجل أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- «هو يستحقّ ما جرى له، كما قلت بنفسك يا سيد سكوت. لقد حاول أن يستولي على طعام ناب أبيض، وعليه أن يدفع الثمن. لا أحد يمكن أن يحترم كلبًا لا يحاول أن يدافع عن طعامه».

- «ولكن أنظر إلى نفسك يا مات. قد أقبل ما جرى بين الكلبين، ولكن ماذا عنك أنت، لا بد أن تكون ثمة حدود لما يمكن قبوله».

- «أنا أيضًا أستحق»، هكذا أجاب مات في إصرار. ثم أضاف:

«أستحق ما جرى لي. لماذا أردت أن أركله؟ كما قلت أنتَ: لقد أحسن التصرف، فلم يكن من حقي أن أركله».

عندئذٍ قال سكوت في إصرار:

- «من الرحمة به أن نقتله، فهو غير قابل للترويض».

- «أرجوك يا سيد سكوت، اِمنح هذا الشيطان المسكين فرصة، فهو لم يحصل على أي فرصة بعد. لقد عاش لفترة في عذاب، وهو الآن مُطلق السراح للمرة الأولى. امنحه فرصة عادلة، وإذا لم يؤدِ المهمّات المطلوبة، سأقتله بنفسي. اتفقنا!».

أجاب سكوت وهو يضع المسدس جانبًا:

- «يعلم الله أنني لا أريد أن أقتله أو أدع أحدًا يقتله. حسنًا، سوف نتركه مطلق السراح، ونرى ماذا يفعل له بعض العطف الإنساني، وها هي ذي أول محاولة».

سار سكوت حتى صار بالقرب من ناب أبيض، ثم شرع في الحديث إليه بلطف في صوت مُطَمْئِن، ثم جاءه صوت مات مُحذِّرًا:

- «من الأفضل أن تكون معك هراوة».

هزّ سكوت رأسه ومضى في طريقه محاولًا اكتساب ثقة ناب أبيض.

لا شك أن ناب أبيض ملأته الريبة مما يحدث، ولم يستطيع مقاومة إحساسه أن شرًّا ما يوشك أن يحدث له. لقد قتل كلب هذا الإله وعقر رفيقه، فماذا عليه أن يتوقّع سوى مزيد من العقاب؟ وهو من الناحية الأخرى يبدو غير قابل للترويض، فقد نفش شعره وكشّر عن أنيابه، وارتسم الشرّ في عينيه، وصار جسمه كلّه في حالة من الترقب والاستعداد لأي شيء. لم يكن الإله يحمل هراوة لذا احتمل ناب أبيض اقترابه منه، ثم امتدّت يده مقتربة لتنزل على رأسه، عندئذٍ شعر ناب أبيض بمزيد من التوتّر، وأخذ ينكمش على نفسه ويزداد اقترابًا من الأرض. ها هو ذا الخطر يقترب الآن، لعلها خيانة ما أو شيء من هذا القبيل. هو يعرف

أيدي الآلهة. إن تَحَكّمهم في المخلوقات الأخرى لا شك فيه، وقدرتهم على الإيذاء قد جرّبها من قبل. وبالإضافة إلى ذلك، لا يزال نفوره المعتاد من لمس الآخرين لجسمه يسيطر عليه. شرع ناب أبيض في هذه اللحظة في الزمجرة بصوت متوعّد، وهو لا يزال ينكمش اقترابًا من الأرض أكثر فأكثر، غير أن اليّد التي تحلق فوقه لا تزال تقترب أيضًا. تحمّل ناب أبيض اقتراب الخطر، وكره أن يعضّ تلك اليدّ، وفجأة انبعثت غريزته من داخله، وسيطرت عليه بتشوّقها الدائم للحياة.

اعتقد ويدون سكوت دائمًا أنه سريع بما يكفي لتجنّب أي هجوم أو عضّة، غير أنه في ما يبدو لم يزل في حاجة لأن يجرّب السرعة الخارقة التي يتميّز بها ناب أبيض، الذي يضرب بالسرعة والثقة التي تضرب بهما أفعى مُترصِّدة بفريستها.

صرخ سكوت بحدّة وقد أذهلته المفاجأة، ثم احتضنت يده السليمة الأخرى المصابة بإحكام. وثب مات مقتربًا من سكوت وهو يصرخ لاعنًا ناب أبيض، الذي بدأ يتراجع إلى الوراء وقد زاد التصاقه بالأرض ونفش شعره وكشّر عن أنيابه، والتمعت عيناه شريرتين متوعّدتين. الآن، لا بد أن يتوقّع جولة مخيفة من الضرب، كما اعتاد أن يتلقّى من سميث الجميل.

وفجأة صرخ سكوت متسائلًا:

- «ما هذا؟ ماذا تفعل الآن؟».

كان مات قد اندفع إلى داخل الكوخ، وهو الآن يخرج وفي يده بندقية، ثم يجيب ببطء وهدوء مدّعيًا اللامبالاة:

- «فقط سأفي بوعدي. أظن أنه من واجبي الآن أن أقتله».

- «لا، لا تفعل!».

- «بل سأفعل. أُنظر إليَّ».

وكما توسّل مات من قبل من أجل حياة ناب أبيض عندما هاجمه، يتوسّل سكوت الآن.

- «لقد اقترحت أن نمنحه فرصة، فلم لا تمنحها كاملة. لقد بدأنا للتوّ، ولا يصح أن نتوقّف هكذا في البداية. لقد تعلّمت أنا درسًا هذه المرة، و- انظر إليه الآن!».

ناب أبيض يقف في تلك اللحظة بالقرب من ناصية الكوخ على بعد نحو 40 قدمًا يزمجر بشراسة تكاد تجمّد الدم في العروق، ونظرته لا تتّجه لسكوت وإنما لمدرّب الكلاب، الذي أطلق من ناحيته صرخة دهشة واضحة. أما سكوت فمضى يقول بسرعة:

- «أُنظر كم هو ذكي، إنه يفهم أن هذا سلاح ناري، تمامًا كما تفهمه أنت، وعلينا أن نعطي هذا الذكاء فرصة. فلتضع البندقية جانبًا».

- «أنا موافق». هكذا قال مات وهو يسند البندقية على كومة من الخشب.

وفي اللحظة التالية هتف سكوت:

- «والآن أُنظر إلى هذا».

كان ناب أبيض قد هدأ وتوقّف عن الزمجرة.

- «هذا يستحق الدارسة. راقب ما يحدث».

مد مات يده ناحية البندقية، فإذا بناب أبيض يزمجر في اللحظة نفسها، ثم خطا مات عدّة خطوات مبتعدًا عن البندقية، فإذا بناب أبيض يهدأ وتعود شفتاه لتغطي أسنانه.

التقط مات البندقية وشرع في رفعها إلى كتفه، فجعل ناب أبيض يزمجر من جديد، وكلما اقتربت البندقية من موضعها النهائي تزايدت الزمجرة قوّة وشراسة. وفي اللحظة الأخيرة من استقرار البندقية في وضع

التصويب وثب ناب أبيض بسرعة جانبًا حتى اختفى خلف زاوية الكوخ. وقف مات ساكنًا يحدّق في بقعة الجليد التي خلت باختفاء ناب أبيض.

وضع مدرب الكلاب البندقية جانبًا برصانة، ثم التفت ونظر إلى ربّ العمل، ثم قال:

- «أتفق معك يا سيد سكوت. ذلك الكلب في غاية الذكاء ولا يصح أن نقتله.

مكتبة
t.me/t_pdf

6
السيد المحبوب

كان ناب أبيض يراقب ويدون سكوت وهو يقترب منه، وهو يزمجر وقد انتفش شعره، وكأنما يعلن أنه لن يستسلم للعقاب. لقد مرت الآن أربع وعشرون ساعة منذ نهش تلك اليد التي يراها في هذه اللحظة ملفوفة بضمادات، ومُعلّقة إلى كتف صاحبها. لقد جرّب في الماضي العقوبة المؤجّلة، ويرى الآن أن عقوبة مثلها ستقع عليه قريبًا. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، وقد ارتكب ما يعتقد أنه انتهاك لا يغتفر. ألم تغُص أنيابه في اللحم المقدّس لإله، بل إله متفوق ذي بشرة بيضاء؟ طبيعة الأشياء إذًا وخبرته السابقة مع الآلهة، تؤكدان له أن شيئًا مُريعًا في انتظاره.

جلس الإله على بعد عدة أقدام من ناب أبيض، الذي لم يرَ أي خطورة في ذلك، فالآلهة عندما تنوي إيقاع العقاب تقف على أقدامها. كذلك لم يكن يحمل في يده أي هراوة أو سوط أو سلاح ناري، ومن ناحية أخرى كان ناب أبيض متحرّرًا من القيود، فلا سلسلة ولا خيزرانة تربطه، أي أنه يستطيع أن يفرّ بعيدًا عن الخطر، قبل أن يتمكّن الإله من الاستواء واقفًا لتنفيذ أي عقاب. إذًا، فلينتظر ليرى ما سيحدث.

ظل الإله هادئًا، من دون أي حركة، لفترة من الوقت، ثم بدأت زمجرة ناب أبيض تتضاءل بالتدريج إلى أن صارت دمدمة، ثم بدأت تنحسر داخل حلقه حتى كادت تتلاشى. وبدأ الإله يتكلم، ومع خروج صوته انتفش الشعر على عنق ناب أبيض، وعادت الزمجرة إلى التصاعد من

جديد، غير أن الإله لم يقم بأي حركة عدوانية، وظلّ يتكلّم بهدوء. وهكذا، لبعض الوقت استمر ناب أبيض في زمجرته في إيقاع متوافق مع صوت الإله، الذي لم ينقطع عن الكلام، وكان حديثه إلى ناب أبيض بطريقة لم يحدّثه بها أحد من قبل. لقد تحدّث بنعومة وهدوء، وبلطف مسّ بشكل ما شيئًا في أعماق ناب أبيض، حتى إنه بدأ يشعر بالثّقة تجاه هذا الإله، رغمًا عن نفسه وعن التحذيرات التي لا تكف غريزته عن بثّها بداخله. وبدأ شعور بالأمان يتسلل إلى نفس ناب أبيض، رغم أن كل تجربته مع البشر تدحض ذلك الشعور.

قام الإله من مكانه بعض مُضيّ وقت طويل، ودخل إلى الكوخ، فلما خرج بعد قليل فحصه ناب أبيض بعينيه متوجّسًا، ولاحظ أنه لا يحمل في يده سوطًا ولا هراوة ولا سلاحًا من أي نوع، ولم تكن يده المصابة مختفية وراء ظهره مما يعني أنه لا يُخفي شيئًا. عاود الإله الجلوس في الموضع نفسه، على بعد عدة أقدام من ناب أبيض، ثم مدّ يدًا تحمل قطعة صغيرة من اللحم. نصب ناب أبيض أذنيه في اهتمام، وفحص اللحم والشك لا يفارقه، وقد حرص على أن ينظر إلى الإله وإلى قطعة اللحم في وقت واحد، منتبهًا لأي حركة غير متوقّعة، وقد توتّر جسمه في وضع استعداد للوثوب بعيدًا عند أي سلوك خطر أو حركة عدائية.

لا تزال العقوبة مؤجّلة، هكذا فكّر ناب أبيض. لم يفعل الإله سوى أن وضع بالقرب من أنفه قطعة من اللحم لا يبدو أنها تمثّل أي خطورة، ومع ذلك فالأمر كله يدعو للريبة. وهكذا، رفض ناب أبيض أن يمسَّ قطعة اللحم، رغم أن اليدّ التي تحملها قرَّبَتها إليه عدة مرّات في دعوة واضحة لكي يتناولها. إن الآلهة في غاية الدهاء، ولا أحد يُمكنه أن يعرف أي خطة غادرة تترصّده وراء قطعة اللحم البريئة تلك. لقد ارتبط اللحم بالعقاب بطريقة مُريعة في خبرات سابقة، خصوصًا تلك التي اتصلت بالنساء في مخيم السكان الأصليين ذوي الأصول الهندية.

انتهى الأمر بأن ألقى الإله قطعة اللحم على الجليد تحت أقدام ناب أبيض، الذي تشمّمها بحذر من دون أن ينظر إليها، إذ كانت عيناه مصوبتين نحو الإله الجالس. لم يحدث شيء، فالتقط ناب أبيض قطعة اللحم وابتلعها، فإذا بالإله يقدّم له قطعة أخرى من اللحم. وتكرّر الأمر عدّة مرات: يرفض ناب أبيض تناول اللحم من يد الإله، فيلقيها الأخير على الجليد حيث يلتقطها ويبتلعها، إلى أن جاءت اللحظة التي رفض فيها الإله أن يلقي اللحم على الأرض، وأخذ يدفعها بإلحاح بالقرب من فم ناب أبيض داعيًا إياه إلى تناولها.

كان اللحم جيّدًا، وكان ناب أبيض جائعًا، وهكذا بدأ يقترب بمنتهى الحذر من اليدّ الممدودة. وأخيرًا جاء الوقت الذي قرّر فيه ناب أبيض أن يأكل اللحم من هذه اليدّ. لم يرفع عينيه مطلقًا عن الإله الجالس أمامه، وظل رأسه متطلّعًا إلى الأمام، بينما تمدّدت أذناه إلى الخلف، وانتصب شعر عنقه في ما يشبه العرف، وبدأت زمجرة تتصاعد من حلقه كأنها إنذار أنه لن يقبل التلاعب به. انتهى ناب أبيض من تناول اللحم، قطعة فقطعة، ولم يحدث شيء. إذًا لا يزال العقاب مؤجّلًا.

انتظر ناب أبيض وهو في أقصى درجات الانتباه ليرى ماذا سيحدث، بينما واصل الإله الكلام، بصوت عطوف، وهو شيء لم يعرفه ناب أبيض من قبل، وقد أثار في نفسه مشاعر لم يسبق له أن أحسَّ بها. يملأه الآن شعور غريب بالرضا، وكأن احتياجًا ما بداخله قد أُشبع، أو خواءً ما في وجوده قد مُلئ. وسرعان ما بدأ صوت غريزته وتحذيرات تجاربه السابقة: الآلهة تتميّز بالدهاء الواسع، ولها طرقها التي لا يمكن التنبؤ بها لتحقيق غاياتها.

والآن بدأت مخاوفه تتحقّق! ها هي ذي اليد تمتدّ في اتجاهه، وتقترب من رأسه مضمرة السوء، ولكن ما هذا؟ إن الإله لا يزال يتكلم، بصوت ناعم يبعث الراحة في نفسه. يا لها من حيرة تلك التي تملأه، فعلى

الرغم من اليد التي تمثّل تهديدًا بالشر، يوحي الصوت بالثقة. إن نفسه الآن لتتمزّق بتلك المشاعر والدوافع المتعارضة، وكأنه سيتناثر قطعًا في الهواء، ويا له من جهد قاس ذلك الذي بذله ناب أبيض لكي يُحكم السيطرة على تلك القوى التي تتصارع للسيطرة عليه.

وصل ناب أبيض إلى حل وسط. لقد أخذ يزمجر وينفش شعره وأرخى أذنيه، غير أنه لم يعُضّ أو يفرّ هاربًا. ثم أخذت اليد تنزل وتزداد اقترابًا، إلى أن لمست نهايات شعره المنتصب إلى أعلى. أما هو فقد بدء ينكمش أكثر مقتربًا من الأرض، فإذا باليد تتبعه إلى أسفل، وتزيد من ضغطها عليه، أما هو فلا يزال ينكمش، ويكاد يرتعش، لكنه متماسك. يا له من عذاب، تلك اليد التي تلمسه وتخالف غريزته، وهو لا يستطيع أن ينسى في يوم واحد كل الأذى الذي تعرّض له على أيدي البشر.

أخذت اليد ترتفع ثم تنزل مرة أخرى ومرات، في حركات متتابعة من مسح ظهره والتربيت عليه، وفي كل مرة ترتفع اليد ينتفش شعره تحتها، فإذا نزلت تمدّدت أذناه مسترخية وانبعث صوت دمدمة من أعماق حلقه، كأنما يعلن محذرًا أنه على أتم استعداد للردّ على أي هجوم يتعرّض له. ليس ثمة وسيلة يعلم من خلالها متى سينكشف الغرض الخفي للإله من ذلك السلوك، وفي أي وقت يمكن أن يتحوّل ذلك الصوت الهامس الباعث على الثقة إلى ما يشبه الزئير الغاضب، وتتحوّل تلك اليد التي تربّت بحنان إلى قبضة قاسية تقبض عليه وتنزل به العقوبة المتوقّعة، من دون مقاومة منه.

استمر الإله يتحدّث في لطف، ويربّت بيده ويمسح بمنتهى الرفق. أما ناب أبيض فهو يعبّر عن مشاعر مزدوجة، فما يحدث له الآن هو شيء لا تقبل به غريزته، فهو يقيّده ويعارض إرادته في التمتّع بحريته، غير أنه أيضًا ليس مؤلمًا من الناحية الجسمانية، بل هو على العكس ممتع. تحوّلت حركة التربيت ببطء وحرص إلى عَرك لقاعدتي إذنيه، والحق أن الشعور

بالمتعة زاد مع هذا التحول، لكن الخوف لم يذهب تمامًا. وانتهى الأمر بناب أبيض وهو واقف في ترقّب، متوقّعًا شرًّا من حيث لا يدري، يتأرجح ما بين الشعور بالخوف والشعور بالمتعة ما بين دقيقة وأخرى.

- «أنا حقًّا في غاية الذهول».

هكذا قال مات، عندما خرج من الكوخ، وقد شمّر كُمّيه، فاستوقفه مشهد ويدون سكوت وهو يربت على ظهر ناب الأبيض، فتفوّه بتلك الكلمات بدلًا من أن يسكب الماء القذر الذي يحمله في إناء بيده.

كسر صوت الرجل الصمت، وفي اللحظة نفسها وثب ناب أبيض إلى الوراء، وهو يزمجر بشراسة في وجهه. أما مات فقد نظر إلى رئيسه في استنكار غاضب، وقال:

- «أرجو ألا تمانع في تعبيري عن رأيي في ما يحدث الآن. أنت يا مستر سكوت ترتكب حماقة فظيعة».

ابتسم ويدون سكوت في ترفّع، ثم قام واقفًا وسار إلى حيث وقف ناب أبيض، وتوجّه إليه بقليل من الكلام بالنبرة الهادئة نفسها، ثم مدّ يده ووضعها على رأسه، وعاد إلى ممارسة التربيت الذي قطعه الخروج المفاجئ لرفيقه من الكوخ. تقبّل ناب أبيض الأمر بهدوء، إلا أنه لم يرفع عينيه المتوجّستين عن الرجل الواقف عند باب الكوخ. بينما استمرّ الرجل في كلامه:

- «لعلّك يا سيد سكوت خبير عظيم في مجال استخراج المعادن، لكن في رأيي قد فاتتك فرصة عظيمة في طفولتك، إذ لم تفر من أسرتك وتلتحق بالسيرك، مدرّبًا للحيوانات!».

زمجر ناب أبيض مرة أخرى عندما سمع صوت الرجل، لكنه لم يثب هذه المرة هاربًا من تحت اليد التي لا تزال تمسح على رأسه وعنقه من الخلف في تمسيد طويل مُهدِّئ.

كانت تلك هي بداية النهاية للحياة تحت حكم الكراهية، أما الآن فستُشرق حياة جديدة، غامضة حقًّا، لكنها بلا شك أكثر عدلًا. وقد تطلّب الأمر تفكيرًا عميقًا وصبرًا بلا نهاية من ويدون سكوت. أما ما كان على ناب أبيض أن يقدّمه فلم يكن أقل من ثورة كاملة، إذ اضطُرّ إلى أن يتجاهل دوافع غريزته وإلحاحها عليه، وأن يُكذّب الخبرات السابقة في حياته، أو يتحدّاها.

إن الحياة التي عرفها من قبل لم تخلُ فحسب من كثير مما يعرفه الآن، بل كانت كأنها تيار ينساب في اتجاه مضاد لكلّ ما يود أن يستمتع به في تلك اللحظة. باختصار، ومع مراعاة الظروف كلّها، يمكن القول بأنه الآن في حاجة إلى أن يحقّق قدرًا من التأهيل أعمق من ذلك الذي احتاجه في الماضي عندما جاء باختياره من البراري واتّخذ من السمّور الرمادي سيدًا له. لقد كان في ذلك الوقت مجرّد جروٍ صغيرٍ هشٍّ، لم يتشكّل بعد، تستطيع الظروف الخارجية أن تشكّله كما تريد. أما الآن، فالأمر مختلف حقًّا. لقد قامت الظروف المحيطة به بواجبها على خير وجه، فجعلت منه ذئبًا مقاتلًا بشراسة، لا يلين لأحد، ولا يحِب ولا يُحَب. وأي محاولة لتغيير تلك الطبيعة المستقرّة هي بمثابة ارتداد على وجوده كلِّه، خصوصًا وقد فقد ليونة الشباب، وتشابكت أنسجة نفسه وتداخلت حتى صار بناؤه الداخلي صلبًا لا يستجيب للتغيير بسهولة، حتى روحه الداخلية صارت في صلابة الحديد، وقد تبلورت بغرائزها ومسلماتها في قواعد محدّدة ومحاذير ومكروهات ورغبات.

والآن من جديد تضع البيئة المحيطة بصماتها عليه، فتُكسب شخصيته الصلدة شيئًا من الرهافة، ويتشكّل من جديد ليصبح أكثر مرونة مما اعتاد في حياته السابقة. كان ويدون سكوت في حقيقة الأمر هو يدُ البيئة التي امتدّت بالتأثير عليه. لقد غاص في طبيعته إلى الجذور، وبرفق لمس بعض قدراته الكامنة التي خَبَت وكادت تفنى. كانت القدرة على الحب

هي واحدة من تلك القدرات الكامنة، التي أخذت مكان المَيل الذي لم تتجاوزه قط مشاعره السابقة ناحية الآلهة.

لم يأتِ هذا الحب في يوم واحد، بل بدأ بالمَيل ثم تطوّر ببطء إلى الحب. لم يهرب ناب أبيض رغم أنه كان مطلق السراح، لأنه شعر بالميل ناحية إلهه الجديد، فحياته الآن هي بالتأكيد أفضل من الحياة التي عاشها في قفص سميث الجميل، ومن ناحية أخرى كان من الضروري أن يكون له إله، فسيادة الإنسان عليه احتياج لا غنى عنه لطبيعته. إن إقراره بضرورة اعتماده على الإنسان قد تأسّس في تلك الأيام المبكرة من حياته عندما هجر البراري وزحف تحت أقدام السمّور الرمادي حيث تلقّى عقوبته المتوقّعة من الضرب. ثم صار ذلك الإقرار مُلزمًا أكثر، وبلا قابلية للتراجع، عند نبذه للبراري للمرة الثانية، بعد انتهاء المجاعة، وعودته ليجد أسماكًا طازجة في قرية السمّور الرمادي.

خلاصة القول هي أن ناب أبيض بقي برفقة ويدون سكوت، لأنه في حاجة مؤكدة لإله، ولأنه يفضّل هذا الرجل على سميث الجميل. ولكي يُظهر ولاءه لسيّده الجديد أخذ على عاتقه أمر حراسة ممتلكات ذلك السيد، فكان يجوس خلال المنطقة المحيطة بكوخه، بينما الكلاب الأخرى مستغرقة في النوم، وقد اضطُرّ أول زائر في الليل إلى استخدام هراوة للدفاع عن نفسه ضد ناب أبيض قبل أن يخرج ويدون سكوت من الكوخ لإنقاذه. وسرعان ما تعلّم ناب أبيض كيف يُفرّق بين اللصوص والضيوف الشرفاء، معتمدًا على فهم الدلالة الحقيقية لخطوات الضيف وطبيعة حركته عند الاقتراب من الكوخ. الرجل الذي يتقدّم في خطوات عالية الصوت، ويتوجه في خط مستقيم إلى باب الكوخ يتركه وشأنه، وإن ظل يراقبه منتبهًا حتى يُفتح الباب ويتأكد من مباركة السيد لتلك الزيارة. أما الرجل الذي يقترب بخفّة، بطريقة ملتوية، متلصّصًا بحذر،

فإن ناب أبيض لا يؤجّل الحكم عليه، بل يحرص على إبعاده على الفور، بلا احترام ولا كرامة.

تولى ويدون سكوت مهمّة تعويض ناب أبيض عما ارتكبه الإنسان في حقّه. كان الأمر بالنسبة له يتعلّق بالمبادئ والضمير. لقد شعر بأن الضرر الذي أوقعه الإنسان على ناب أبيض كان دَينًا يجب ردّه، لذلك حرص على أن يبذل أقصى جهده لُيظهر اللطف البالغ تجاه الذئب المقاتل، فكان في كل يوم يخصّص وقتًا للتربيت عليه وملاطفته.

بدأ ناب أبيض بالتدريج يحب هذه الملاطفة، رغم بعض التشكّك والعدوانية في البداية، أما الشيء الذي لم يستطع تجاوزه فهو الدمدمة، فهو يستمر في إصدارها طوال مدة الملاطفة. وتميّزت تلك الدمدمة بنغمة جديدة، لا يلاحظها الغرباء الذين لا يرون فيها سوى تعبير عن الوحشية البدائية، التي تُحطّم الأعصاب وتُجمّد الدم في العروق. ذلك لأن ناب أبيض قد اكتسبت خلايا حلقه خشونة وجفاف كنتيجة للأصوات المتميّزة بالشراسة التي اعتاد إطلاقها على مدى سنوات، منذ المرة الأولى التي عبّر فيها عن غضبه في العرين الذي قضى فيه طفولته المبكرة. وهو الآن لا يستطيع أن يُرقّق صوته ليعبر عن التغيير الذي طرأ عليه. على كل حال، كان ويدون سكوت بأذنيه الحسّاستين، بالإضافة لما تميّز به من تعاطف مع ناب أبيض كفيل بأن يلتقط تلك النغمة الجديدة المدفونة داخل الشراسة القديمة. نغمة خافتة هي في الحقيقة ترنيمة رضا ومحبة لا يسمعها أحد سواه.

تسارع تحوّل المَيل إلى حبّ مع مرور الأيام، وبدأ ناب أبيض يعي ذلك التغيير، رغم أنه في نفسه لم يعرف ما هو الحب. لقد تمثّل له ذلك الإحساس على شكل خواء في داخله، خواء مؤلم جائع يصخب توقًا إلى الإشباع، أو مزيج من الألم والاضطراب يعتمل بداخله، فلا يتحرّر

من ذلك كلّه إلا عندما يشعر بحضور الإله الجديد، عندئذٍ يصير الحب متعة بلا حدود ورضا مثيرًا للبهجة. أما عندما يغيب عن الإله، فإن الألم والاضطراب يعودان، وكذلك يهيج الشعور بالخواء مرّة أخرى ويظلّ يتزايد، كالجوع الذي يعضّ بلا انقطاع.

أصبح ناب أبيض الآن في خضم اكتشاف جديد لنفسه، ورغم النضج الذي أكسبته إياه سنوات عمره، ورغم الصلابة القاسية للمادة التي صِيغ منها، فإن طبيعته كانت تخضع لبعض التغيير. لقد بدأت بعض المشاعر الغريبة والدوافع غير المعتادة تزدهر في نفسه، وتبدلت بعض قواعد السلوك التي طالما التزم بها. كان ناب أبيض في الماضي يحبّ الراحة ويكره التعب والألم، ويختار أفعاله بناءً على ذلك. أما الآن فالأمر قد اختلف، فهذه المشاعر الجديدة التي تسري بداخله تجعله في كثير من الأحيان يختار التعب ويرضى بالألم من أجل خدمة إلهه. فهو يظلّ منتظرًا لعدة ساعات يتطلّع إلى الشرفة الموحشة للكوخ، فقط ليرى وجه سيده، وذلك بدلًا من أن يتجوّل بحثًا عن طعام، أو يرقد طلبًا للراحة في زاوية منعزلة مستترة. أما في المساء، حينما يعود الإله إلى المنزل، فإن ناب أبيض يترك الحفرة الدافئة التي أعدّها لنفسه في الجليد، فقط لكي يتلقّى من السيد لمسات الأصابع المُربِّتة وكلمات التحية، حتى اللحم كان يمكنه أن يتخلّى عنه من أجل أن يكون مع الإله، فيداعبه لبعض الوقت أو يدعه يذهب معه إلى المدينة.

لقد حلّ الحبّ محل المَيل، غير أن الحب غاص إلى أعماق غاية في البعد، لم يسبق للمَيل أن وصل إليها، وفي رد فعل طبيعي، راح يخرج من تلك الأعماق البعيدة مزيد من الحب. كان ذلك إلهًا حقًا، إله الحب، إله متألّق مفعم بالدفء، وفي ضوئه الغامر ازدهرت طبيعة ناب أبيض كما تزدهر وردة تحت ضوء الشمس.

ناب أبيض كان - من ناحية أخرى - غير قادر على التعبير عن مشاعره،

فلقد كبرت سنّه واستقرّت طبيعته، بحيث يصعب عليه أن يكتسب مهارة التعبير عن نفسه بطرق جديدة، ولعل عزلته أكسبته وجودًا متماسكًا هادئًا مكتفيًا بنفسه. ولقد مضى عليه زمن طويل وروح العزلة والجهامة والتحفّظ تنمو بداخله، ولم يسبق له من قبل أن نبح، ولا يمكنه الآن أن يتعلّم النباح لكي يحيي إلهه. أما عند وصول إلهه بعد غياب، فهو لا يبالغ في التعبير عن حبه ولا يتحامق، بل ينتظر على مسافة منه، حريصًا على ألا يشغل المكان حوله، ولم يتخلّف عن ذلك أبدًا. نعم، أخذت مشاعر الحبّ لديه طابع العبادة: نوعٌ من التقديس الصامت، العاجز عن التعبير، وانحصر تعبيره عن الحب في نظرة عينيه، وفي متابعة عينيه لإلهه في كل تحرّكاته. كذلك، في الأوقات التي يركز فيها الإله بصره عليه ويندمج في الحديث إليه، يبدو عليه ارتباك غريب ينتج عن الصراع بين رغبته الدفينة في التعبير عن الحب من ناحية، وعدم قدرته بدنيًا على التعبير عن ذلك الحب من ناحية أخرى.

تعلّم ناب أبيض أن يتكيّف مع حياته الجديدة من عدّة نواحٍ. لقد استقر في وعيه أن عليه أن يترك كلاب سيده وشأنها، غير أن طبيعته المسيطرة كان لزامًا أن تؤكّد وجودها، وهكذا حرص في البداية على توضيح تفوّقه على تلك الكلاب، واستحقاقه لقيادتها. وبعد تحقيق ذلك، لم تعد الكلاب مصدر مضايقة من أي نوع فهي تفسح له الطريق إذا راح أو غدى، أو سار بينها، وهي تطيع أوامره متى عبّر عن رغباته.

وتكيّف ناب أبيض أيضًا مع وجود مات، بصفته منتميًا لسيده المحبوب. كان السيد نادرًا ما يُطعمه، ومن يقوم بإطعامه هو مات، فهذا جزء من مهمّات عمله. وقد خمّن ناب أبيض أن هذا الطعام هو طعام السيد، فكأنما هو يُطعمه ولكن بشكل غير مباشر. وقد حاول مات أن يربطه باللجام في الزلّاجة ليجرها مع فريق الكلاب، لكنه فشل. أما عندما قام ويدون سكوت بنفسه بوضع اللجام، فقد قبل ناب أبيض ذلك

لأنه أدرك أنها إرادة السيد أن يقوم بالعمل مع الكلاب الأخرى في جرِّ الزلّاجة، تحت إشراف مات.

تختلف الزلّاجة في منطقة «كلوندايك» عن تلك التي في منطقة «ماكينزي»، إذ لها نعلان من أسفل، حيث تلامس الجليد. كذلك، تختلف طريقة جرّ الكلاب للزلّاقة، ففريق الكلاب هنا في «كلوندايك» لا يتوزّع على شكل مروحة، بل في صفّ واحد، كلب وراء الآخر، وتُربط الكلاب في سيور مزدوجة. وقائد الكلاب هنا هو قائد بالفعل، ويجب أن يكون هو أقوى الكلاب وأكثرها حكمة، وعلى جميع الكلاب الأخرى أن تطيعه وتخاف منه. وكان حتميًّا أن يصبح ناب أبيض هو القائد، ولم يكن هو ليرضى بأقل من هذا، وقد أدرك مات ذلك بعد كثير من المتاعب والمضايقات. اختار ناب أبيض هذا الموقع لنفسه، وأكّد مات على تأييده لهذا الاختيار بعد أن أثبتت التجربة أنه الاختيار الصحيح. ورغم أنه صار يعمل في الجرّ أثناء النهار، لم يتخلَ ناب أبيض عن مهمّة حراسة أملاك سيده أثناء الليل، أي إنه كان يعمل ليل نهار، ودائمًا في غاية اليقظة والإخلاص. حقًّا، لقد فاقت قيمته كل الكلاب الأخرى.

قال مات ذات يوم للسيد سكوت:

- «إن كان لي أعبِّر عما في نفسي، فإنني أودّ أن أؤكّد أنك كنت في غاية الحكمة عندما دفعت ذلك المبلغ الذي دفعته لتحصل على هذا الكلب. كانت تلك صفقة ناجحة، تغلّبت فيها على سميث الجميل، بالإضافة لتلك اللكمة القويّة التي نالها في وجهه.

وَمَضَتْ عينا ويدون سكوت الرماديتان بالغضب القديم نفسه، وتمتم في غضب: «يا له من وحش».

تعرض ناب أبيض لمشكلة قاسية قرب نهاية فصل الربيع، إذ اختفى السيد المحبوب فجأة من دون إنذار. في الحقيقة، كان ثمة علامات،

لكنه لم يدرك معناها، فلم يفهم معنى حزم الحقائب، ولم يشُكّ في شيء عندما رأى السيد يحزم حقائبه قبل أن يغيب عنه. وهكذا ظل، ذات ليلة، ينتظر عودة السيد من دون فائدة، وعند منتصف الليل ألجأته الرياح القوية الباردة، إلى الرقاد خلف الكوخ، حيث غفا قليلًا، لكنه لم يستغرق في النوم، بل ظلّت عيناه نصف مفتوحتين، وظلّت أذناه تتسمعان خطوات السيد المعتادة. وفي الساعة الثانية صباحًا قاده القلق إلى أن يعود إلى المدخل الأمامي، رغم شدة البرد، ويربض منتظرًا.

لم يظهر السيد المحبوب، وفي الصباح انفتح باب الكوخ، وخطا مات خارجًا منه، فحدّق فيه ناب أبيض في أسى، ولم يكن ثمة وسيلة تواصل بينهما تساعده في الوصول إلى إجابة على سؤاله. وجاءت الأيام وذهبت، لكن السيد لم يظهر، وسقط ناب أبيض فريسة للمرض، وهو الذي لم يعرف المرض من قبل في حياته. وتفاقمت حالته، حتى إن مات اضطُرّ إلى أن يُبقيه داخل الكوخ. وفي ما بعد، ألحق مات إحدى رسائله إلى صاحب العمل بملحوظة قصيرة خصصها للحديث عن ناب أبيض.

وفي مدينة «سيركل» قرأ ويدون سكوت في نهاية الخطاب القادم من مات هذه الكلمات:

«ذلك الذئب الأحمق يرفض أن يعمل، ويرفض أن يأكل. لقد فقد حماسته تمامًا، ولم تعد الكلاب تأبه به. يبدو أنه يريد أن يعرف ماذا جرى لك، ولا أعرف كيف أخبره. لعله مشرف على الموت!».

وكان الأمر كما كتب مات بالفعل، فناب أبيض توقّف عن الأكل، واستسلم للقنوط، ولم تعد مضايقات الكلاب له تزعجه. أما في الكوخ، فهو مُمدّد طوال الوقت بجوار الموقد، لا يبالي بالطعام ولا بمدرّبه مات ولا بالحياة نفسها. قد يتحدّث إليه مات بلطف أو يصرخ فيه، فلا يهتم في الحالتين، ولا يفعل أكثر من أن يتطلّع إلى الرجل بعينين ضجرتين، ثم تعود رأسه لتسقط إلى وضعها المعتاد مستندة إلى قائمتيه الأماميتين.

وذات ليلة، بينما مات يقرأ بحركة شفتيه فقط من دون صوت سوى بعض التمتمة، إذا به يفاجأ بصوت أنين يصدر عن ناب أبيض، الذي نهض من مكانه، وأرهف أذنيه في اتجاه الباب، وبدأ يتسمّع في انتباه. وسمع مات بعد لحظات أصوات أقدام، ثم انفتح الباب وخطا ويدون سكوت إلى الداخل. تصافح الرجلان، وبدأ سكوت يبحث بعينيه عبر الحجرة، ثم سأل:

- «اين الذئب؟».

حينئذٍ، وجده بنفسه. كان ناب أبيض واقفًا في المكان نفسه الذي كان يرقد فيه. لم يندفع كما تفعل الكلاب الأخرى، بل ظلّ في مكانه، يراقب وينتظر.

وهتف مات في دهشة:

- «يا الله انظر إليه، إنه يهزّ ذيله!».

قطع ويدون سكوت نحو نصف الغرفة في خطوة واسعة في اتجاهه وهو يناديه، وتقدّم ناب أبيض ناحية صاحبه، ليس قفزًا، ولكن في سرعة معقولة، فقد عطّلته مشاعره المرتبكة. ثم أخذ تعبير غريب يظهر في عينيه، وهو يقترب أكثر فأكثر، تعبير هو مزيج يصعب توصيله من المشاعر المتداخلة التي جاشت بداخله والتمعت بها عيناه. ورأى مات هذا المشهد، فكان تعليقه:

- «لم ينظر إليَّ بهذه الطريقة أبدًا وأنت غائب».

لم يسمعه ويدون سكوت، إذ جلس القرفصاء مستندًا إلى كعبيه، في مواجهة ناب أبيض، وبدأ يلاطفه، فعرك قاعدتي أذنيه، وأخذ يربّت بخفة على امتداد رقبته ثم كتفه، وينقر على عموده الفقري بلطف بأطراف أصابعه. أما ناب أبيض، فهو من ناحيته يستجيب لكل ذلك بدمدمته المعتادة، وإن كانت الترنيمة الناعمة بدأت تظهر من خلف الدمدمة أكثر من أي وقت مضى.

ولم يكن ذلك كل شيء، فها هو ذا أخيرًا يجد وسيلة جديدة لإظهار ابتهاجه في تلك اللحظة، والحب العميق الذي يضطرم بداخله، ويحتاج إلى التعبير عن نفسه. لقد دفع رأسه فجأة إلى الأمام ودسّها بين جذع السيد وذراعه. هناك، شعر بالأمان يحوطه، وقد اختفى رأسه كلّه في ما عدا أذنيه، فتوقّف عن الدمدمة، وظل يدفع رأسه باستكانة.

لمعت عينا سكوت وتبادل النظرات مع مات، الذي صاح مذهولًا: «يا إلهي».

تمالك مات نفسه بعد لحظات، وأضاف:

«انظر إليه. ألم أؤكد لك دائمًا أن هذا الذئب هو في الحقيقة كلب».

وسرعان ما شُفي ناب أبيض من مرضه بعد عودة سيده المحبوب. كانت كلاب الزلّاجة قد نسيت مهارته القديمة، وتذكّرت فقط ضعفه ومرضه في الأيام الأخيرة، فلما رأوه خارجًا وثبوا عليه.

رأى مات ذلك المشهد، وهو يقف على عتبة الكوخ، فغمغم مبتهجًا: « اَرِهم كيف يكون اللعب الخشن، ثم قال مشجعًا:

«هيا أيها الذئب، فلتثِب عليهم! لا تتركهم، هيا، هيا».

لم يكن ناب أبيض في حاجة إلى أي تشجيع، فعودة السيد المحبوب كانت كافية لتجعل الحياة تسري في كيانه من جديد، هادرة لا يصدّها شيء. قاتل ناب أبيض مبتهجًا، فقد وجد في القتال وسيلة للتعبير عن المشاعر التي اضطرمت بداخله وليس ثمة وسيلة للنطق بها. وحدث ما هو متوقّع إذ تفرّقت الكلاب بعد أن تعرّضت لهزيمة مُشينة، ولم تستطع العودة إلا بعد حلول الظلام، حين تسلّلت عائدة واحدًا وراء الآخر في ذلّة وهوان، مؤكّدة ولاءها وانصياعها لناب أبيض.

صارت معانقة ناب أبيض لسيده بتلك الطريقة الخاصّة عادة من عاداته، أو ذنبًا لا يستطيع أن يمتنع عنه، لكنه على كل حال النقطة التي

لا يمكنه تجاوزها، فرأسه هي أغلى ما يحرص عليه، وهو على الدوام يكره أن يمسها أحد. ولعل ذلك هو مستقر ما بقي في نفسه من البراري: الخوف من الأذى، ومن الفِخاخ وهو الذي أثار في نفسه نوازع الرعب من ملامسة الآخرين. إن غريزة ناب أبيض تقتضي أن تكون رأسه دائمًا حرّة، أما تلك المعانقة التي ينخرط فيها مع سيده المحبوب، فكأنما يضع نفسه في موقف احتياج مطلق، وهو تعبير عن ثقة كاملة، واستسلام تام، وكأنما يقول له: «أنا أضع نفسي بين يديك، فافعل بي ما تشاء».

وذات ليلة، بعد عدة أيام من عودة السيد، بينما سكوت ومات منهمكان في جولة من لعب الورق قبل الذهاب إلى النوم، إذا بصيحة عالية في الخارج، يصحبها صوت زمجرة مخيفة، فتبادل الرجلان النظرات وأسرعا بالخروج من الكوخ، وقال مات:

- «لا بد أن الذئب قد هاجم أحدهم».

انبعثت صرخة رعب أخرى دفعت بالرجلين إلى مزيد من الإسراع، وصاح سكوت وهو يخطو إلى الخارج:

- «اَحضر مصباحًا، بسرعة».

تبعه مات يحمل مصباحًا، وعلى ضوئه رأى الاثنان رجلًا يرقد على ظهره على الجليد، وقد امتدت يداه، واحدة فوق الأخرى، تغطيان وجهه وعنقه. لا شك أنه كان يحاول حماية نفسه من أسنان ناب الأبيض. وكان الرجل مُحِقًّا في ذلك، فناب أبيض قد استبد به الغضب، وهو بدهاء يهاجم المواضع الأكثر ضعفًا. أما الرجل فقد تحولت ملابسه بين الكتف والرسغ: كُمّا معطفه، وقميصه القطني الأزرق اللون، وملابسه الداخلية، كلها تحولت إلى قطع مهلهلة من القماش، على حين بدت الذراعان وقد نُهِشتا وأخذت الدماء تسيل منهما.

كان ذلك ما رآه الرجلان في اللحظة الأولى، أما في اللحظة الثانية فقد أمسك ويدون سكوت بناب أبيض من عنقه وأخذ يجرّه بعيدًا، بينما ناب

أبيض يُقاوم ويزمجر، وإن لم يحاول أن يعُضّ، وسرعان ما توقّف عن هذا كله بعد استماعه لبعض الكلمات الحادة من السيِّد.

ساعد مات الرجل على النهوض من على الجليد، وعندما استوى الأخير واقفًا أعاد ذراعيه إلى وضعهما الطبيعي، فبدا من تحتهما وجه سميث الجميل الهمجي. عندئذٍ تركه مدرب الكلاب بشكل مفاجئ، وقد بدا عليه الانزعاج وكأنه يحمل نارًا مشتعلة. أما سميث الجميل، فقد رمشت عيناه في مواجهة ضوء المصباح، ثم تطلّع حوله، فلما وقعت عيناه على ناب أبيض ارتسمت علامات الرعب على وجهه.

لاحظ مات في اللحظة نفسها شيئين غامضين مُلقَيين على الجليد، فقرّب المصباح إليهما، مشيرًا إليهما بطرف قدمه، لكي يراهما سكوت، وكانتا عبارة عن سلسلة كلاب من الحديد وهراوة ضخمة.

نظر ويدون سكوت ورأى، ثم أومأ برأسه، ومن دون كلمة واحدة وضع مدرب الكلاب يده على كتف سميث الجميل، وأدار وجهه إلى الاتجاه الذي جاء منه، فانطلق الرجل بسرعة من دون الحاجة إلى أي كلام.

شرع السيد المحبوب في اللحظة نفسها في ملاطفة ناب أبيض، والتحدّث إليه:

- «حاول أن يسرقك، أليس كذلك؟ وأنت بالطبع لم تسمح له. حسنًا حسنًا، لقد ارتكب خطأً كبيرًا، أليس كذلك؟

وتمتم مُدرب الكلاب وهو يضحك ضحكة مكتومة: «لا بد أنه ظن أن سبعة عشر شيطانًا قد هاجمته وليس شيطانًا واحدًا».

ظل ناب أبيض هائجًا لبعض الوقت، وشعره منتفش وهو لا يكف عن الزمجرة، ثم ببطء أخذ الشعر يعود مسدلًا كما هي طبيعته، وبدأت الدندنة الهادئة الخافتة تتصاعد من أعماق صدره.

الجزء الخامس

الترويض

1

الطريق الطويل

أحسّ ناب أبيض بأن ثمة كارثة قادمة في الطريق، وكأنه تشمّمها في الهواء، قبل أن تكون هناك أدلة ملموسة على وجودها! لقد استقرّ في نفسه بطرق غامضة أن تغييرًا ما يوشك أن يحدث. لم يعرف كيف ولا لماذا، غير أنه استمدّ إحساسه هذا من الآلهة نفسها، التي فاتها أن الذئب - الكلب، الذي لا يغادر مدخل الكوخ، يمكنه أن يدرك بعض نواياها بطرق أكثر خفاءً مما تتوقّع، ففعلت من دون أن تدري ما نمّ عن بعض تلك النوايا. ورغم أنه لم يكن يدخل الكوخ على الإطلاق فقد أدرك بعض ما يجري في رؤوس الآلهة.

ذات ليلة هتف مدرب الكلاب أثناء تناول العشاء برفيقه ويدون سكوت:

- «هلا استمعت إلى هذا؟».

تسمّع ويدون سكوت، فجاءه من خلال الباب صوت مكتوم لأنين متوتّر، كأنه نشيج يتبع صوت التنفس الذي صار مسموعًا أكثر من ذي قبل، ثم جاءت نشقة طويلة، كأنما يؤكّد ناب أبيض لنفسه أن إلهه لا يزال موجودًا بالداخل وأنه لم يغادر المكان بعدُ، وحيدًا في رحلة غامضة.

وقال مدرب الكلاب:

- «أعتقد أن ذلك الذئب يدرك ما تنوي عمله».

نظر ويدون سكوت إلى رفيقه عبر المائدة بعينين مستعطفتين، رغم أن كلماته كذبت تلك النظرة، إذ تساءل:

- «ماذا أفعل بذئب في كاليفورنيا؟».

فأجابه مات:

- «هذا ما أقوله. ماذا ستفعل بذئب في كاليفورنيا؟».

غير أن هذا الردّ لم يكن كافيًا لإرضاء ويدون سكوت، إذ بدا له أن رفيقه يحكم عليه بطريقة ملتبسة بعض الشيء، وهكذا استمرّ في كلامه:

- «إن كلاب الأمريكيين في الجنوب لن تصمد أمامه، وسيقتلها في الدقائق الأولى من أي مواجهة. باختصار، إذا لم أُضطر إلى دفع تعويضات عن الأضرار التي سوف يتسبّب فيها، إلى أن أُشهر إفلاسي، فسوف تنتزعه السلطات مني لكي تُعدمه صعقًا بالكهرباء».

فجاء التعليق السريع لمدرب الكلاب:

- «هو قاتل، لا شك في ذلك».

نظر إليه ويدون سكوت نظرة مليئة بالشك، ثم أضاف بحسم:

- «لن ينجح الأمر أبدًا».

- لن ينجح الأمر أبدًا».

هكذا قال مات متّفقًا معه، ثم أضاف:

«وستُضطر لاستئجار شخص تُخصّصه لرعايته».

هدأت شكوك سكوت، فأومأ برأسه وقد انبسطت أساريره. ثم ساد الصمت لبعض الوقت، فُسمع عند الباب صوت النشيج المختلط بالأنين.

قال مات:

- «لا يمكن إنكار أنك عنده في مكانة عالية».

حملق الآخر فيه في حنق مفاجئ، ثم صرخ:

- «اِصمت! أعرف ما يجب عليَّ أن أفعله!».

- «أتّفق معك، لكن...».

فعاجله سكوت بالصراخ:

- « ولكن ماذا؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «ولكن..»، بدأ مدرّب الكلاب كلامه بهدوء، ثم غيَّر أسلوبه، في ما ينُمّ عن شيء من الغضب المتصاعد، وقال:

«حسنًا، لا داعي لكل هذا الغضب، ولكن بسبب بعض تصرفاتك قد يظن المرء أنك لا تعرف حقًّا ما عليك أن تفعل».

صمت ويدون سكوت للحظات كأنما يراجع نفسه، ثم قال بصوت أكثر لطفًا:

- «أنت على حق يا مات. أنا بالفعل لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، وهذه هي المشكلة».

ثم انفجر قائلًا بعد لحظة صمت: «لا شك أنها ستكون حماقة مطلقة لو أنني أخذته معي».

- «أتّفق معك تمامًا في ذلك». هكذا جاء رد مات السريع، لكنه لم يكن كافيًا لإرضاء ويدون سكوت، ثم أضاف مات متسائلًا بلهجة لا تخلو من سذاجة:

«ولكن كيف بحق الجحيم أمكنه أن يعرف أنك راحل؟ هذا ما يحيّرني حقًّا».

أجاب سكوت بهزة حزينة من رأسه، وهو يقول:

- «هذا يحيّرني أنا أيضًا يا مات».

ثم جاء اليوم الذي رأي فيه النّاب الأبيض من خلال فتحة باب الكوخ حقيبة السفر المشؤومة على الأرض، والسيد المحبوب يضع أشياءه

فيها. وصار هناك كثير من حركات الخروج والدخول، التي كدّرت الجو الهادئ المعتاد للكوخ بما سبّبته من اضطراب وارتباك. ها هي ذي الأمور تتّضح، وما أحسّ به ناب أبيض بشيء من الغموض من قبل يتحوّل الآن إلى أمر مفروغ منه. إن إلهه يستعد للرحيل مرة أخرى، وكما تركه في المرة السابقة، فعليه أن يتوقّع أنه سيتركه هذه المرة أيضًا.

رفع ناب أبيض في تلك الليلة عقيرته بعواء الذئب الطويل، تمامًا كما فعل في طفولته عندما فرّ من البراري عائدًا إلى القرية، فوجدها قد تلاشت وصارت عدمًا، في ما عدا كومة من النفايات دلّته على موضع خيمة السمّور الرمادي. والآن هو يشير بخطمه إلى نجوم السماء التي تطلّ عليه في فتور، فيشكو لها همومه.

في داخل الكوخ، في ذلك الوقت نفسه كان الرجلان قد أويا إلى فراشهما منذ لحظات. قال مات وهو راقد في سريره:

- «لقد توقّف من جديد عن تناول طعامه».

فجاء صوت تنهيدة عالية من السرير الآخر حيث يستلقي ويدون سكوت، وتقلقلت البطاطين في مكانها. وتابع مات كلامه:

«ولو حدث هذه المرة ما حدث في المرة السابقة فلن يدهشني أن ينفق».

وعادت البطاطين تتقلقل في مكانها من جديد بتوتّر أكبر، على السرير الآخر، ثم ارتفع صوت سكوت يصيح من هناك:

- «ألا تسكت! إنك تثرثر أسوأ من أي امرأة!».

قال مدرب الكلاب:

- «أنا متّفق معك تمامًا».

لم يكن سكوت متأكدًا إن كان الرجل قد ضحك ضحكة مكتومة أم لا.

صار اضطراب ناب أبيض وتوتّره أكثر وضوحًا في اليوم التالي، فقد ظلّ يتبع سيده في كل خطوة يخطوها خارج الكوخ، وإذا دخل السيد الكوخ فهو لا يفارق الدرج الخارجي. ومن خلال الباب المفتوح، أخذ ناب أبيض يختلس النظر للأمتعة المتراصّة على الأرض: حقيبة السفر وقد أُضيفت إليها حقيبتان كبيرتان من الخيش، وصندوق. كذلك رأى مات وقد انشغل بطي بطاطين السيد ورداءه المصنوع من الفرو بداخل حقيبة من المشمّع. أخذ ناب أبيض يراقب ذلك كله من دون أن يكفّ عن الأنين.

وصل في ما بعد إلى الكوخ اثنان من السكان الأصليين من ذوي الأصول الهندية، راقبهم ناب أبيض عن كثب وهما يحملان الأمتعة على أكتافهما، ثم يسيران هابطين في اتجاه ضفة الماء، يقودهما مات حاملًا حقيبة السفر ولوازم النوم. لم يتبعهم ناب أبيض، فالسيد لا يزال في الكوخ. ثم عاد مات بعد وقت قصير، وعندئذٍ جاء السيد إلى الباب واستدعى ناب أبيض إلى الداخل. وهناك أخذ يعرك أذنيه بلطف ويربّت على ظهره، ثم قال له بلطف: «أيها المسكين، سأذهب في رحلة لا يمكنك أن تتبعني فيها، فالطريق سيكون طويلًا. والآن اَعطني زمجرة قوية، الزمجرة الأخيرة، بل زمجرة الوداع».

رفض ناب أبيض أن يطيع هذا الأمر، وبدلًا من الزمجرة، نظر إلى سيده نظرة حزينة متسائلة، ثم دس رأسه حتى اختفت تمامًا بين جذع السيد وذراعه.

وفجأة صاح مات:

- «ها هي ذي السفينة».

وتصاعد من ناحية نهر «يوكن» صوت خشن لصفارة سفينة بخارية، وأضاف مات:

«يجب أن تختصر قليلًا، تأكّد من إغلاق الباب الأمامي، وسآتي أنا من الباب الخلفي. هيا أسرع».

انصفق البابان في اللحظة نفسها، وانتظر ويدون سكوت قليلًا حتى أتى مات من الخلف، ومن داخل الكوخ سُمع أنين خافت، يتبعه نشيج، وعدة نشقات عميقة.

قال سكوت لرفيقه بينما يهبطان التل متجهين إلى النهر:

- «أرجوك أن ترعاه يا مات، واكتب لي لتطمئنّي على سير أموره».

أجاب مدرب الكلاب:

- «نعم بالطبع»، ثم أضاف: «ولكن هلا استمعت إلى هذا».

توقّف الرجلان عن الكلام، فسمعا صوت ناب أبيض يعوي كما تعوي الكلاب عندما يموت أصحابها. أفصح صوته عن محنته العميقة، بصرخاته التي تنبعث إلى أعلى في دفقات مريعة تخلع القلوب، ثم تنحسر إلى أسفل في ارتعاشات مغلّفة بالبؤس الكامل، وتعود لتنفجر مرّة أخرى إلى أعلى في نوبات من الحزن العميق.

سفينة «أورورا» هي السفينة البخارية الأولى التي خرجت في ذلك العام إلى خارج المنطقة الشمالية، وكان ظهر السفينة مكتظًا بالمغامرين الأثرياء وآخرين من المفلّسين الذين قدموا بحثًا عن الذهب، وقد تساوت رغبتهم جميعًا في الخروج من هذه المنطقة مع توقهم السابق إلى الدخول إليها. وبالقرب من المعبر الذي صعد عليه الركاب إلى السفينة، وقف سكوت يصافح مات الذي كان يستعدّ لمغادرة السفينة إلى الشاطئ. وفجأة ارتخت يد مات في الكف الأخرى على حين تجاوزت عيناه سكوت وأخذتا تحملقان في شيء ما خلفه. التفت سكوت مستطلعًا، فإذا بناب أبيض يجلس على سطح السفينة، على بعد بضع أقدام منهما، ويرقبهما بعينين حزينتين.

لعنه مدرّب الكلاب بصوت خافت غارق في الدهشة، ولم يفعل سكوت شيئًا سوى النظر في ذهول. وسأل مات:

- «هل أغلقت الباب الأمامي؟».

أجاب الآخر بإيماءة، ثم سأل:

- «وماذا عن الباب الخلفي؟».

وجاء الرد في انفعال سريع:

- «أؤكد لك أنني أغلقته».

وقف ناب أبيض وقد انبسطت أذناه بمحاذاة رأسه، في استعطاف، غير أنه ظلّ واقفًا في مكانه، من دون أي محاولة للاقتراب.

قال مات:

- «سآخذه معي إلى الشاطئ». ثم تقدّم عدة خطوات في اتجاهه، لكن ناب أبيض انسلّ مبتعدًا، فاندفع مدرّب الكلاب وراءه، فإذا به يفلت منه بين أقدام مجموعة من الرجال. أخذ ناب أبيض يراوغ ويداور ويغيّر اتجاهه بشكل مفاجئ، وكأنه ينزلق على سطح السفينة، حتى نجح في التملّص من الرجل، رغم الجهد الكبير الذي بذله. اما عندما تكلّم السيد المحبوب فقد أتى إليه ناب أبيض في استجابة فورية.

قال مدرّب الكلاب في استياء:

- «انظر إلى هذا. إنه لا يأتي لليد التي أطعمته طوال هذه الشهور، بينما يطيعك أنت الذي لم تطعمه إلا أيامًا قلائل في بداية تعارفكما. لا شك أن اللوم يقع عليَّ، لأنني تركته يعلم أنك صاحب العمل.

أخذ سكوت يلاطف ناب أبيض، ثم انحنى مقتربًا منه فجأة، وأشار إلى بضعة جروح حديثة على خطمه، وجرح عميق بين عينيه.

انحنى مات فوقه، ومر بيده على بطنه، وقال:

– «يا له من غباء. لقد نسينا النافذة. يا إلهي، إن جسمه من أسفل مليء بثقوب وجروح، تحتاج إلى تنظيف ورعاية.

لم يكن ويدون سكوت يستمع، بل كان يفكّر بسرعة. أطلقت السفينة أورورا الصفارة الأخيرة، لتعلن أنها على وشك الإبحار، فتزاحم الرجال على المعبر في طريقهم إلى الشاطئ. أما مات فقد خلع منديله الذي يلفّه حول عنقه وبدأ يربطه حول عنق ناب أبيض، لكن سكوت أمسك بيده وقال:

– «إلى اللقاء يا عزيزي مات. بالنسبة للذئب، لست بحاجة للكتابة إليَّ. الحقيقة، لقد... !».

انفجر مدرّب الكلاب قائلًا:

– «ماذا! أنت لا تعني أنّك..؟».

– «بل هذا بالضبط ما أعنيه. خذ منديلك هذا. سوف أكتب لك أنا عن الذئب».

توقّف مات للحظات وهو في منتصف المعبر، والتفت صائحًا:

– «لن يستطيع تحمّل الطقس هناك، إلا إذا جززت فراءه في الجو الحار!».

سُحب المعبر إلى ظهر السفينة أورورا، التي بدأت في التحرّك مبتعدة عن الشاطئ. لوّح ويدون سكوت بيده مودّعًا، ثم التفت إلى ناب أبيض الواقف بجانبه، فانحنى فوقه، وبدأ يربت على رأسه ويعرك أذنيه المنبسطتين، وهو يقول مداعبًا:

– «والآن، اَسمعني زمجرتك أيها الشيطان الصغير؟».

2

في الجنوب

رست السفينة في «سان فرانسيسكو»، ونزل منها ناب أبيض، وقد سيطر عليه شعور بالانزعاج. لقد ربط في أعماقه، بما يتجاوز أي عملية عقلية واعية، بين القدرة والألوهية، والحقّ أنه لم يرَ البشر ذوي البشرة البيضاء كآلهة عظيمة كما يراهم الآن، بعد أن عبر الرصيف الزلق في سان فرانسيسكو. الآن استُبدلت المباني العالية بالأكواخ الخشبية التي اعتاد عليها، والشوارع حوله مكدّسة بأنواع متعدّدة من الأخطار: عربات ركاب تجرّها الخيول، وسيارات، وشاحنات بضائع كبيرة الحجم تجرّها خيول ضخمة في غاية الإجهاد، وعربات ترام تنعق وتصلصل وسط ذلك الزحام، فكأنها تهدّد وتتوعّد كما اعتادت حيوانات الوشق أن تفعل في براري الشمال.

رأى ناب أبيض في ذلك كلّه تعبيرًا عن القوة، قوة الإنسان الذي لا شكّ في أنه يحكم كل شيء ويتحكّم فيه، ويعبّر عن نفسه، منذ قديم الأزل، بسيطرته تلك على الاشياء. كم بدا كل شيء ضخمًا هائلًا إلى حدٍّ مُذهلٍ، أثار الرهبة، بل الخوف في نفس ناب أبيض. وكما سبق له أن أحسَّ في طفولته بالضآلة في اليوم الذي جاء فيه لأول مرة من البراري إلى قرية السمور الرمادي، يشعر الآن وقد كبرت سنه وملأه الاعتزاز بقوته، بأنه ضعيف ضئيل. ثم ما كلّ هذه الآلهة التي تغصّ بها الشوارع؟ حتى إن المنظر يكاد يصيبه بالدوار. أما الضجة المُريعة في الشارع فهي في

أذنيه كالرعد يكاد يصمّهما. وسيطر على ناب أبيض بالإضافة إلى ذلك، ارتباك كبير بسبب تلك الحركة الدائبة والاندفاع الذي لا يكاد يتوقّف في الشارع. وكان من الطبيعي إذًا، والحال هكذا، أن يشعر ناب أبيض باعتماده على السيد المحبوب، أكثر من أي وقت مضى، فصار يتبعه في كل وقت، بل لا يدعه يغيب عن عينيه مهما حدث.

لم يرَ ناب أبيض من المدينة سوى تلك الرؤية الكابوسية، وظلت تلك التجربة السيّئة تسيطر على أحلامه لفترة طويلة في ما بعد، كَحُلم قاسٍ يزعج نومه. وضعه السيد بعد ذلك في عربة الأمتعة في القطار، حيث رُبط بسلسلة في أحد الأركان، تحيط به أكوام من حقائب السفر، بأحجام مختلفة. وثمة إله قصير مفتول العضلات مسؤول عن المكان، لا يكفّ عن إصدار الضوضاء وهو يدفع الحقائب والصناديق في كل اتجاه، بعد أن يتلقّاها من آلهة أخرى عبر الباب، ليقذف بكل منها في الأكوام المخصّصة لها، ثم يلقي بها مرة أخرى عبر الباب ليتسلّمها أصحابها المنتظرون في الخارج.

أُقصي ناب أبيض إذًا في هذا الزحام من الأمتعة، أو لنقل إنه قد بدا له أن سيده أقصاه عنه في تلك العربة، إلى أن اشتم رائحة سيده منبعثة من حقائبه المصنوعة من الخيش فلازمها فارضًا حمايته عليها. ظهر ويدون سكوت عند الباب بعد نحو ساعة، فإذا بالإله المُشرف على تلك العربة يقول له في صوت يشبه الزمجرة:

– «ها أنت قد جئتَ أخيرًا، إن كلبك هذا لا يسمح لي أن ألمس أمتعتك!».

انبثق ناب أبيض من تلك العربة، غارقًا في الدهشة، وقد اختفت المدينة الكابوس. لم تكن عربة الأمتعة تلك بالنسبة له أكثر من حجرة في منزل، وعندما دخلها كانت المدينة تحيط به من كل جانب، وفي الوقت

الفاصل بين الخروج والدخول اختفت المدينة، ولم يعد صخبها يدقّ في أذنيه. نعم، الآن اختفت المدينة الكابوس، ورأى بدلًا منها مدينة أخرى مبتسمة، تتدفّق عليها أشعة الشمس، ويسري فيها الهدوء والسكينة، لكن الوقت لم يُتح له لكي يستمتع بذلك التحوّل، وقد تَقَبّله كما سبق له أن تقبّل كل تجليات الآلهة وأفعالها غير المُبررة، فهذه طريقتهم المعتادة.

كان ثمة عربة تجرّها الخيل في انتظارهما، واقترب رجل وامرأة من السيد، والتفّت ذراعا الأخيرة حول رقبة سيده. «يا له من سلوك عدائيٍّ!». وفي اللحظة التالية تمّلص ويدون سكوت من الذراع التي تطوقه وأمسك بناب أبيض الذي صار شيطانًا مسكونًا بالغضب، تتصاعد منه زمجرة عنيفة.

– «لا تخافي يا أمّي لا تخافي»، هكذا قال ويدون سكوت، بينما هو يقبض بقوة على عنق ناب أبيض، ويحاول تهدئته، ثم أضاف:

«لقد ظن أنك ستؤذينني، وهو لا يمكن أن يسمح بذلك. أرجوكِ لا تقلقي، سوف يتعلم بسرعة، فلا تقلقي».

ضحكت السيدة التي شحب وجهها وظهر عليها الضعف نتيجة لحظات الخوف، وقالت:

– «وإلى أن يحدث ذلك، أظنّ يمكنني أن أعبّر عن حبي لابني عندما يكون كلبه غير موجود!».

قالت السيدة ذلك وهي تنظر إلى ناب أبيض، الذي أخذ يزوم وقد انتفش شعره وهو يحملق فيها بعينين متوعّدتين.

وقال سكوت:

– «نعم، سيتعلم، ومن دون أي تأخّر». ثم أخذ يتحدّث إلى ناب أبيض بهدوء حتى هدأ تمامًا، ثم اكتسى صوته بالحزم وهو يقول له:

«والآن، اجلس، اجلس».

أطاع ناب أبيض الأمر، إذ كان ذلك مما علّمه سيده، إلا أنه جلس وهو في غاية التذمر.

«الآن يا أمي». هكذا قال سكوت، ثم فتح ذراعيه لأمه من دون أن يرفع عينيه من على ناب أبيض، الذي كاد أن ينبعث واقفًا فحذّره سكوت مرة أخرى: «اِجلس، اِجلس».

انتفش شعر ناب أبيض من دون أي صوت، وهو يعود إلى مكانه، بعد شروعه في الوقوف، وأخذ يراقب ذلك الفعل العدائي يتكرّر مرة أخرى، من دون أن يسبّب أي ضرر للسيد، ثم تكرّر مرة ثالثة من الإنسان الإله الذي كان يتبعهما. وفي نهاية الأمر، وضعت الأمتعة في العربة، وركب في إثرها السيد المحبوب ومعه الآلهة الأخرى. أما ناب أبيض، فقد انطلق يجري خلف العربة، وهو في غاية الانتباه، وقد انتفش شعره، وكأنما ينبّه الخيول التي تجر العربة أن واجبه هو التأكّد من سلامة السيد الذي يسرعان به إلى حيث لا يعلم.

دلفت العربة بعد نحو خمس عشرة دقيقة من بوابة حجرية، وانطلقت في طريق محاط من الجانبين بأشجار جوز تتشابك قممها على شكل أقواس متتابعة. وعلى جانبي ذلك الطريق، امتدت مروج، لا يقطع انسيابها سوى بعض أشجار البلوط الضخمة. تليها مساحات من الدريس الذي جففته الشمس، فصار متوردًا، يتباين لونه الذهبي، مع اللون الأخضر الزاهي للعشب المُعتنى به، وخلف ذلك كله مساحات من أراضي الرعي المرتفعة. وهناك بعيدًا، بين قمة المروج من ناحية وأرض الوادي المنبسطة من ناحية أخرى، وبالتحديد على أولى مستويات الأرض المرتفعة يقع منزل كبير متعدّد النوافذ، ذو رواق طويل مسقوف.

لم يُعطَ ناب أبيض إلا فرصة ضئيلة ليرى ذلك كلّه، إذ فوجئ بمجرّد دخول العربة من البوابة بأحد كلاب رعي الأغنام ينقضّ عليه. تميّز

الكلب المعتدي بعينين لامعتين وخطم حاد، وقد استبد به الغضب والسخط، ووقف بين ناب أبيض والسيد المحبوب. لم يُصدر ناب أبيض أي زمجرات مُحذِّرة، وإنما استعد لهجمة قاتلة في صمت، غير أن الهجمة لم تتمّ أبدًا. لقد توقّف بشكل مفاجئ لا يخلو من غرابة، إذ تصلّبت قائمتاه الأماميتان فعطّلتا قوة اندفاعه، وإذا به يقعي على قائمتيه الخلفيتين. كان ثمة رغبة قاهرة في أن يتجنّب الاتصال بذلك الكلب الذي كان يوشك أن يهاجمه، فقد كانت أنثى، وقانون النوع الذي ينتمي إليه، يقف حائلًا بينه وبين مهاجمتها، بمعنى آخر فإنه لو استسلم لرغبته، لتطلّب منه ذلك شيئًا لا يقلّ عن مخالفة غريزته.

أما الكلبة راعية الغنم، فقد اختلف الأمر معها تمامًا، فغريزتها لا تمنعها من مهاجمة الذكور، لكنها تملأها بالخوف من البراري، خصوصًا الذئاب. وناب أبيض بالنسبة لها هو بلا شكّ ذئب، سليل ذلك النوع من الحيوانات المفترسة التي اعتادت نهب قطعان الماشية والاستيلاء عليها، منذ زمان بعيد، عندما بدأت تلك الماشية تتقارب في جماعات يحرسها بعض الحمقى من أسلافها الكلاب. وهكذا، بينما بذل ناب أبيض جهدًا كبيرًا ليوقف اندفاعه لمهاجمتها، انقضّت هي عليه. زمجر ناب أبيض بعفوية، إذ أحسّ بأسنانها تنغرز في كتفه، غير أنه لم يبذل أي جهد لإيذائها. لقد تراجع مبتعدًا، وقد تصلّبت قوائمه، وشعر بشيء من التهيّب، وحاول أن يلتفّ حولها، فجرب أن يراوغ من هذا الاتجاه أو ذاك، أو ينعطف أو ينحني، من دون أي فائدة، فهي دومًا بينه وبين الطريق الذي يريد أن يسلكه.

ونادى الرجل الغريب من العربة: «هنا يا كولي، هيا».

وضحك ويدون سكوت وقال:

- «لا عليك يا أبي. هذا تدريب جيد. سيكون على ناب أبيض أن يتعلّم

أشياء كثيرة، ولعله من المناسب أن يبدأ الآن. وسوف يُحسن التكيّف، فلا تقلق».

لا تزال العربة تسير، ولا تزال هذه الكلبة تسدّ الطريق على ناب أبيض. حاول أن يسبقها في الجري، عن طريق ترك طريق العربة والجري في دائرة عبر المرج، غير أنها جرت في الدائرة الداخلية الأصغر، فصار يجدها أمامه في كل محاولة، تواجهه بصفين من الأسنان اللامعة. حاول ناب أبيض الجري عبر الطريق إلى الناحية الأخرى من المرج، لكنها نجحت في إغلاق الطريق أمامه مرة أخرى.

العربة الآن تحمل السيد وتبتعد، وقد التقط ناب أبيض لمحة سريعة منه والعربة تختفي بين الأشجار. أصبح الموقف ميئوسًا منه، فحاول ناب أبيض رسم دائرة أخرى في الركض، فإذا بها تركض وراءه بسرعة. وفجأة استدار ناحيتها، كما كانت عادته القتالية القديمة، فاصطدما بعنف، كتفًا إلى كتف، ولأن سرعتها في الركض كانت عالية للغاية، فهي لم تقع فقط، بل ظلّت تتقلب على ظهرها وجانبها، وهي تكافح لتتمكن من استعادة توازنها، فتخمش الحصى ببراثنها، وتصرخ بحدة تعبيرًا عن سخطها وكبريائها المُهان.

لم يُضع ناب أبيض وقتًا في الانتظار، بل انطلق إذ رأى الطريق مفتوحًا، وكان هذا كل ما يحتاج إليه، واندفعت الكلبة وراءه، من دون أن تتوقّف عن الصراخ. الطريق الآن مستقيم، وناب أبيض بلا شك لديه ما يُمكنه أن يعلّمه لها، فهي تجري في اهتياج وعصبية، وتعتصر أقصى طاقتها، كما يتضح في كل وثبة لها. أما هو، فهو ينساب بنعومة متملِّصًا منها، بسكون ويُسر، وكأنه شبح ينزلق بخفّة فوق الأرض.

واصل ناب أبيض الركض إلى أن وصل إلى المدخل الخاص بالعربات، فوجد العربة قد توقّفت والسيد يترجّل خارجًا منها. فجأة، وفي

تلك اللحظة نفسها، أدرك ناب أبيض أن ثمة كائنًا آخر يهاجمه من أحد جانبيه. كان ذلك كلب صيد ينقضّ عليه، وقد حاول ناب أبيض مواجهته، لكنه كان يجري بأقصى سرعة، وكان مهاجمه شديد القرب منه، فارتطم به من أحد جانبيه، وبسبب قوة اندفاعته الشديدة إلى الأمام، ولعدم توقّعه لذلك الارتطام، فقد قُذف به إلى الأرض حيث انقلب على ظهره تمامًا. نهض ناب أبيض من تلك المعمعة، بشكل يجسّد الغضب بل الغلّ الذي استبد به: أذناه مُسطّحتان إلى الخلف، وشفتاه ترتعدان غضبًا، وقد تقلّص أنفه، ثم اصطكت أسنانه بعد أن أخطأت أنيابه - بفارق بسيط - اللحم الرهيف لعنق الكلب المهاجم.

انطلق السيد يجري متوجّهًا إليهما، لكنه كان لا يزال بعيدًا، أما كولي فقد تمكّنت من إنقاذ كلب الصيد المهاجم، فقبل أن ينجح ناب أبيض في توجيه الضربة القاضية له، بل بينما هو يثب استعدادًا للانقضاض، وصلت كولي. وصلت كولي التي هُزمت وأهينت، فضلًا عن تدحرجها المُهين على الحصى. كانت عند وصولها كإعصار من الكرامة المجروحة، والغضب المُبرر، بالإضافة للكراهية الغريزية لذلك المتطفّل القادم من البراري. لقد هاجمته بزاوية قائمة في قلب هجومه المندفع، ومرة أخرى فقد توازنه وانقلب على ظهره.

وصل السيد في اللحظة التالية، فأمسك بناب أبيض بيد واحدة، في حين نادى الأب على الكلبين الآخرَين. ثم قال السيد وهو يربت عليه مهدّئًا:

- «يا له من استقبال حافل لذلك الذئب الوحيد القادم من القطب الشمالي، المعروف عنه أنه لم ينقلب على ظهره في حياته كلّها سوى مرة واحدة، وها هو ذا الآن يفقد توازنه ويسقط مرتين في ثلاثين ثانية».

غادرت العربة المكان، وخرج آلهة آخرون من البيت، وقف بعضهم

على مبعدة، وقد بدا عليهم الاحترام للآخرين، الذين تقدّمت اثنتان منهما وشرعتا في ذلك الفعل المعادي، ألا وهو التعلّق برقبة السيد المحبوب. وكان ناب أبيض قد بدأ يتقبّل ذلك الفعل، إذ اتضح أنه لا يسبّب أي ضرر، والصخب الذي يصحبه لا يُشير إلى أي تهديد. وحاولت تلك الآلهة أيضًا التقرب إلى ناب أبيض إلا أنه حذّرهم من الاقتراب منه بالزمجرة، على حين حذرهم السيد من الشيء نفسه ببضع كلمات. وكما هي عادته في مثل تلك المواقف، تمدّد ناب أبيض على الأرض بالقرب من سيده، مستمتعًا بتلقي بعض التربيت المُهدّئ لمشاعره على رأسه.

بالنسبة لكلب الصيد، فقد جاءه الأمر: «هيا، أُرقد يا ديك». فصعد درجات السلم ثم تمددّ على أحد جانبي الشرفة، وإن لم يتوقّف عن الزمجرة ومراقبة ذلك المتطفّل بنظرة متجهمّة. أما كولي، فقد تولّتها بالرعاية واحدة من الآلهة الإناث، التي أحاطت عنقها بذراعيها ولاطفتها وربتت عليها. ورغم ذلك كله، ظلت كولي على حيرتها وقلقها، مضطربة متذمّرة، وغاضبة من السماح لذلك الذئب بالوجود هناك، وواثقة في الوقت نفسه أن الآلهة بذلك ترتكب خطأً جسيمًا.

شرعت الآلهة جميعًا في التوجّه إلى داخل المنزل، وتبعهم ناب أبيض في إثر سيده، وقد انتفش شعره وأخذ يزمجر على درجات السلم، ردًا على زمجرة ديك، الجالس في الشرفة المسقوفة. وقدّم سكوت الأب اقتراحًا بقوله:

– «خذ كولي إلى الداخل، واترك الاثنين الآخرين لبعض القتال، ثم سيصبحان صديقين».

فأجاب السيد وهو يضحك:

– «ستكون الوسيلة الوحيدة لناب أبيض ليعبر عن الصداقة بعد ذلك القتال، هي أن يسير في جنازة الآخر!».

نظر سكوت الكبير بعينين غير مصدّقتين إلى ناب أبيض أولًا، ثم إلى ديك وأخيرًا إلى ابنه، ثم سأل:

- «أتعني أنّ...؟».

أومأ ويدون برأسه، وقال:

- «هذا بالضبط هو ما أعنيه. لو حدث ما تقترحه، فسوف تجد ديك نافقًا بعد دقيقة واحدة، أو اثنتين على الأكثر».

ثم التفت إلى النّاب الأبيض آمرًا:

«تعالَ معي أيها الذئب. أنت الذي يجب أن يدخل الآن».

صعد ناب أبيض الدرج ثم بدأ يسير عبر الشرفة، وقد انتصب ذيله، بينما عيناه لا تفارقان ديك، لكي يحمي نفسه من أي هجوم على خاصرته. وقد حرص في الوقت نفسه على أن يكون مستعدًا لكل احتمال مجهول مخيف، يمكن أن ينقضّ عليه من داخل هذا المنزل. لم يظهر شيء مخيف، وعندما خطا ناب أبيض إلى الداخل، تلفّت حوله بحرص مستطلعًا المكان، باحثًا عما يُخيف، لكنه لم يجد شيئًا. عندئذٍ، رقد عند قدمي سيده، وهو يدمدم راضيًا، بينما لا يزال يدقّق في كل ما يحدث حوله، وهو على أهبة الاستعداد لأن ينبعث واقفًا على قدميه، ويقاتل دفاعًا عن حياته، إذا لزم الأمر، ضد أي شرور، يرى أنها بلا شك كامنة في مكان ما تحت سقف هذا المسكن.

مكتبة
t.me/t_pdf

3

في أرض الإله

لم يكن ناب أبيض قابلًا بطبيعته للتكيّف فحسب، لكنه أيضًا تجوّل كثيرًا، وأدرك معنى التكيّف وضرورته. وهنا، في «سييرا فيستا»، وهو اسم منزل القاضي سكوت، بدأ ناب أبيض بسرعة يعتاد على المكان، ويتصرّف كأنه بيته. لم تَعُد ثمة مشكلات بينه وبين الكلاب، فهي تعرف عن الآلهة في الجنوب أكثر مما يعرف هو، ولا بد أنها تعرف أنه صار مؤهّلًا للحياة معها، ما دام قد رافق الآلهة إلى داخل المنزل. ورغم أنه ذئب، ورغم أن ذلك لم يحدث من قبل، فقد أجازت الآلهة وجوده، وعليها باعتبارها كلاب الآلهة، أن تقبل بهذا الوجود.

اِضطُر ديك إلى اجتياز بعض الإجراءات القاسية في البداية، ثم قَبِل بهدوء وجود ناب أبيض، بصفته إضافة إلى سكان المزرعة. لو أن الأمور سارت كما أراد ديك لصارا صديقين، غير أن ناب أبيض كان عزوفًا عن الصداقة، وكل ما تمنّاه من الكلاب الأخرى هو أن تتركه وشأنه. لقد قضى حياته كلّها مترفّعًا عن الاندماج مع هذا النوع، وهو يودّ أن يظلّ كذلك، وقد ضايقته محاولات ديك للاقتراب منه، فكان يبعده بالزمجرة في وجهه. لقد سبق له أن تعلّم، عندما كان مقيمًا في الشمال، درسًا مفاده أن عليه أن يدع كلاب السيد وشأنها، وهو لم ينسَ هذا الدرس حتى هذه اللحظة، لكنه أيضًا يُصرّ على التمسك بعزلته ويحرص على خصوصيته، وهكذا تجاهل بإصرار محاولات ديك للتقرّب منه، حتى إذ ذلك الكائن

الطيب في النهاية فقد الأمل فيه، صار اهتمامه به لا يزيد على اهتمامه بمربط الخيل القريب من الاسطبل!

لم يكن الأمر كذلك مع كولي، إذ بينما قبلت وجوده نزولًا على رغبة الآلهة، لكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لأن تتركه في سلام. إن ذكريات الجرائم التي لا تحصى التي ارتكبها هو وأسلافه في حق أسلافها هي جزء من نسيج وجودها، ولم تكن تلك الجرائم وما ترتب عليها من تدمير لحظائر الماشية لتُنسَى في يوم، بل ولا في جيل كامل. كان هذا كله دافعًا لها، يُلِحّ عليها لكي تثأر لكل ما فات. لم تكن بالطبع تستطيع أن تعارض الآلهة التي سمحت بوجوده، لكن ذلك لم يكن ليمنعها من أن تزعجه ولو بأشياء بسيطة. نعم، كانت بينهما ضغينة عميقة تمتد لزمان طويل، وكانت من جانبها حريصة على أن تُذكّره بها.

واتّخذت كولي من كونها أنثى وسيلة لمناوشة ناب أبيض وإساءة معاملته. لم تكن غريزته لتسمح له بأن يهاجمها، ولم يكن إصرارها ليسمح له بأن يتجاهلها، فكانت عندما تندفع لمهاجمته، يلتفت بحيث يكون كتفه المغطّى بالفراء الكثيف مواجهًا لأسنانها الحادة ثم يتراجع مبتعدًا في تعالٍ، وقد تصلّبت قوائمه الأربعة. أما إذا ازداد إلحاحها، فإنه يتحرّك مبتعدًا في شكل دائري، وكتفه مكشوف أمامها، ورأسه ملتفتًا بعيدًا عنها، وفي عينيه تعبير يمزج بين الصبر والإنزعاج. وأحيانًا، عضة سريعة في إحدى قائمتيه الخلفيتين تَزيد من سرعة تراجعه، وتجعله بلا شكٍّ أقل تعاليًا. ويمكن القول بشكل عام، إن ناب أبيض نجح في الحفاظ على قدر مناسب من كرامته، أو لنقل وقاره، فقد اعتاد أن يتجاهل وجودها كلّما أمكن ذلك، وحرص على أن يبتعد عن طريقها، فإذا رآها قادمة أو سمع صوتها، نهض من مكانه وغادر المكان.

وكان ثمة أشياء كثيرة على ناب أبيض أن يتعلّمها، فالحياة في الشمال كانت غاية في البساطة إذا قورنت بتلك الشؤون المعقّدة في «سييرا

فيستا». أولًا، وقبل كل شيء، يحتاج ناب أبيض إلى معرفة أسرة السيد. وقد كان إلى حد ما مستعدًا لذلك، فكما انتمى ميتساه وكلوكوش إلى السمّور الرمادي، واقتسما معه الطعام والنار والبطاطين ينتمي الآن إلى السيد المحبوب كل ساكني «سييرا فيستا»، غير أنه ثمة اختلاف، بل عدة اختلافات في ما يخصّ هذا الموضوع.

إن «سييرا فيستا» مكان بالغ الاتساع بالمقارنة بخيمة السمّور الرمادي، ويضم بالتالي عددًا أكبر من البشر. هناك القاضي سكوت، وزوجته، ثم بيث وماري شقيقتا السيد المحبوب، وأليس زوجته، وطفلاه: ويدون ومود، وهما في الرابعة والسادسة من العمر. لم يكن من الممكن أن يخبر أحد ناب أبيض عن كل هؤلاء الناس، وهو لا يعلم شيئًا عن روابط الدم والعلاقات بين البشر، ولا كان له أن يعرف، غير أنه سرعان ما علِم أن هؤلاء جميعًا ينتمون إلى السيّد. ثم أدرك ناب أبيض بالتدريج، بالملاحظة كلما سنحت الفرصة، وبالتمعن في الأفعال والأقوال، وأيضًا نبرة الصوت، أدرك درجة ميل السيد إلى كل طرف من هؤلاء، وقدر الحميمية التي تربطه بكل واحد منهم. وبدأ ناب أبيض يتعامل مع كل واحد من هؤلاء، بحسب إدراكه هذا، فكل من تعلو قيمته في عين السيد المحبوب، هو في مكانة عالية عنده، وكل من يحرص عليه السيد المحبوب، هو جدير باحترام ناب أبيض بل وحمايته بكل حرص.

وهكذا كان الحال مع الطفلين، رغم أن ناب أبيض كان طوال حياته لا يميل إلى الأطفال، بل يضيق بهم ويخاف من أيديهم. كانت تجاربه القديمة في قرى السكان الأصليين من الهنود بعيدة عن أن توصف بأنها عاطفية، بل تبين له منها ما يتميزون به من طبع استبدادي وقسوة. وعندما اقترب منه الطفلان ويدون ومود للمرة الأولى زمجر مُحذّرًا، وبدا عليه الشرّ، إلا أن لطمة سريعة من السيد المحبوب صحبتها كلمة حادّة النبرة، اضطرته إلى أن يسمح لهما بالتربيت على جسمه، ورغم أنه أخذ يزمجر

بصوت مكتوم تحت ملمس أيديهما الصغيرة، فإن صوت الترنيمة البعيدة لم يظهر من وراء الزمجرة. ولاحظ ناب أبيض، في ما بعد، أن السيد يحمل للطفلين محبّة غامرة، فصار يسمح لهما بمداعبته من دون حاجة للطمة أو كلمة حادّة.

لم يصبح ناب أبيض فياض العاطفة فجأة، بل بدأ بالاستسلام لطفلي السيد عن طيب خاطر إكرامًا له، وتحمّل حمقهما كما يتحمّل المرء جراحة مؤلمة، فإذا بلغ الأمر حدًّا لا يمكنه احتماله، نهض من مكانه وأصرّ على الانصراف بخطًى متعالية، ثم بمرور الوقت أخذ يشعر بميل نحو الطفلين. لم يَعْتَد رغم ذلك أن يعبّر عن أي عاطفة تجاههما، فهو لا ينهض لملاقاتهما، ومن ناحية أخرى لا يتوجّه إليهما عند رؤيتهما، بل ينتظر إلى أن يأتيا إليه. ولوحظ في مرحلة لاحقة أن وميضًا من البهجة يلمع في عينيه عندما يراهما يقتربان، وأن عينيه تتبعانهما في فضول ولهفة، عندما ينصرفان عنه إلى أشكال أخرى من اللهو. وقد أخذت هذه الخطوات بعض الوقت على طريق تطوره.

أما الشخصية التالية بعد الطفلين في الاندماج مع ناب أبيض، فهو القاضي سكوت، وكان ثمة سببان على الأرجح لذلك. أولًا، وضوح أهمّية المكانة التي يحتلها الرجل في حياة السيد المحبوب. أما السبب الثاني فهو باختصار أنه كان ذا طبع متحفّظ، لذا، كان يلذ لناب أبيض أن يستلقي عند قدميه في الشرفة الواسعة بينما القاضي يقرأ الجرائد، ويمنحه من حين لآخر نظرة أو كلمة، تفصح - من دون مجهود أو إزعاج - عن رضاه عن حضور ناب أبيض، بل عن وجوده. هذا يكون فقط في غياب السيد المحبوب، فإذا ظهر فكل الكائنات الأخرى تغيب عن الوجود، على الأقل تغيب عن عيني ناب أبيض!

الآن صار ناب أبيض يسمح لكل أفراد العائلة بتدليله وملاطفته، لكن ذلك لا يعني بأي شكل أنه يمنحهم كل ما يمنحه للسيد، فلا شيء مما

يفعلونه يمكن أن يبعث في حلقه ترنيمة الحب، وهم رغم كل محاولاتهم لم يفلحوا في إقناعه بدسّ رأسه محتضنًا أيًّا منهم، فذلك التعبير عن منح الذات والتسليم التام والثقة الكاملة، كان مُتاحًا فقط لسيده. وحقيقة الأمر هي أنه يرى في أفراد الأسرة أنهم من متعلّقات السيد، لا أكثر ولا أقل.

استطاع ناب أبيض أيضًا في مرحلة مبكرة أن يُدرك الفرق بين أفراد الأسرة والخدم العاملين في المنزل، الذين كانوا يخافون منه، وكان هو بدوره يمتنع عن مهاجمتهم، بصفتهم من مقتنيات السيد. وانتهى الأمر بالطرفين إلى علاقة محايدة، ولا أكثر من ذلك، فهم ليسوا إلا تابعي سيده، يقومون بأعمال الطهو وغسل الأطباق، وما يشبه ذلك من المهمّات، كما كان مات يفعل هناك في منطقة «كلوندايك».

لا يزال ثمة الكثير مما يجب على ناب أبيض أن يتعلّمه خارج المنزل، فأملاك السيد تتجاوز هذا المنزل، وهي متّسعة ومتشابكة، ولها حدود خارجية، كما تنقسم من الداخل إلى أقسام مختلفة.

تمتد أراضي السيد حتى تصل إلى طريق القرية، ووراء تلك النقطة توجد الملكية العامة للآلهة جميعًا، وهي الطرق والشوارع، ثم خلف الأسيجة تتناثر الملكيات الخاصة للآلهة الأخرى. وثمة شبكة من القوانين التي لا حصر لها تحكم كل شيء وتقرّر السلوكات المقبولة، غير أنه لا يفهم كلام الآلهة، وما من وسيلة لأن يعرف تلك القوانين سوى بالتجربة. ناب أبيض إذًا يتبع دوافعه الغريزية، إلى أن تقوده إلى مخالفة قانون ما، وقد حدث ذلك عدّة مرات، وهو في كل مرة يتعلّم القانون، ويحرص على الالتزام به في ما بعد.

كانت أكثر الوسائل فعالية في تعليم ناب أبيض، هي لطمة من يد السيد المحبوب ورنة التوبيخ في صوته. ولطمة بسيطة من كف السيد تؤلمه أكثر من أي ضرب تلقاه من قبل من السمّور الرمادي أو سميث

الجميل. كانت ضرباتهما تؤلم فقط جسمه من الخارج، وتظل الروح تحتها غاضبة، متوهّجة، لا تُقهر، أما لطمة السيد فهي دومًا خفيفة لا تؤلم الجسم، لكنها تسري عبره إلى أعماق النفس. إنها تعبير عن عدم رضا سيده عنه، وهو شعور يجعل روحه تذوي بداخله.

لم تُستخدم اللطمات إلا نادرًا، في حقيقة الأمر، إذ إن صوت السيد كان كافيًا، ومن خلال نبرة الصوت يعرف ناب أبيض إن كان قد أخطأ أو أصاب، فيهذب سلوكه، ويُصحح تصرفاته إذا احتاج الأمر. صار صوت سيده هو البوصلة التي يهتدي بها وهو يقود سفينة حياته، وهي الأداة التي يسجّل بها السلوكات المقبولة في حياته الجديدة، في تلك الأرض البعيدة.

هناك، في أرض الشمال البعيدة، كان الكلب هو الحيوان الوحيد المستأنَس، على حين عاشت كل الحيوانات الأخرى في البراري، وباستثناء تلك التي تتميّز بضخامة الحجم، فإن تلك الحيوانات تُعدّ فرائس مباحة لكل الكلاب. إذًا قضى ناب أبيض حياته كلّها يقتات على الحيوانات، ولم يخطر بباله على الإطلاق أن الأمر في أرض الجنوب يمكن أن يكون مختلفًا، لكنه أدرك ذلك بعد وقت قصير من انتقاله إلى وادي «سانتا كلارا». ذات يوم، بينما كان ناب أبيض يتجوّل متمهّلًا في الحديقة في الصباح الباكر، التقى وجهًا لوجه، عند ناصية المنزل بدجاجة فرّت من الفناء. وكان من الطبيعي أن يستجيب ناب أبيض لحافز غريزته ويأكلها. لم يستغرق الأمر سوى وثبتين سريعتين، وأسنان لامعة منقضة، وصرختي رعب حادّتين من الدجاجة، ثم بدأ ناب أبيض يغترف من تلك الدجاجة المغامِرة. والحق أنها كانت وجبة لذيذة، لدجاجة سمينة، طريّة اللحم، أُحسنت تغذيتها، انتهى ناب أبيض منها ثم لعق شفتيه، وحدّث نفسه: «يا لها من وجبة لذيذة».

التقى ناب أبيض مصادفة، في وقت متأخر من اليوم نفسه، بدجاجة

أخرى ضلّت طريقها، وكان ذلك بالقرب من الاسطبلات. رآها في تلك اللحظة أحد سائسي الخيل، فأسرع لإنقاذها، غير أنه لم يكن يعرف النوع الحقيقي الذي ينتمي إليه ناب أبيض، ولم يجد سلاحًا لمهاجمته سوى سوط رفيع. ترك ناب أبيض الدجاجة والتفت إلى السائس بعد الضربة الأولى من السوط، الذي لم يكن ليردعه، كما قد تفعل هراوة، ووثب للمرة الثانية منقضًا على حلق السائس هذه المرة، في سكون، ومن دون تردد. فوجئ السائس بالهجوم، فصرخ في رعب: «يا إلهي»، وتراجع متعثرًا، ثم أسقط السوط من يده، وحاول حماية عنقه بذراعيه، فكانت النتيجة أن الذراع الأمامية نُهشت نهشًا عميقًا.

استبد الرعب بالرجل، ولم تكن شراسة ناب أبيض هي التي أزعجته بقدر ما فعل هدوؤه الغريب، ولم يستطع إلا أن يتراجع في محاولة للوصول إلى الحظيرة، وهو لا يزال يحاول حماية عنقه بذراعيه، ولولا أن كولي ظهرت في المشهد في تلك اللحظة، لكان الأمر بالنسبة له قد غدا في منتهى الصعوبة. ها هي ذي كولي تنقذ حياة السائس - كما أنقذت حياة ديك من قبل - إذ انقضت على ناب أبيض وقد هاج بها الغضب. ألم تكن هي على حق؟ ألم تكن أكثر حكمة من تلك الآلهة المتخبّطة. نعم، كانت مُحقة في مخاوفها كلّها، ها هو ذا اللص العتيد يعود إلى حِيَلِه القديمة مرة أخرى.

فرّ السائس إلى منطقة الاسطبلات، وتراجع ناب أبيض مبتعدًا عن أسنان كولي اللعينة، مواجهًا إياها بكتفه، ثم الدوران ومزيد من الدوران. لم تكفّ كولي عن مهاجمة ناب أبيض، كما اعتادت أن تفعل، بعد فترة مناسبة من المطاردة والتأديب، بل على العكس ازدادت غضبًا وهياجًا، دقيقة بعد دقيقة، إلى أن اضطُرّ ناب أبيض إلى الهروب الصريح عبر الحقول، غير عابئ بكبريائه الذي ذرته الريح.

قال السيد:

- «سوف يتعلّم أن يترك الدجاج وشأنها، لكنني لا أستطيع إعطاءه هذا الدرس إلّا عند ضبطه متلبّسًا».

وقد ضُبط ناب أبيض مُتلبّسًا بالفعل بعد ليلتين، ولكن على نطاق أوسع بكثير مما تنبّأ سيده. لقد راقب ناب أبيض عن كثب الفناء المخصّص للدجاج، كما درس عاداته وتحرّكاته اليومية. وذات ليلة، بعد أن سكنت الدجاجات في مأواها، تسلّق ناب أبيض كومة من الخشب المجموع حديثًا، ومنها انتقل إلى سطح حظيرة الدجاج، ومن بين دعامات السقف قفز إلى الأرض. وصار في قلب الحظيرة بعد لحظة واحدة، ثم بدأت المذبحة.

خرج السيد في الصباح التالي إلى الشرفة ليجد في مواجهته خمسين من دجاج «ليغهون» وقد وضعها السائس متراصّة في صفوف. أصدر السيد صفيرًا خافتًا لنفسه، في اندهاش، تحوّل إلى إعجاب. ووقعت عيناه أيضًا على ناب أبيض، الذي لم تبدُ على وجهه أي إشارات تدل على الخجل أو الإحساس بالذنب، بل على العكس ظهرت عليه علامات الاعتزاز بالنفس، وكأنه قد أنجز بالفعل عملًا يستحق الإشادة والثناء، ولا يستدعي أي إحساس بالإثم. وتصلّبت شفتا السيد وهو يستعد للمهمة البغيضة، ثم وجه كلامًا بلهجة حادة للمذنب الماثل أمامه، فخرج الكلام مغلفًا بغضب الإله. وأمسك السيد - بالإضافة إلى ذلك - بأنف ناب أبيض وجذبها إلى أسفل في اتجاه الدجاجات المذبوحة، ونزل عليه في الوقت نفسه عدّة لطمات بصوت مسموع.

لم يقُم ناب أبيض بأي غارات أخرى على حظائر الدجاج، فقد أدرك أن هذا مخالف للقانون. وقد اصطحبه السيد إلى الفناء المخصّص للدجاج، وعندما رآى ذلك اللحم الحي يرفّ حوله ويمر أمامه، كاد يهاجمه مستسلمًا للدافع الغريزي بداخله، لكن السيد كبح جماحه بصوت مُحذّر. بقي الاثنان لمدة نصف ساعة في المكان، وكلما انبعث

دافعه الغريزي وحاول ناب أبيض الانسياق له، أعاد السيد تحذيره بصوت مرتفع. وهكذا تعلّم ناب أبيض القانون، وقبل أن يغادرا المكان، كان قد تدرّب على تجاهل الدجاج، وكأنه غير موجود.

هز القاضي سكوت رأسه على مائدة الغداء، وقال بصوت حزين:

- «لا يمكنك أبدًا أن تُشفي قاتل الدجاج».

كان ذلك عندما أخبر سكوت الابن والده عن الدرس الذي علّمه للناب الأبيض، وأضاف القاضي، وهو يهز رأسه للمرة الثانية وقد بدا عليه الحزن:

«خصوصًا بعد أن تَذَوّق طعم الدم واعتاد عليه».

اختلف ويدون سكوت مع والده في الرأي، وبعد فترة من الصمت قال بنبرة متحدّية:

- «سأخبرك بما سأفعله. سوف أحبس ناب أبيض مع الدجاج فترة الظهر». فاعترض القاضي:

- «عليك أن تفكّر بالدجاج أيضًا».

واستمر الابن في كلامه:

- «وأكثر من ذلك، سوف أدفع لك في الحال في مقابل كل دجاجة يقتلها دولارًا ذهبيًا».

تدخّلت بيث في الحديث:

- «يجب أن تقرّر عقوبة لأبي أيضًا في حال كان مخطئًا».

وأيّدت أختها رأيها، ثم تصاعدت جوقة من الأصوات المؤيّدة حول المائدة، وأومأ القاضي سكوت برأسه موافقًا هو الآخر.

تدبر ويدون سكوت الأمر قليلًا، ثم قال:

- «حسنًا، إذا لم يسبب ناب أبيض أي أذى للدجاج حتى نهاية هذا

النهار، فسوف يكون عليك يا أبي، لكل عشر دقائق قضاها في الفناء، أن تقول له في وقار وتؤدة، وكأنك جالس على منصّة القضاء تصدر حكمًا حقيقيًا: «أيها الناب الأبيض، أنت أذكى كثيرًا مما توقّعت».

جلس أفراد العائلة يراقبون أداء ناب أبيض من نقاط مراقبة خفية، غير أنه لم يكن هناك ما يستدعي المراقبة! حُبس ناب أبيض مع الدجاج في الحظيرة، مُبعَدًا عن سيده، فتمدّد على الأرض ونام، ولما استيقظ سار حتى حوض الماء ليشرب، من دون أن يُبدي أي اهتمام بالدجاج، فهو بالنسبة له غير موجود. وعندما بلغت الساعة الرابعة عصرًا انطلق ناب أبيض إلى أعلى في قفزة أوصلته إلى سطح الحظيرة، ثم وثب إلى الأرض في الخارج، ومن هناك سار في تؤدة إلى المنزل، وقد أثبت أنه فهم القانون والتزم به. وهناك، في الشرفة، حيث اجتمعت الأسرة المبتهجة، وقف القاضي سكوت، وجهًا لوجه أمام ناب أبيض، وقال في وقار وتؤدة: «أيها ناب أبيض، أنت أذكى كثيرًا مما توقّعت». وكرر الرجل هذه الجملة ست عشرة مرة.

كثرة القوانين، هي التي أربكت ناب أبيض حقًّا وسبّبت له الحرج في بعض الأحيان، فقد كان عليه أن يتعلّم ألا يمسّ الدجاج الذي يخصّ الآلهة الأخرى، ثم هناك أيضًا القطط والأرانب والديوك الرومية، فعليه أن يدعها جميعًا وشأنها. لقد استقرّ في ذهنه، بعد أن تعلّم فقط جزءًا من القانون، أن عليه ألا يمس كل الكائنات الحيّة، ومن هذا المنطلق أمكن لطائر سِمّان أن يظل يحوم حوله في المراعي الواقعة خلف المنزل من دون أن يضرّه بشيء. ظل ناب أبيض يرتعش متوترًا بسبب الرغبة والتلهف، لكنه تحكّم في غريزته، وظلّ واقفًا من دون حراك، خاضعًا لإرادة الآلهة.

كان ناب أبيض - ذات يوم - في المرعى الخلفي، حيث رأى الكلب ديك يطارد أرنبًا بريًا، ولاحظ أن السيد بنفسه يرقب ما يحدث ولم

يتدخّل، بل أكثر من ذلك، لقد شجّعه هو على المشاركة في المطاردة. وعندئذٍ فهم ناب أبيض أنه ليس ثمة حظر على مطاردة الأرانب البرّية، ثم استنتج في ما بعد القانون كاملًا. وهو ببساطة أنه يجب ألا يوجد عداء بينه وبين الحيوانات المنزلية، فإذا لم تكن ألفة وصداقة، فعلى الأقل يلزم أن تكون العلاقات محايدة. أما الكائنات الأخرى، مثل السنجاب وطائر السمان والأرنب القُطني الذيل، فهي جميعًا مخلوقات برّية لم تعلن أبدًا خضوعها للإنسان، ولذلك فإن هذه الكائنات هي فرائس مباحة لكل الكلاب. الآلهة من ناحيتها لا توفّر الحماية إلا للكائنات المستأنَسة، وفي ما بين هذه الكائنات وبعضها لا تسمح الآلهة بالصراع حتى الموت، إلا بإذنها فهي وحدها التي تحمل صلاحية الحكم بالحياة والموت على رعاياها، وهي حريصة على تلك الصلاحية.

لا شك في أن الحياة في وادي «سانتا كلارا» شديدة التعقيد إذا قورنت بالبساطة التي تميّزت بها الحياة في أقصى الشمال. والشيء الأساسي الذي تتطلّبه تعقيدات الحياة الجنوبية المتحضّرة هو ضبط النفس والتحكم فيها، إنه نوع من التوازن المطلوب الذي يجعل النفس في رهافة أجنحة الفراشة من ناحية، وفي صلابة الحديد من ناحية أخرى. ويبدو أن للحياة ألف وجه، وقد اكتشف ناب أبيض أن عليه أن يختبرها جميعًا، فقد كان مثلًا يذهب إلى مدينة «سان خوسيه» جريًا وراء العربة، أو مُتسكعًا حولها بينما هي واقفة في أحد الشوارع، فيرى الحياة تنساب حوله، عميقة متّسعة الأرجاء ومتنوّعة الأشكال، وباستمرار تضغط على حواسّه وتطالبه بأشكال لا نهائية من الاستجابة للمتغيرات والتكيّف معها، ومعظمها تضطرّه إلى كبت دوافعه الفطرية.

تمتلئ شوارع المدينة بحوانيت الجزارين، حيث تتدلّى لحوم الحيوانات، قريبًا منه، لكن عليه ألا يلمسها، وثمّة قطط كثيرة في المنازل التي يزورها السيد، عليه أن يدعها وشأنها، وما أكثر الكلاب التي تنتشر في كل مكان، وتواجهه مزمجرة، وليس له أن يهاجمها. ومن ناحية أخرى

تزدحم أرصفة الشوارع بالبشر، وعدد لا يُحصى منهم يجذب مظهره انتباههم، فيتوقّفون عن السير لينظروا إليه، ويشيرون لبعضهم عليه، وقد يفحصونه أو يتحدّثون إليه، بل أسوأ من ذلك كلّه قد يربتون عليه. نعم، كان عليه أن يتحمّل لمسات كل تلك الأيادي رغم إحساسه بخطورتها، وقد تحمّلها بالفعل، وأكثر من ذلك لقد تغلّب على إحساسه بالغرابة وتهيّب الآخرين، وبدأ يستقبل انجذاب ذلك العدد الكبير من الآلهة بغير قليل من الاعتزاز بالنفس. لقد استجاب لتلطّفهم معه بتلطّفٍ لا يخلو من ترفع؛ ومن ناحية أخرى، كان ثمة شيء في شخصيته يمنع الشعور بالألفة بينه وبين الآخرين، فلم يتعدَ الأمر أن يربت الناس على رأسه، ثم يستمرون في سيرهم، راضين، بل سعداء بالجرأة التي واتتهم.

ولم تتميّز الأمور كلها بالسهولة نفسها على أي حال. كان ناب أبيض على سبيل المثال وهو يجري خلف العربة على أطراف المدينة نفسها يمر بمجموعة من الصبية الذين اعتادوا أن يقذفوه بالحجارة، غير أنه كان مدركًا أنه ليس مسموحًا له بمطاردتهم أو الاشتباك معهم. وجد ناب أبيض نفسه مضطرًا لمخالفة غريزة حب البقاء بداخله، وهكذا فعل، فها هو ذا يتحول إلى كائن مستأنَس، ويُعِدّ نفسه ليعيش حياة متمدنة.

لم يكن ناب أبيض راضيًا تمام الرضا عن الطريقة التي تجري بها الأمور، صحيح أنه ليس لديه مفاهيم مطلقة عن الحقوق والعدالة، غير أن شعورًا ما بالاستياء كان يداخله، لأنه من غير المسموح له أن يدافع عن نفسه ضد رماة الحجارة. لقد نسي ناب أبيض في ما يبدو أن العهد الذي يجمعه مع الآلهة يتضمّن أنهم يتعهّدون برعايته والدفاع عنه، إلا أنه ذات مرة اندفع السيد من داخل العربة وبيده سوط سلّطه على هؤلاء الصبية. ومنذ ذلك الحين توقّفوا عن قذف الحجارة على ناب أبيض، الذي أدرك ما انطوى عليه ذلك الفعل من مساندة له، فامتلأت نفسه بالرضا.

وكان ثمة تجربة أخرى ذات طبيعة مماثلة، ففي الطريق إلى المدينة، وعند حانة تقع عند تقاطع طريقين، اعتادت ثلاثة كلاب أن تندفع

لمضايقته كلّما مرّ بها، ولأن السيد يعرف أسلوب ناب أبيض المُميت في القتال، فهو لم يتوقّف قط عن الإشارة لناب أبيض بأن القانون لا يسمح له بقتالها. تعلّم ناب أبيض الدرس جيّدًا، لذلك كان المرور أمام هذه الحانة مثيرًا لأعصابه، صحيح أنه في كل مرة يزمجر في وجوهها بعنف فينجح في إبعادها عنه، غير أنها تعود بعد ذلك لتجري خلف العربة، وهي تنبح وتشاكس ناب أبيض فيشعر بالإهانة. وقد تحمّل هذا لبعض الوقت، ثم بدأ بعض الرجال في الحانة يزيّنون للكلاب مهاجمته، وأخيرًا جاء اليوم الذي حرّضوا الكلاب فيه بوضوح على قتال ناب أبيض. عندئذٍ، أوقف السيد العربة، وقال لناب أبيض:

- «هيا، اهجم عليها».

لكن ناب أبيض لم يصدّق، فعاد ينظر إلى السيد، ثم إلى الكلاب، ومرة أخرى إلى السيد متلهّفًا مستفهمًا، فأومأ السيد برأسه وقال:

«هيا إليها، يا رفيقي العزيز. هيا التهمها!».

لم يعد ثمة مجال للتردّد الآن، فإذا بناب أبيض يلتفت، ويثب، مواجهًا أعداءه الثلاثة معًا. ارتفعت أصوات زمجرة، وسُمع صوت اصطكاك أسنان، ورُؤيت أجسام تتطاير، وتصاعد غبار الطريق، حتى تكوّنت منه سحابة حجبت المشهد، وبعد مرور عدة دقائق انجلت المعركة عن اثنين من الكلاب يصارعان الموت على تراب الطريق، أما الثالث فقد أطلق ساقيه للريح، فوثب عابرًا مصرف ماء، ثم قفز فوق سياج من الألواح الخشبية، وفرّ عبر أحد الحقول. تبعه ناب أبيض منزلقًا على الأرض بخفّة وسرعة، كما يليق بذئب، حتى لحق به في وسط ذلك الحقل فوثب عليه وقتله.

انتهت المشكلات الرئيسية لناب أبيض مع الكلاب بعد هذا القتل الثلاثي. لقد انتشر الخبر في كل أرجاء الوادي، فحرص أصحاب الكلاب جميعًا على أن يمنعوا كلابهم من إزعاج الذئب المقاتل.

4

نداء النوع

ومرّت الشهور، وناب أبيض يعيش حياة منعَّمة سعيدة في أرض الجنوب، حيث يتوفّر الطعام، ويندر العمل، وقد زاد وزنه، واستجاب للعطف الإنساني الذي أحاط به، كما تستجيب زهرة مزروعة في تربة طيبة لدفء الشمس فتنمو وتزدهر.

ورغم كل شيء، ظل ناب أبيض مختلفًا عن الكلاب الأخرى. لقد صار يعرف القانون أفضل من كل الكلاب التي لم تعرف أي حياة مختلفة، كما أصبح حريصًا على تطبيق ذلك القانون بدقّة أكثر من أي كلب آخر، غير أنه لا يزال ثمة شيء ما يوحي بشراسة كامنة، وكأن شيئًا من البراري لا يزال عالقًا بطبيعته، ولا يزال الذئب بداخله حيًّا وإن غفا لبعض الوقت.

لم يصادق ناب أبيض الكلاب قطّ، بل عاش وحيدًا، منعزلًا حتى عن نوعه الأصلي، وسيظل وحيدًا. لقد تعرّض للاضطهاد في طفولته من الكلب ليـپ ليـپ ومن قطيع الجراء، ثم دفعه سميث الجميل إلى قتال الكلاب، ولا شك أن كل ذلك أورثه نفورًا دائمًا من نوع الكلاب. ويمكن القول إن ذلك كلّه أدى إلى تحوّل المسار الطبيعي لحياته، فارتد مبتعدًا عن نوعه وتعلّق بالإنسان.

ومن ناحية أخرى، فإن الكلاب الجنوبية كلها تنظر إليه بكثير من التوجّس، فقد أيقظ في نفوسها خوفها الغريزي من البراري، فكانت تحيّتها له عند اللقاء هي كثير من الزمجرة العدائية التي تدلّ على الكراهية

الشديدة. أما من ناحية ناب أبيض، فقد تعلّم أنه ليس ضروريًا أن يستخدم أسنانه في مواجهتها، بل يكفي أن يُكشِّر عن أنيابه وتتقلّص شفتاه، ونادرًا ما يُخفق هذا المظهر في رد أي هجوم وشيك، وإعادة أي كلب مندفع للهجوم ليقعى على قائمتيه الخلفيتين.

كانت كولي هي المحنة الحقيقية في حياة ناب أبيض، فهي لم تعطه دقيقة من السلام. ولم تلتزم بالقانون كما فعل هو، وقد قاومت كل مجهودات السيد لجعلها من أصدقائه، فهي دومًا تلاحقه بالزمجرة الحادّة المريعة التي لا تكاد تغيب عن أذنيه. لم تنسَ كولي حادثة قتل الدجاج، وهي تصرّ على الاعتقاد بأنه سيّئ النية من البداية، أي إنها تعتقد بأنه مذنب، من قبل حتى أن يقوم بالفعل الخاطئ. لقد صارت مصدر إزعاج دائم له، كأنها حشرة ملتصقة بجسمه، أو شرطي يتبعه في الاسطبلات وفي كل بقعة من أرض السيد، فإذا وجدته يطيل النظر بفضول إلى حمامة أو دجاجة، انفجرت في صرخة غضب ونقمة. أما طريقته المفضّلة في تجاهلها، فهي أن يستلقي، مُسندًا رأسه إلى قائمتيه الأماميتين، ويتظاهر بأنه نائم. وكثيرًا ما نجح هذا في إثارة دهشتها ثم تهدئتها.

سارت الحياة هادئة بناب أبيض، في ما عدا مناكفات كولي بالطبع. لقد اتسم بالرزانة وتمالك النفس، كما التزم بالقانون. وهكذا، نجح في تحقيق قدر لا بأس به من السكينة والرصانة، والتسامح الهادئ مع الحياة. لم يعد يشعر بأن البيئة التي يعيش فيها تناصبه العداء، ولم يعد يشعر بأن الخطر والأذى والموت يتربصون به من كل ناحية، وبمرور الوقت خفتت في رأسه فكرة أن المجهول هو خطر مرعب يتربص به ويوشك أن ينقض عليه. ها هي ذي الحياة تصير سهلة هادئة، تنساب بنعومة من دون أن يعترضها خوف أو أعداء.

افتقد ناب أبيض الجليد، وإن لم يكن واعيًا بذلك، ولعله لو فكّر في الأمر لقال: «هذا الصيف طال أكثر مما يجب». أما والحال ليس كذلك،

فقد افتقد الجليد بشكل غامض. أما في الصيف، وخصوصًا عندما يعاني من حرارة الشمس، فقد كان بالطريقة الغامضة نفسها يشعر بحنين خافت للشمال البعيد، لكن تأثير ذلك لم يتجاوز على كل حال بعض الاضطراب والتململ، من دون معرفة السبب.

لم يُحسن ناب أبيض التعبير عن مشاعره، ولم يكن ثمة وسيلة لذلك سوى استكانته بين جذع السيد وذراعه في بعض الأحيان، وترنيمة الحب التي تصدر عنه تكاد تخفيها دمدمته. ورغم ذلك فقد أُتيح له أن يكتشف وسيلة ثالثة. كان ناب أبيض دائمًا حساسًا تجاه ضحك الآلهة، فالضحك يجعله يكاد يجنّ من الغضب المحموم، غير أنه لا يستطيع أن يغضب من سيده المحبوب، وعندما اختار إلهه أن يضحك عليه في مداعبة بريئة اعتراه الارتباك، فهو من ناحية يشعر بغضبه القديم ينغز صدره يكاد يشقّه بينما الحب بداخله يقاوم الغضب. نعم، هو لا يستطيع أن يغضب من السيد، لكن عليه أن يفعل شيئًا. لقد ادعى الوقار في البداية، فازداد ضحك السيد، فحاول ناب أبيض أن يكون أكثر وقارًا، فإذا بالسيد يضحك أكثر من ذي قبل. وانتهى الأمر بأن تحوّل الوقار إلى ضحك. لقد انفرج فكّاه قليلًا، وارتفعت شفته بعض الشيء، وشعّ من عينيه تعبير غريب هو أقرب للحب منه للفكاهة. ها هو ذا قد تعلّم أن يضحك!

وتعلم ناب أبيض أيضًا أن يمرح بصخب مع السيد، ويشمل ذلك الشقلبة والدحرجة وأشكالًا لا حصر لها من اللعب الخشن، ومن ناحيته يتصنّع ناب أبيض الغضب، فينفش شعره ويزمجر بشراسة، ويصطفق فكّاه، وكأنما ينوي قضمة قاتلة، لكنه أبدًا لا ينسى نفسه، فهو لا يقضم إلا الهواء. وتنتهي جولة المرح تلك بعد كثير من الضرب واللطم والانقضاض السريع والزمجرة الشرسة، إذ ينفصل الطرفان فجأة ويقفان وبينهما عدّة أقدام، يحملق كل منهما في الآخر، ثم بالشكل المفاجئ نفسه، وكما تشرق الشمس بعد العواصف البحرية، ينفجر الاثنان في

الضحك. وتكون ذروة المشهد دومًا بوضع السيد لذراعيه حول رقبة ناب أبيض وكتفيه، بينما الأخير يدمدم وتتصاعد من أعماقه ترنيمة الحب.

لم يُمكن لأحد سوى السيد أن يمرح مع ناب أبيض بهذه الطريقة، فهو لم يكن ليدع أحدًا يفعل ذلك. لقد تمسّك بكرامته، وعندما حاول بعضهم أن يفعل ذلك، نبّهتهم زمجرته وهالة الشعر حول رأسه إلى أنه ليس مستعدًا للعب. إن سماحه للسيد بملاعبته بتلك الطريقة لا يعني أن يكون كلبًا متاحًا للجميع، يعبّر عن الحب لهذا وذاك، ويلعب مع من يشاء اللعب. لم يتّسع قلب ناب أبيض إلا لحبٍّ واحدٍ، وقد رفض أن يُرخِّص نفسه أو حبه.

اعتاد السيد أن يخرج كثيرًا ممتطيًا جواده، وقد صارت إحدى المهمّات الرئيسية لناب أبيض هي مرافقته في تلك الجولات. وإذا كان قد عبّر عن ولائه في أقصى الشمال بجرّ الزلّاجة، فإنه لا زلّاجات للجرّ في الجنوب، ولا تحميل للمتاع على ظهور الكلاب. أما الوسيلة الجديدة التي يعبر بها عن ولائه فهي الجري بجوار جواد السيّد. ومهما طال وقت الجري، فناب أبيض لا تنفد طاقته إطلاقًا؛ فهو يعدو كذئب حقيقي، بنعومة وسرعة من دون تعب أو مجهود، وبعد خمسين ميلًا من الجري، يمكنه أن يعود وهو يعدو مرحًا نشطًا أمام الجواد.

وقد تمكّن ناب أبيض من إنجاز وسيلة جديدة للتعبير عن نفسه، عن طريق تجربة مرتبطة بركوب الخيل، ومن المدهش أنه لم يستطع القيام بها سوى مرّتين فقط في حياته. حدثت المرة الأولى عندما كان السيد يحاول تعليم واحد من الخيل، من فصيلة ممتازة، كيف يمكن لراكبه أن يفتح البوابة ويغلقها من دون أن يترجّل، وقد نجح السيّد عدّة مرّات في الوصول بالجواد بمحاذاة البوّابة، لكي يغلقها، لكن الجواد في كل مرة يجفل ويتراجع مبتعدًا. ثم ازداد توتر الجواد دقيقة بعد أخرى، وعندما وقف على قائمتيه الخلفيتين دفعه السيد بالمهمازين المثبتين في حذائه،

فاضطُر الجواد إلى إنزال قائمتيه الأماميتين إلى الأرض، ثم بدأ يرفس بقائمتيه الخلفيتين. أخذ ناب أبيض يراقب أداء الجواد في قلق متزايد، ثم لم يستطع أن يتمالك نفسه فاندفع في مواجهة الجواد وأخذ ينبح بوحشيّة محذّرًا.

حاول ناب أبيض أن ينبح مرّة أخرى، وشجّعه السيد على ذلك، غير أنه لم يُفلح سوى مرة واحدة، ولم يكن السيد حاضرًا. بدأ الأمر كلّه بالجواد يجري حاملًا السيد عبر المرعى، فيتعثّر في أرنب برّي قفز فجأة بين قدميه، فيميل الجواد ثم ينحرف بحدّة، ويسقط السيد على الأرض وتُكسر ساقه. انطلق ناب أبيض في تلك اللحظة، مستهدفًا عنق الجواد المذنب، وقد استبد به الغضب، لكن صوت السيد أوقفه، وهو يأمره، بعد أن تأكّد من إصابته:

- «إلى المنزل. اِذهب إلى المنزل».

عزف ناب أبيض عن ترك سيده وحيدًا، وقد فكّر الأخير في كتابة رسالة، فبحث عن ورقة وقلم في جيبه بلا جدوى، عندئذٍ كرر الأمر لناب أبيض بالذهاب إلى المنزل، فنظر إليه بأسًى، ثم بدأ يتحرّك مبتعدًا، غير أنه عاد إليه وهو يتأوه بصوت خافت. حدّثه السيد عندئذٍ بلطف، وجدّية، فانتصبت أذناه واستمع بتركيز شديد والألم يعتصره. قال السيد:

- «لا بأس يا صديقي العزيز، فقط اُركض إلى المنزل، وأَخبرهم بما جرى لي. هيا إلى المنزل، هيا أيها الذئب».

فهم ناب أبيض المقصود بكلمة «المنزل»، ورغم أنه لم يفهم بقية كلمات السيد، فقد أدرك أنها رغبة السيد أن يذهب إلى المنزل، لذلك استدار وبدأ يهرول رغمًا عنه في اتجاه المنزل، غير أنه توقّف بعد قليل متردّدًا ونظر إلى الخلف من أعلى كتفه، عندئذٍ جاءه الأمر الحاسم «اِذهب إلى المنزل!». فأطاعه هذه المرّة من دون تردّد.

كانت الأسرة مجتمعة في الشرفة تستمتع بالجو اللطيف في عصر ذلك اليوم، عندما وصل ناب أبيض، ثم دخل وسطهم وهو يلهث وقد غطاه الغبار. فقالت والدة ويدون بصوت عالٍ:

- «لقد عاد ويدون».

رحب الطفلان بناب أبيض بصيحات السرور، ثم ركضا ناحيته ليستقبلاه، إلا أنه تجنّبهما واستمر في طريقه عبر الشرفة، فإذا بهما يُضيّقان عليه حتى وجد نفسه محصورًا بين كرسيّ هزاز من ناحية وأعمدة الشرفة من ناحية أخرى. زمجر ناب أبيض محاولًا أن ينحّيهما جانبًا. ونظرت أمهما في اتجاههما وهي متوجّسة، وقالت:

- «يجب أن أعترف أنه يجعلني أتوتّر عندما يقترب من الطفلين، وأخشى أن يهجم عليهما فجأة في يوم من الأيام».

اندفع ناب أبيض خارجًا من ذلك الركن فتعثّر بالطفلين اللذين سقطا على الأرض، فنادتهما الأم إليها وحاولت تهدئتهما، وطلبت إليهما ألا يُضايقا ناب أبيض. وجاء تعليق القاضي سكوت على ما حدث:

- «الذئب لا تتغير طبيعته، وسيظلّ دومًا ذئبًا، لا يمكن الثقة به».

فاعترضت بيث قائلة، وكأنما مدافعة عن أخيها في غيابه:

- «لكنه ليس ذئبًا فقط».

وجاء الرد السريع للقاضي سكوت:

- «ليس هناك من يرى ذلك سوى ويدون»، ثم أضاف:

«هو فقط يخمّن أن هناك لمحة من سلالة الكلاب في ناب أبيض، لكنه لا يعرف عنها شيئًا مؤكّدًا. أما بالنسبة لمظهره...».

لم يُكمل القاضي جملته، إذ التفت إليه ناب أبيض وشرع في الزمجرة بشراسة، فأمره الرجل:

- «اِذهب بعيدًا. ارقد هناك يا هذا».

التفت ناب أبيض إلى زوجة السيد المحبوب، التي صرخت خائفة، فقد جذب ثوبها بأسنانه وأخذ يشدّه حتى انقطع نسيجه الرقيق. أصبح ناب أبيض منذ هذه اللحظة محط أنظار الجميع، أما هو فقد توقّف عن الزمجرة، ووقف مرفوع الرأس يتطلع في وجوههم، وقد أخذ حلقه يتشنّج بشكل متقطّع، من دون صوت، وجسمه كلّه يرتجّ وهو يجاهد محاولًا أن يتحرّر من ذلك الشيء الذي يودّ أن يوصله لهم ولا يعرف كيف. وقالت والدة ويدون فجأة:

- «أرجو ألا يكون قد جُنّ. لقد أخبرت ويدون من قبل أنني أخشى أن الطقس الحار لا يناسب حيوانًا قطبيًا».

وقالت بيث بلهجة مؤكّدة:

- « إنه يحاول أن يقول شيئًا، لا شك في ذلك».

وقد جاء الكلام بالفعل في تلك اللحظة إلى حلق ناب أبيض، فانطلق على شكل انفجار من النباح، فإذا بزوجة ويدون تقول بلهجة تنمّ عن اليقين:

- «لا شك أن شيئًا ما قد أصاب ويدون».

عندئذٍ هبّ الجميع يهرولون في إثر ناب أبيض الذي سبقهم على الدرج، وهو يلتفت برأسه إلى الخلف ليتأكّد أنهم يتبعونه. وكانت تلك هي المرة الثانية والأخيرة التي استخدم فيها ناب أبيض النباح لكي يفهمه الآخرون.

صار لناب أبيض بعد هذا الحادث مكانة خاصّة في قلوب ساكني «سيبرا ڤـيستا»، حتى سائس الخيل الذي نهش ذراعه من قبل أقرّ بأنه كلب حكيم حتى لو كان ذئبًا! أما القاضي سكوت، فهو لا يزال على رأيه السابق، ورغم اختلاف الجميع معه فهو لا يكفّ عن محاولة إثبات رأيه لهم، معتمدًا على مقاييس وشروح مأخوذة من الموسوعات وكتب

أخرى في التاريخ الطبيعي.

ومرت الأيام، والشمس لا تني ترسل أشعتها على وادي «سانتا كلارا»، غير أن النهار بدأ يقصر، إذ أخذ الشتاء الثاني لناب أبيض في الجنوب يقترب، وفي تلك الأيام اكتشف شيئًا غريبًا، وهو أن أسنان كولي لم تَعُد حادّة معه! لقد صارت عضّاتها أكثر لطفًا، كأنها مزاح لا يؤلم، حتى إن ناب أبيض نسي أنها قد جعلت حياته عذابًا في الماضي، وعندما أخذت تناوشه وتلاعبه حاول جعل استجابته مرحة لكن طبعه الرزين جعله يبدو أحمقَ بعض الشيء.

وقادته كولي - ذات يوم - عبر المراعي الواقعة خلف المنزل، فتعقّبها لمسافة طويلة حتى وصلا إلى الأدغال. كان ذلك هو اليوم الذي سيخرج فيه السيد راكبًا جواده وقد تم تجهيز الأخير، وشُدَّ عليه السَرج، وهو واقف لدى الباب. تردّد ناب أبيض لبعض الوقت، وكان ثمة شيءٌ ما بداخله أعمق من القانون الذي تعلّم أن يخضع له، ومن التقاليد التي شكّلته، بل أعمق من حبه للسيد ومن رغبته في الحياة، وفي لحظة التردّد هذه عضّته كولي بخفة وأسرعت تعدو منصرفة عنه، فاستدار وتبعها. لقد خرج السيد وحده مُمتطيًا جواده في ذلك اليوم، على حين ركض ناب أبيض إلى الأدغال، بجوار كولي، كما ركضت أمه كيتش إلى جوار الذئب العجوز منذ سنوات طويلة مضت، في غابات أرض الشمال الهادئة.

5

الذئب النائم

امتلأت الجرائد في تلك الفترة بأخبار الهروب الجريء لأحد المسجونين المُدانين في سجن «سان كوينتن»، وهو رجل شرس سيّئ الطبع منذ ولادته، ولم تُفلح محاولات المؤسّسات الآجتماعية المختلفة في تحسين شخصيته. بل تم التعامل معه بقساوة زادته وحشية، بل حوّلته إلى وحش. صحيح أنه وحش آدميّ، لكنه على أي حال وحش مريع، حتى يكاد يوصف بأنه من آكلي لحوم البشر.

لقد أثبتت إقامته في ذلك السجن أن لا سبيل لإصلاحه، فالعقوبة أخفقت في أن تكسر روحه، وهو مستعد لأن يقاتل حتى اللحظة الأخيرة من حياته، لكنه لا يقبل بالهزيمة حتى لو كان ثمنها حياته. وكلما زادت شراسته في القتال تضاعفت حدة المجتمع في معاملته، ولم تكن نتيجة تلك الحدة سوى أن تتضاعف شراسته. لا شك أن تجويع ذلك الوحش، واسمه چيم هول، وضربه بالهراوات ومحاولات سحقه، كانت كلّها طرق خاطئة لمعاملته، لكنها المعاملة التي ظلّ يتلقّاها منذ كان طفلًا هشًّا في أحد الأحياء الفقيرة في سان فرانسيسكو، أي عندما كان مجرّد عجينة في يد المجتمع قادر على تشكيلها كيفما يشاء.

التقى چيم هول أثناء فترته الثالثة في السجن بأحد الحرّاس الذي يماثله في الشراسة. اعتاد هذا الحارس أن يظلمه، وكثيرا ما كذب على مأمور السجن في ما يخصه، حتى أساء الظنّ به إلى أقصى حدٍّ، كما اعتاد

أن يضطهده بكل وسيلة ممكنة. لم يكن ثمة اختلاف بينهما في الحقيقة سوى أن الحارس يحمل في جيبه مجموعة من المفاتيح ومسدس، بينما لا يملك چيم هول شيئًا إلا يديه العاريتين وأسنانه، وقد انقضَّ على عنق الحارس في أحد الأيام مستخدمًا أسنانه كما قد يفعل أي حيوان في الأدغال.

قرّرت إدارة السجن، بعد ذلك الحادث أن يعيش چيم هول في زنزانة انفرادية باعتباره سجينًا خطيرًا لا أمل في إصلاحه. وقد عاش بالفعل لمدة ثلاث سنوات في تلك الزنزانة المصنوعة بكاملها من الحديد: الأرضية والحوائط والسقف. ولم يُسمح له على الإطلاق بالخروج منها، فهو لا يرى السماء أو ضوء الشمس، فنهاره ضوء غائم وليله صمت غارق في السواد. كانت تلك الزنزانة بمثابة مقبرة حديدية دُفِن فيها الرجل حيًّا، فلا يتحدّث إلى أي كائن بشري، بل لا يرى أي كائن بشري، وعندما يُدفع له الطعام إلى داخل الزنزانة يزوم كأنه حيوان مفترس. استقرّت في نفس چيم هول كراهية عميقه تجاه كل شيء، وكم من أيام ولياٍل قضاها في زنزانته ينفث كراهيته وغضبه في مواجهة الكون، وكم من أسابيع وشهور قضاها من دون أن يُصدر أي صوت، على حين يلتهم الظلام الدامس روحه في صمت. كان چيم هول وحشًا آدميًا، وكائنًا مثيرًا للرعب، تتجاوز هلوساته المخيفة أي جنون.

وذات ليلة تمكّن چيم هول من الهرب. قال المأمور إن ذلك مستحيل، ورغم ذلك كانت الزنزانة خاوية، وقد تمدّدت جثة الحارس على الأرض نصفها إلى خارج الزنزانة والنصف الآخر في الداخل. ثم عُثر على جثتين أخريين ما بين الزنزانة وأسوار السجن، كانتا بمثابة علامتين توضحان طريق الهروب. لقد قتلهم جميعًا بيدين عاريتين، لكي يتجنّب إثارة أي ضجة.

ها هو ذا چيم هول يجوب المنطقة مزودًا بترسانة من الأسلحة،

هي تلك التي استولى عليها من الحرّاس المقتولين، ومطارَدًا من الناس ومن الدولة، بعد أن رُصد مبلغًا كبيرًا هدية لمن يأتي برأسه. وهكذا بدأ المزارعون الطامعون في المال يتتبّعون آثاره ببنادق الصيد. كما أن المواطنين الملتزمين بخدمة مجتمعاتهم، فقد حملوا أسلحتهم وانطلقوا يبحثون عنه ومعهم فريق من كلاب الصيد يتتبّع آثار دمائه النازفة، ومجموعة أخرى ممن يدفع لهم المجتمع سرًّا ليقتفوا آثار الخارجين عليه، ويستخدم هؤلاء الهواتف والبرقيات وقد ينتظمون في جماعات بحث خاصّة، وذلك كله لتتبع آثاره على الطريق، ليلًا ونهارًا.

وقد التقى به بعض هؤلاء المطاردين، فمنهم من واجهه ببطولة، ومنهم من فرّ منه. وما إن يعود الجرحى وجثث القتلى الذين واجهوه إلى المدن، حتى يأتي آخرون بدلًا منهم، تغمرهم الحماسة لمحاولة اصطياده أو يدفعهم الطمع بالحصول على الجائزة المرصودة مقابل رأسه.

ثم اختفى چيم هول، وظلّت كلاب الصيد تجِدّ في أثره من دون فائدة. وصار أصحاب المزارع الأبرياء في الوديان البعيدة يُضطرون إلى الوقوف على طرق السفر امتثالًا لأوامر مسلحين يستوقفونهم ويطالبونهم بالتعريف بأنفسهم، على حين كان مطاردو چيم هول الطامعين في الحصول على النقود في مقابل رأسه، يلاحقون بعض آثاره على سفوح الجبال.

قرأ سكان «سييرا ڤيستا» الجرائد، ليس فقط باهتمام، ولكن أيضًا بكثير من القلق، وشعرت النساء بشكل خاصّ بالخوف. أما القاضي سكوت فكان يضحك في سخرية، رغم مجافاة ذلك للحكمة، فقد كان القاضي في أيامه الأخيرة على منصّة القضاء عندما وقف چيم هول وتلقّى منه الحكم الأخير بالسجن، فما كان منه إلا أن أقسم في قاعة المحكمة، أمام جميع الحاضرين أنه سوف يجيء اليوم الذي سينتقم فيه من القاضيسكوت الذي حكم عليه وهو يصرّ على براءته.

تلك هي المرة الوحيدة التي كان چيم هول فيها على حق، فقد كان بريئًا من تلك التهمة التي أُدين فيها. هذه القضية التي تسمّى بلغة اللصوص ورجال الشرطة «حكمٌ متسرّعٌ»، كانت نتيجتها أن أُسرع بالرجل إلى السجن، ليُعاقب على جريمة لم يرتكبها، وقد حكم عليه القاضي سكوت بالسجن لمدة خمسين عامًا متأثّرًا بإدانته في جريمتين سابقتين.

القاضي سكوت لم يعرف كل شيء. لم يعرف أنه بهذا الحكم قد صار جزءًا من مؤامرة دبّرتها الشرطة، وأن الأدلة كانت مُلفّقة، وأن چيم هول كان بريئًا من تلك الجريمة التي يحاكمه بسببها. أما چيم هول، من الناحية الأخرى، لم يعلم أن القاضي كان جاهلًا بتلك التفاصيل، بل ظنّ أن القاضي يعلم كل شيء، وأنه تعاون مع رجال الشرطة في تدبير ذلك الحكم الظالم. هكذا كان الحال عندما نطق القاضي بذلك الحكم بالسجن لمدة خمسين عامًا والذي يعني الموت والمرء على قيد الحياة، فإذا بالسجين چيم هول الذي يكره كل شيء ينتمي لذلك المجتمع الذي أساء إليه، يندفع في سورة غضب في قاعة المحكمة، إلى أن أمسك به عدد من أعدائه ذوي الحلّة الزرقاء وجرّوه إلى خارج القاعة. كان القاضي سكوت في عيني المتّهم هو الركن الرئيسي في الظلمّ الذي يتعرّض له، لذلك أفرغ في حضرته كل غضبه، وقذف في وجهه بتهديداته بالانتقام القادم. ثم ذهب الرجل إلى حياته التي تساوي الموت. وبعد ذلك نجح في الهرب.

لم يعرف ناب أبيض شيئًا من هذا كلّه. ما عرفه بالفعل فهو سرّ صغير، بينه وبين أليس، زوجة السيد، ففي كل ليلة، وبعد أن ينام الجميع في «سييرا ڤيستا» تنهض السيدة من سريرها وتذهب لتفتح الباب لناب أبيض لكي يدخل المنزل وينام في البهو. ثم تفتح له الباب ليخرج من المنزل في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ أفراد الأسرة، وذلك لأن ناب أبيض ليس كلبًا منزليًا، وليس مسموحًا له بالنوم داخل المنزل.

استيقظ ناب أبيض من نومه ذات ليلة من تلك الليالي، بينما الجميع نائمون، وظلّ راقدًا في سكون، ثم تشمّم الهواء وقرأ الرسالة التي يحملها، وفحواها أن ثمة إلهًا غريبًا موجودًا في المكان، وقد استمعت أذناه بالفعل لأصوات ناتجة عن بعض تحركات ذلك الغريب. لم يُطلق ناب أبيض أي صيحات غاضبة، فهذا ليس أسلوبه المعتاد. سار الإله الغريب بخفّة، وسار ناب أبيض خلفه، ولكن بخفة أكبر، فهو لا يرتدي ملابس يمكن أن تحتكّ بجسمه وتصدر أصواتًا. تبعه ناب أبيض في صمت إذًا، فقد تعلّم في البراري أن يصطاد الفرائس الحيّة، المستأنسة غالبًا، وهو يدرك تمامًا ميزة المفاجأة.

توقّف الإله الدخيل للحظة عند قاعدة الدرج الرئيسي، الذي يقود إلى السيد المحبوب وأعزّ الناس عنده، وأخذ يسترق السمع، بينما ناب أبيض ينتظر مترقبًا، في سكون الموتى. انتفش شعر ناب أبيض، لكنه ظلّ هادئًا، إلى أن ارتفعت قدم الإله الدخيل وشرع في صعود الدرج.

عندئذٍ انقضَّ ناب أبيض من دون أي إنذار، أو زمجرة تُنبئ عما هو موشك على فعله. لقد ارتفع جسمه في الهواء في قفزة استقر بعدها على ظهر الدخيل. تعلّق ناب أبيض بقائمتيه الأماميتين في كتفي الرجل، بينما غرز أنيابه في عنقه من الخلف، وظلّ على هذا الوضع ما يكفي من الوقت لكي يجرّ الإله إلى الخلف. التحم الاثنان ثم ارتطما بالأرض، وارتد ناب أبيض إلى الخلف ثم هجم مرة أخرى بأنيابه الحادة، قبل أن يتمكّن الرجل من النهوض من على الأرض.

استيقظ أهل «سييرا ڤيستا» منزعجين، فالضجة الصادرة من الطابق السفلي تبدو وكأنها ناتجة عن عشرين شيطانًا يتعاركون. ثم سُمعت طلقات رصاص، وصرخة رجل تنضح بالرعب والعذاب، وتعالى صوت زمجرة صاخبة، وأحاطت بذلك كلّه أصوات تهشُّم زجاج وتحطُّم أثاث.

تلاشت الأصوات فجأة بالسرعة نفسها التي انبعثت بها، إذ لم يتجاوز ذلك الصخب ثلاث دقائق. وتكدّس أعضاء العائلة المذعورون أعلى الدرج، بينما تصاعد من أسفل الدرج، وكأنما من أعماق هاوية سوداء صوت غرغرة، وكأنما ثمة فقاعات من الهواء في قدر من الماء. ثم تحوّل صوت الغرغرة هذا إلى ما يُشبه الصفير، وبالتدريج أخذ يتلاشى حتى اختفى تمامًا. وأخيرًا، لم يَعُد ثمة شيء يخرج من الظلام سوى لهاث ثقيل لكائن يجاهد بعنف للحصول على بعض الهواء.

ضغط ويدون سكوت على زرٍّ ما، فإذا بالضوء يغمر الدرج والدور السفلي، عندئذٍ شرع مع والده في النزول على الدرج بحذر شديد، وفي يد كل منهما مسدسه. لم يكونا في الحقيقة في حاجة لأي حذر، إذ أدى ناب أبيض مهمته على خير وجه، ففي وسط حطام الأثاث المُهشّم المبعثر في أنحاء المكان كان ثمة رجل ممدد على الأرض، على أحد جانبيه، وقد اختفى وجهه خلف إحدى ذراعيه. انحنى ويدون سكوت فوق الرجل، وأزاح ذراعه، ثم أدار رأسه إلى أعلى، فإذا بجرح عميق في عنقه يوضح كيفية موته.

قال القاضي سكوت مندهشًا:

- «چيم هول!». وتبادل الرجلان نظرات ذات مغزى.

ثم التفت الاثنان إلى ناب أبيض، الذي كان أيضًا ممدّدًا على جانبه، وعيناه مغمضتان، أما جفناه فقد ارتفعا قليلًا في تثاقل، في محاولة منه للنظر إلى الرجلين اللذين انحنيا يفحصانه، على حين أخذ ذيله يتحرّك في محاولة مضنية لتحريك جسده من دون أي جدوى. ربت ويدون سكوت عليه، فصدرت عنه دمدمة شكرٍ، لا يمكن وصفها إلا بالضعف، وسرعان ما تلاشت. الآن سقط جفناه تمامًا، فأغلقا عينيه، وارتخى جسمه هامدًا على الأرض.

تمتم السيّد:

- «يا له من مسكين. لقد قُضي عليه».

فقال القاضي في لهجة تأكيد، وهو يُسرع في اتجاه الهاتف:

- «سنرى ما يمكننا عمله».

- «بصراحة، فرصته في النجاة لا تتعدّى الواحد في الألف».

هكذا قال الطبيب الجرّاح بعد أن انشغل بفحص ناب أبيض لما يقرب من ساعة ونصف.

كان ضوء الفجر ينسكب من النوافذ المفتوحة، على حين خبا ضوء الكهرباء في داخل المنزل، والتف الجميع، باستثناء الأطفال، حول الطبيب، ليستمعوا إلى رأيه في حالة ناب أبيض. قال الرجل:

- «ساق خلفية مكسورة، وكذلك ثلاثة ضلوع، وواحد منها على الأقل اخترق الرئة. لقد كاد يفقد كل الدماء في جسمه، وثمة احتمال كبير أن تكون هناك إصابات داخلية أخرى. لا بد أنه تعرض لهجوم شديد، ومع ثلاث رصاصات ثقبت جسمه فإن القول بأن فرصته تبلغ واحد في الألف هو منتهى التفاؤل، فهي لا تتجاوز واحد في عشرة آلاف في أحسن الأحوال».

قال القاضي سكوت بلهجة حاسمة:

- «لا نريد أن نضيّع أي فرصة أرجو أن تنقذه، مهما كانت التكلفة. أرجوك، لا تتردّد في استخدام أي شيء تراه مفيدًا». ثم التفت إلى ابنه وقال:

- «يا ويدون، أرسل برقية على الفور إلى دكتور نيكولاس في «سان فرانسيسكو». ثم توجّه بالحديث إلى الطبيب مرة أخرى:

- «لا أقصد أي إهانة يا سيدي، أنت تدرك بالطبع أنني لا أريد أن أُضيّع أي فرصة لإنقاذه».

ابتسم الطبيب الجرّاح في تفهُّم وقال:

- «بالطبع، يا سيدي. أنا أُقدّر وجهة نظرك تمامًا. وهو في الحقيقة يستحق أن ينال كل فرصة ممكنة لإنقاذه. ويجب أن يحصل على كل الرعاية الممكنة ويتلقى تمريضًا كأي إنسان، بل كطفل مريض. وأرجوكم، لا تنسوا ما أخبرتكم به عن درجة الحرارة. سوف أعود مرة أخرى في الساعة العاشرة».

تلقّى ناب أبيض أقصى رعاية ممكنة، وقد اقترح القاضي سكوت أن يأتوا بممرضة متخصّصة تقوم بتلك المهمة، غير أن الفتيات احتججن على ذلك الاقتراح، وقمن بأداء تلك المهمة بأنفسهن. ونجا ناب أبيض بحياته، رغم الفرصة الضئيلة التي لم تتعدَ واحدًا من عشرة آلاف، التي تنبأ بها الطبيب الجراح.

لم يكن الطبيب في واقع الأمر ملومًا في توقعاته. لقد قضى حياته المهنية يرعى بشرًا مرفّهين، ويُجري لهم العمليات الجراحية في بعض الأحيان. وهؤلاء هم أبناء الحياة المتمدّنة الذين عاشوا حياتهم متمتّعين بحماية الآخرين والمجتمع لهم، وهم ينحدرون من أجيال سابقة تمتّعت بالحماية نفسها، وبمقارنة هؤلاء بناب أبيض نجد أنهم يتميزون بالهشاشة والضعف، ويتعلّقون بالحياة من دون أي قوة. أما ناب أبيض، فقد أتى مباشرة من البراري، حيث تهلك الكائنات الضعيفة في مراحل مبكرة من حياتها، ولا يضمن أحد الحصول على أي نوع من الحماية، ولم يعرف أبوه وأمه أي قدر من الضعف، ولم تعرفه أيضًا أجيال أخرى سبقتهما. نعم، تمتّع ناب أبيض ببنية حديدية وحيوية اكتسبها من البراري، فصار الاثنان إرثه المستحق، وكان أيضًا مُتشبّثًا بالحياة، من أعماق نفسه، وبكل جزء فيه، من روح وجسم، ويضاف إلى ذلك التعلّق بالحياة الذي تعرفه كل المخلوقات منذ القِدَم.

تمرّ الأسابيع متباطئة، وناب أبيض كالسجين، غير قادر حتى على الحركة بسبب الضمادات وجبائر الجبس التي تلف جسمه. صار ينام لساعات طويلة، ويحلم كثيرًا، وفي رأسه تمرّ مواكب لا تنتهي لرؤى من حياته في أرض الشمال، وخلالها تنهض كل أشباح الماضي من أعماق نفسه وتأتي إليه لترافقه. ها هو ذا يعيش في العرين مع كيتش، ويتسلّل مرتعدًا إلى ركبتي السمّور الرمادي لكي يقدّم ولاءه، ويجري لإنقاذ حياته من الكلب ليـپ ليـپ، وكل فريق الجراء التي تطارده بالعواء.

تعدّدت رؤية ناب أبيض لنفسه في تلك الرؤى الصامتة، وهو يجري ليصطاد طعامه الحيّ خلال شهور المجاعة، ثم وهو يجري قائدًا فريق الزلّاجة تطاردهم جميعًا الأسواط في أيدي ميتساه والسمّور الرمادي، وهما يصيحان ليدفعا الكلاب إلى أن تتلاصق حتى تستطيع العبور من أحد الممرات الضيقة. وكذلك رأى الحياة التي عاشها مع سميث الجميل والمعارك التي خاضها، وفي مثل تلك الأوقات يصدر عنه - أثناء نومه - بعض الأنين وأحيانًا الزمجرة، فيدرك من حوله أنه يرى أحلامًا سيئة.

وكان ثمة كابوس فظيع سبّب له على وجه الخصوص كثيرًا من المعاناة، وفيه يرى العربات الكهربائية المتوحّشة التي تصلصل بشكل مُريع، وتبدو له كأنها حيوانات وشق عملاقة تصرخ في وجهه. وكم من مرة رأى نفسه مُختبِئًا وراء بعض الشجيرات الملتفّة يترقّب خروج سنجاب من مخبأه على الشجرة، لمسافة كافية على الأرض، تسمح له بالانقضاض عليه. وعندما يخرج السنجاب وينقض عليه ناب أبيض يفاجأ به وقد تحوّل إلى عربة كهربائية فظيعة متوعّدة، سرعان ما تأخذ في الانطلاق إلى أعلى كأنها جبل يعلوه، وتظلّ تصرخ وتصلصل، وتقذف عليه نارًا مشتعلة! ويتكرّر الأمر نفسه عندما يتحدّى في نومه صقرًا في السماء، فإذا بالأخير يهبط بغتة من السماء الزرقاء وقد حوّل نفسه إلى العربة الكهربائية نفسها التي تطارده في كل مكان! كذلك رأى نفسه مرات

أخرى في الحظيرة التي اعتاد أن يحبسه فيه سميث الجميل، وفي الخارج يلتف الرجال حول الحظيرة، على حين يترقّب هو دخول خصمه من الباب لكي يبدأ القتال. ثم ينفتح الباب وتندفع منه، منقضّة عليه، العربة الكهربائية البشعة نفسها. لقد رأى تلك الأحلام ما يقرب من ألف مرة، وفي كل مرة، تنتابه مشاعر الرعب، بالعمق والقوة نفسها.

ثم جاء اليوم الذي أُزيلت فيه آخر الضمّادات والجبائر، والتفّ قاطنو «سييرا ڤيستا» جميعًا حول ناب أبيض، لكي يحتفلوا بهذه المناسبة، فعرك السيد المحبوب أذنيه، على حين أصدر ناب أبيض ترنيمة الحب من أعماق نفسه. وأطلقت عليه زوجة السيد في ذلك اليوم اسم «الذئب المبارك»، وقد استحسنت النساء جميعًا ذلك الاسم، وبدأن في استخدامه لمناداته.

حاول الذئب المبارك أن يقف على أقدامه، لكنه بعد عدة محاولات سقط على الأرض بسبب ضعفه. لقد رقد لمدة طويلة حتى فقدت عضلاته قوتها وقدرتها. عندئذٍ، شعر بشيء من الحرج بسبب ضعفه، وكأنه في واقع الأمر قد خذل الآلهة في الخدمات التي يدين لها بها. ولهذا السبب قام بجهد بطولي لكي يتمكّن من النهوض، وفي نهاية الأمر نجح في الوقوف على قوائمه الأربع، ثم أخذ يتحرّك مترنّحًا في كل اتجاه.

صاحت النساء جميعًا في صوت واحد:

- «الذئب المبارك».

تطلع إليهن القاضي سكوت بنظرة منتصرة، وقال:

- «ها هي ذي تخرج من أفواهكن، تمامًا كما كنت مقتنعًا طوال الوقت. إن مجرّد كلب لا يمكنه أن يفعل ما فعله. هو ذئب بكل تأكيد».

فقالت زوجته وكأنما تُصحّح كلامه:

- «ذئب مبارك».

فعقّب القاضي متفقًا معها في الرأي:

- «نعم، ذئب مبارك. وسوف أطلق عليه هذا الاسم من هذه اللحظة».

وعلّق الطبيب:

- «سيحتاج إلى أن يتعلّم المشي من جديد، فلم لا يبدأ في الحال؟ إذهبوا به إلى الخارج، ولا تقلقوا فلن يكون الأمر مؤلمًا».

ولقد ذهب إلى الخارج بالفعل. ذهب كملك وقد أحاط به قاطنو «سيبرا ڤيستا»، وهم على أتم استعداد لرعايته. أما هو فقد كان في غاية الإجهاد، وعندما وصل إلى بداية الحديقة تمدّد على الأرض ليستريح لبعض الوقت.

بدأ الموكب يتحرّك من جديد، وقد اندفعت دفقات من الطاقة في عضلات ناب أبيض، بعد أن عاد إلى استخدامها وأخذ الدم في التدفّق خلالها. وأخيرًا وصل الجميع إلى الاسطبل حيث كانت كولي مستلقية على عتبة المدخل، وحولها نصف دزّينة من الجراء السمينة تلعب في ضوء الشمس.

نظر ناب أبيض إلى ذلك المشهد بعينين مندهشتين، أما كولي فقد أخذت تزوم في وجهه محذّرة، مما جعله حريصًا على الحفاظ على مسافة مناسبة.

مدّ السيد المحبوب ساقه ودفع بطرف قدمه واحدًا من الجراء المنتشرة في المكان، إلى ناحية ناب أبيض، مما جعل الأخير ينفش شعره متشكّكًا، غير أن السيد نبهه إلى أن كل شيء على ما يرام. كولي، التي كانت إحدى النساء تحيطها بذراعيها، أخذت ترقبه بشيء من الغيرة، ثم حذّرته بزمجرة جديدة أنه ليس كل شيء على ما يرام.

استلقى الجرو أمام ناب أبيض، فانتصبت أذنا الأخير في اهتمام، وأخذ يرقبه بفضول، ثم تلامس أنفاهما، وأحس باللسان الدافئ للجرو

على فكّه الأسفل. فوجئ الأب عندئذٍ بلسانه يخرج من فمه، من دون أن يدري لماذا، وإذا به يلعق وجه الجرو.

صدرت صيحات الرضا عن الآلهة المتحلّقة حولهما، وصفقت بأياديها تحية لذلك المشهد. اندهش ناب أبيض ونظر حوله في ارتباك، ثم غلبه الضعف، فتمدّد مرة أخرى وأراح رأسه على أحد جانبيها على الأرض، على حين ظلت أذناه منتصبتان، وعيناه ترقبان الجرو القريب منه.

شرعت الجراء الأخرى في الاقتراب من ناب أبيض، مما أثار استياء كولي، أما هو فقد سمح لها أن تتسلّق جسمه وتتشقلب من فوقه. وقد بدا منه في البداية، أثناء تصفيق الآلهة، ما ينم على شعوره القديم بالحرج والغرابة، غير أن تلك المشاعر مرّت بسرعة، على حين استمرت الجراء في الملاعبة والمخاشنة. أما هو فقد ظلّ ممددًا على الأرض، يغفو في ضوء الشمس، بعينين صبورتين، نصف مغمضتين.

مكتبة
t.me/t_pdf

جاك لندن (1876–1916)

جون غريفيث لندن، المعروف باسم جاك لندن، روائي وصحفي وناشط إجتماعي، ومن أبرز الكتاب الأميركيين الذين نالوا شهرة عالمية وتُرجمت أعمالهم إلى معظم لغات العالم. كان والده كاهنًا، لكن جاك تأثر بالماركسية، وانضمّ إلى جماعات تدعو إلى الاشتراكية، وتبنى نظرية داروين عن التطور، وهو ما ترك تأثيرًا واضحًا في معظم رواياته.

على الرغم من أنه صحفي وكاتب معروف وشاعر إلّا أنه عمل في مهن كثيرة، من عامل في مصنع، إلى بحّار وعامل منجم... وجاءت معظم أعماله في سياق انتقاد النظام الرأسمالي واستغلال العمّال، والدفاع عن الطبيعة (وهذا ما يظهر جليًّا في الرواية).

وعلى الرغم من حدّة مواقفه وتبدلها، وعلى الرغم من الأراء المتناقضة إزاء شخصه وكتابته، إلا أن هناك اتفاق على أنه كاتب عظيم ومبدع ترك تأثيرًا كبيرًا، واعتُبر ظاهرة أدبية، وصارت أعماله من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي.

من أشهر أعماله:

- نداء البراري
- الناب الأبيض
- العقب الحديدية
- ذئب البحر
- أهالي قعر المجتمع

بعد مرحلة من الحياة القاسية لتعلم العيش في ظروف صعبة، وبعد أن قرّر الذئب أن يصبح عدوًا لنوعه وأن يعيش مع الإنسان، ابتاعه رجل استعمله في قتال الكلاب حتى الموت كسبًا للمال. إلى أنقذه أحد الباحثين عن الذهب، ومنحه فرصة جديدة لحياة مختلفة. وعلى الرغم من الذئب النائم داخل ناب أبيض، فإن الرفق والتعاطف البشري راحا يبعثان في نفسه وعيًا جديدًا بمعنى جديدٍ للحياة في كنف الإنسان.

قصة الذئب المشهورة هذه، التي أبدعها جاك لندن، ستكشف للقارئ عالم الحيوان بقسوته وخطورته، وعالم الإنسان الذي لا يقل عنه عنفًا.

ناب أبيض حيوان من الضواري، يصارع بشراسة لكي يبقى على قيد الحياة في الشمال المتجمد. ماذا يا ترى سيحدث عندما يقرّر العيش تحت رعاية البشر؟ وإلى أي مدى سيخضع لتلك الرعاية البشرية؟

***

جون غريفيث لندن، المعروف باسم **جاك لندن**، روائي وصحفي وناشط اجتماعي ومدافع عن البيئة، ومن أبرز الكتّاب الأميركيين الذين نالوا شهرة عالمية وتُرجمت أعمالهم إلى معظم لغات العالم، وصارت من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي.

***

رواية «ناب أبيض» هي - إلى حد ما - سيرة ذاتية رمزية تستند على التحوّل الذي طرأ على المؤلف نفسه، من مراهق خارج على القانون إلى رب أسرة، يمتهن الكتابة. وقد تأثر جاك لندن وهو يكتب هذه الرواية بأفكار هربرت سبنسر وكارل ماركس وفردريك نيتشه. ولا شك أنه قد تأثر أيضًا بظروف الحياة في الولايات المتحدة آنذاك.

telegram @t_pdf

تكييف الغلاف: ريم مجدي
ISBN 978-9938-941-32-6
9 789938 941326
daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس